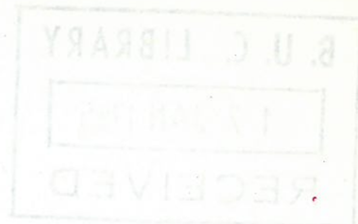
شيمون شيفر

كرة الثلج

أسرار التدخل الاسرائيلي في لبنان



مدخل

إنّ ما بدأ كحلم كبير بتدمير منظمات المخربين في لبنان واجتثاثها من جذورها وتوقيع اتفاق سلام مع دولة عربية ثانية بعد مصر، وإيجاد «نظام جديد» في المنطقة وضمان امن مستوطنات شمال إسرائيل، قد انتهى مأساة كبيرة، اذا أردنا ان نستخدم تعبير رئيس الحكومة السابق مناحم بيغن. ومثل هذه الامور تحصل منذ الأزل.

إن الأبطال الرئيسيين الذين حاكوا «الخطة الكبيرة» قبل عدة اشهر من بداية الحرب رسمياً، قد شهدوا كيف تساقطت ثمار خطتهم كما يتداعى برج من ورق. هؤلاء الأبطال ما عادوا في واجهة الأحداث: في اسرائيل اخلى مناحم بيغن مكانه في مكتب رئاسة الحكومة واقفل على نفسه في منزله تلفّه كآبة عميقة.

اريئيل شارون أُرغم على الاستقالة من منصبه كوزير للدفاع بموجب توصية من لجنة كاهان. رفائيل إيتان اعتزل عرش رئاسة الاركان لكن ليس كبطل حرب. وفي الولايات المتحدة ارغم وزير الخارجية الاميركي ألكسندر هيغ، على الاستقالة. أما في لبنان فقد قتل بشير الجميل قائد الكتائب الشاب بعد فترة وجيزة من انتخابه رئيساً لهذه الدولة. وعلى الجانب الآخر، غادر ياسر عرفات وقادة فلسطينيون آخرون لبنان، وحلت محلهم منظمات اسلامية شيعية متطرفة تهدد بزرع الخراب والدمار في منطقتنا وفي العالم كله.

لقد بقيت اسرائيل حائرة في كيفية ضمان حدودها الشمالية. إن من اطلق العملاق من القمقم يجاهد حتى الآن لارجاعه اليه. على اية حال، هناك امر واحد واضح: لقد افلح رئيس الحكومة السابق في تأجيل المناقشة في شأن حل النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني. الى متى ـ لا احد يعرف لكن ربما كان هذا، من وجهة نظر بيغن، المبرر الاكبر لحرب لبنان.

إن الكتاب الذي نقدمه هنا الى قرّاء العبرية يرسم تصورات هؤلاء الاشخاص الذين اثّروا على الاحداث في منطقتنا والتي كانت

ذروتها حرب لبنان. انه يختلس النظر الى ما وراء الكواليس من حيث صدرت البيانات السياسية الرسمية، ويلج الغرف المغلقة واللقاءات السرية حيث تقررت ونُسجت ووضعت موضع التنفيذ، تلك العلاقة المصيرية التي ربطت اسرائيل، بقيادة بيغن، بالمسيحيين في لبنان. ان الكتاب يلاحق منذ البداية ذلك المسار الداخلي الذي قطعه بيغن ابتداء بالاقناع العميق للذات بعدالة سياسته الامنية واطلاق ابواق الحرب المعلنة، وانتهاء بالصحوة ومواجهة الواقع البائس. إن الشخصيات الثانوية ـ مثل اريئيل شارون ورفائيل ايتان وبشير الجميل وحافظ الاسد وألكسندر هيغ وفيليب حبيب وغيرهم ـ تظهر ايضا بمظهر الابطال في هذا الكتاب. لقد نُقلت بدقة تلك الاقوال التي نطقوا بها والاعمال التي اقدموا عليها، وفي الامكنة والازمنة التي تقررت فيها الاحداث.

وقد قابلتُ خلال جمع مواد الكتاب، عدداً كبيراً من الاشخاص الذين كانوا منخرطين في تشكيل السياسة الاسرائيلية، تجاه لبنان. واستخدمتُ عدة مئات من الوثائق والمستندات اساساً للكتابة. ومن ضمن اطار الإعداد للكتاب، سافرت الى واشنطن حيث اجريت لقاءات طويلة مع مهندسي

السياسة الاميركية تجاه اسرائيل ولبنان وسورية.

كثيرون كانوا قد تكرموا وحذروا من اسلوب اطلاق الاحكام بعد وقوع الواقعة. لذلك فإنني لم أقدم على وضع هذا الكتاب من اجل اصدار احكام بل من اجل سرد الرواية بحسب افضل المصادر والمحادثات والتقارير التي في حيازتي. وبالنسبة الى العديد من المصادر التي ساعدت في وضع هذا الكتاب، فإنني لا استطيع ان اوجه اليها الشكر علانية. هذه المصادر ستبقى مجهولة في خدمة الفكرة السامية التي تقول بحق الجمهور في ان يعرف ـ هذا الحق الذي ينبغي احقاقه هنا والآن، وليس بعد عشرات السنين.

* * *

لقد حان وقت الاعراب عن الامتنان. المقام الاول محفوظ لرئيس تحرير «يديعوت احرونوت» دوف يودكوفسكي، الذي كان مطلعاً على سر الكتاب منذ البداية، والذي بفضله تدحرجت «كرة الثلج». وشكراً لمدير «كول يسرائيل» جدعون ليف ـ آريه، الذي اتاح لي إلقاء نظرة على تغطية الاحداث الجارية في المجال السياسي لانهاء مهمة الكتابة. وتحية امتنان لصديقي

يسرائيل سيغل، الذي راجع المخطوطة واعطى ملاحظات مفيدة. جيسي ستوي محرر الملحق التربوي والادبي والفني في «يديعوت احرونوت» حرر الكتاب وساعدني بملاحظاته موشيه بمبرغر في دار نشر يديعوت احرونوت/ عيدانيم، لم يدخر جهداً من اجل صدور الكتاب. وأتقدم بشكري ايضاً، الى عاملات ارشيف «كول يسرائيل» اللواتي قمن بتزويدي بقصاصات الصحف المطلوبة. لكن من البديهي ان الاخطاء، اذا كان هناك من اخطاء، هي مسؤولية الكاتب وسيجري تصحيحها في الطبعات القادمة.

شيمون شيفر
القدس شباط/فبراير
١٩٨٤

الفصل الأول : «لقد أوثقتُ أقدامهم»

في ذلك اليوم الواقع في ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٨٢، لم تتحدث وسائل الاعلام عن الزيارة لبيروت. فقد استمرت في الكنيست المكتمل النصاب، مناقشة موضوع القيمة الاجمالية للتعويضات التي ستعطى للمستوطنين في قطاع يميت شمال سيناء. فبموجب اتفاق السلام المعقود مع مصر كان من المفروض ان تقوم اسرائيل بالجلاء عن كل المناطق التي احتلتها في حرب الايام الستة، في نهاية شهر نيسان (ابريل). وانتهى النهار من دون احداث خارجة على المألوف. وشوهدت لجان المستوطنين في قطاع يميت مع وكلائها القانونيين في اروقة الكنيست، وهي تحاول اقناع اعضائه بتأييد مطالبها المالية.

جلس رئيس الحكومة مناحم بيغن الى منضدة الحكومة على كرسي هزّاز. كان لا يزال يشعر بالالم نتيجة الكسر الذي اصابه عندما انزلق في الحمام قبل فترة قصيرة. كان يبدو انه يستمع الى الخطباء لكن افكاره، على ما يبدو، كانت تشرد الى اماكن اخرى.

في تلك الساعة جمع وزير الدفاع ارييل (اريك) شارون، اوراقه على الطاولة في مكتبه الخاص في الكنيست. في الخارج كان قد هبط

الظلام وبدت انوار القدس سوراً وقائياً يحمي مجلس النواب ومن في داخله. طلب شارون الاتصال هاتفياً بزوجته ليلي، التي كانت في منزلهما بتل ابيب. لقد كانت كاتمة اسراره. وخلال الساعة الاربع والعشرين القادمة سيختفي شارون من البلد. كُلِّف مساعدوه ابلاغ جميع الذين يتّصلون بأنه خرج في جولة على وحدات الجيش الاسرائيلي.

وفي مطار عسكري بالقرب من تل ابيب تجمعت مجموعة صغيرة، كان بينها رئيس الاركان موشيه ليفي، ومساعد وزير الدفاع اللواء ابراهام تامير، والضابط المظلي، قائد سلاح المشاة العميد عاموس يارون، ورئيس شعبة العمليات في هيئة الاركان العماد اوري سانحي، ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية اللواء يهوشواع ساغي، وممثلون عن «الموساد»، بالاضافة الى حرسهم ومدني واحد هو الدكتور بولسلاف (بولاك) غولدمان الطبيب في مستشفى شيفا الذي اعتاد شارون دعوته الى مرافقته في سفراته السرية كصديق للعائلة.

ضجيج الطائرة المروحية التي اقلت شارون ومرافقه الرائد عوديد شامير الى المطار قاطع احاديث الاشخاص الذين كانوا في انتظاره. ودخل شارون الغرفة بخطى وئيدة وهو يرتدي بزة زرقاء اللون، وانضم الى الجماعة.

وقد آن الاوان الآن لتقديم تلخيص دقيق وموجز للتفاصيل الامنية. تعليمات تتعلق بكيفية التصرف في حالة الطوارىء، وتذكير بعمليات الهرب والنجاة من منطقة معادية، وكان قد بدأ يُسمع ضجيج الطائرة المروحية، من طرازها «يسعور». ومرت دقائق معدودة ابتلعت بعدها الطائرة المروحية الضخمة مسافري الرحلة الجوية ـ الليلية، ووجهتها

جونية، شمال لبنان. وتمنطق الجميع بأحزمة النجاة تحسباً لطارىء فوق البحر.

لم يستطع المسافرون اخفاء احاسيسهم. راحوا يتفرجون بفضول كبير عبر طاقات الطائرة المروحية على منطقة الساحل اللبناني. ها هي صور اولا، ومصب الليطاني، ومصب الزهراني، صيدا، نهر الاولي، منطقة الدامور، ثم بيروت بأضوائها الملوّنة.

وجلس اريك شارون منطوياً على نفسه، غارقاً في التأمل كانت هذه الرحلة الجوية بداية تجسيد خططه. تلك الخطط بدأت تتبلور في رأسه حتى قبل توليه مهمات وزارة الدفاع في حكومة مناحم بيغن الثانية. وقد رآها تبدأ في اخذ شكل مجسّم. لقد اعتاد وزير الاعلام ان يقول في وسائل الاعلام وفي تصريحاته العلنية، ان العقدة في لبنان قد نشأت بفعل ثلاثة عناصر اساسية: التجزئة الطائفية، والتدخل السوري، والعامل الفلسطيني. وعلى اسرائيل، في رأي شارون، ان تعالج هذه العناصر الثلاثة في وقت واحد. وقد كان يؤمن بإمكان حل مشكلة لبنان عبر «معالجة جذرية». وتلوح ابتسامة باهتة على وجهه عند ذكر اسلافه في الوزارة الذين حاولوا حل مشكلات الامن على الحدود الشمالية. لقد اقدموا على تنفيذ عمليات انتقامية وعمليات وقائية، كانت في نظر شارون اجوبة جزئية فحسب. وقد اعتبر عيزر وايزمن غير جاد. كانت «عملية الليطاني» محاولة لابعاد المنحى بين مسافة بضعة كيلومترات عن الحدود الشمالية. وماذا كانت النتائج؟ لقد اصبحوا اقوياء اكثر واقاموا لانفسهم دولة ـ الارهاب داخل لبنان. وماذا فعل تيسحاق رابين قبل ذلك؟ ان شارون يعتبر رئيس الحكومة السابق مسؤولا عن سيطرة السوريين على لبنان، وهو الذي اتاح لهم البقاء هناك. وكان شارون يعتقد بينه وبين نفسه ان السوريين سيجدون

انفسهم مضطرين الى الخروج مع المخربين. سأقنع بشير الجميل بالتعاون معنا، وستكون هذه الساعة ساعة المسيحيين العظيمة والبهية.

اتجهت الطائرة شرقاً. وبدأ الملاحون البحث عن نقطة الهبوط على مقربة من جونية. ممثلو «الموساد» العاملون مع الكتائب هم الذين نظموا اللقاء. لقد ابلغوا بشير الجميل فقط بأن «شخصيات اسرائيلية رسمية رفيعة المستوى» على وشك الوصول الى جونية. لقد ضغط شارون طوال بضعة اشهر من اجل لقاء بشير. وكلما تشبث برأيه كان يريد ان يُشرك بشير في افكاره، وبات على دراية بالمنطقة. ومنذ اليوم الاول الذي دخل فيه وزارة الدفاع انصرف شارون الى التخطيط للعملية. لم يكتف بقراءة الملفات التي اعدتها هيئة الاركان والتي تضمنت الامكانات المختلفة لعملية واسعة النطاق في لبنان. وبعد بضع جولات في قطاع حداد، ذلك الحزام ذو الكيلومترات العشرة المتاخم لحدود اسرائيل والذي يقع تحت سيطرة الرائد حداد، توصل شارون الى ان الساعة باتت ملائمة للاختبار وللاتفاق على مدى ربط المسيحيين في شمال لبنان بعملية عسكرية اسرائيلية تؤدي الى حل المشكلات في لبنان بعناصرها الثلاثة.

«عرفت بأنك ستجيء وحسناً فعلت. لقد كنا في انتظارك!» بهذه الكلمات استقبل بشير الجميل أريك شارون لدى نزوله من الطائرة المروحية. كانت منطقة الهبوط بالقرب من محطة توليد الطاقة في مدينة جونية، وفي نقطة أُعدت في الوقت الملائم وتعانق الجميل وشارون بحرارة، وبعد كلمات المجاملة وتقديم المستشارين من كلا الجانبين، توجهت المجموعة الى قافلة السيارات الفخمة التي كانت تنتظر بالقرب من المدرج المؤقت الذي كان مطوقاً من قبل جنود الكتائب المدججين بالسلاح. ان قلة في اسرائيل تعرف بأنه في تلك

اللحظات خلق الاساس لحرب لبنان، او لما أُطلق عليه في البداية اسم «عملية سلامة الجليل».

انطلقت القافلة على الطريق، في السيارة الاولى التي كان يقودها بشير الجميل بنفسه جلس اريك شارون برفقة حرسه المسلحين تسليحاً جيداً. وشقت السيارات طريقها الى المكان المحدد للقاء الاسرائيليين مع رجالات الكتائب في خليج صغير بالقرب من جونية. واقام بشير الجميل مأدبة عشاء تكريماً لضيوفه. وكانت تلك الاولى في سلسلة من المآدب التي تميزت بكميات هائلة من المآكل الفاخرة وخليط غير عادي من اطيب المأكولات الشرقية، والسلطة والحمص والطحينة والكباب، وانواع الحلوى كالبقلاوة والحلاوة، وفي الختام الاجبان الآتية مباشرة من باريس وامستردام.

كانت الاجواء احتفالية، ومثلها كانت الاقوال الصادرة عن الضيف والمضيف. استهل بشير الجميل الكلام بالاعراب، باسمه وباسم ابيه بيار الجميل والرئيس السابق كميل شمعون وقادة المسيحيين، عن عميق شكره لزيارة وزير الدفاع الاسرائيلي الجنرال شارون، الشخص الذي تحترمه الكتائب إن لماضيه كقائد عسكري، او لآرائه المعروفة عن ميزة التعاون بين الجيش الاسرائيلي والمسيحيين في لبنان.

«إننا في مرحلة مصيرية في لحظة الحقيقة»، قال الجميل، «ولذلك يجب ان نعمل سوياً لأننا اذا لم نفعل فإن السوريين سيقضون على الوجود المسيحي في لبنان الذي هو الاساس الوحيد المؤهل لضمان لبنان بلداً حراً. ان من شأن مضاعفات وضع كهذا ان تكون خطرة على اسرائيل ايضاً، بسبب الحرية التي ستُتاح لمنظمة التحرير الفلسطينية وللسوريين في العمل ضدها. إننا اليوم في مواجهة

اللحظات الاخيرة. وهناك اهتمام كبير بأن تثمر هذه الزيارة تفاهماً وتحديداً لأشكال التعاون كي يستطيع الشعبان رد الاخطار التي تحيق بهما وبسلامة لبنان واسرائيل».

وشكر وزير الدفاع الاسرائيلي مضيفه على ما ادلى به من اقوال، وعلى برنامج الزيارة الذي اعد له ولمرافقيه. وقد اراد شارون ان يعبر عن جزء من آرائه في المسائل المدرجة في جدول الاعمال. وكعادته، وبقناعة عميقة بالذات، وبلهفة شديدة، كشف اليسير من آرائه وخططه المستقبلية بينما كان يلتهم كميات من الحمص والطحينة وغيرهما مما لذ وطاب من مآكل. وعلى الرغم من ان الساعة كانت متأخرة والوجبة منهكة، فقد بدأ قسم من المشاركين في المأدبة، من لبنانيين واسرائيليين، يفهم اسس المفهوم الاستراتيجي اللبناني لدى اريك شارون.

قال: «إن اسرائيل تفضل حلاً سياسياً للمشكلات التي يعانيها المسيحيون في لبنان، بمشاركة الولايات المتحدة التي بقوتها فقط سيكون في الامكان ارغام سورية ومنظمة التحرير على إجلاء جيشيهما عن لبنان. لكن التطورات في المنطقة ونشاط المخربين المتواصل ضد اسرائيل وضد أهداف يهودية في انحاء العالم، على الرغم من اتفاق وقف اطلاق النار الذي تم التوصل اليه بوساطة فيليب حبيب قبل بضعة اشهر فقط، من شأنها ان تخلق في المرحلة المنظورة، وربما في صيف سنة ١٩٨٢، ايضاً، وضعاً يتحتم فيه على الجيش الاسرائيلي ان يعمل للقضاء على بنية منظمات المخربين في لبنان التحتية».

كان اريك شارون محترسا في هذا اللقاء الاول. وقد اختار مواصلة الكلام عن «المبادىء» حتى لا يثير آمالاً كبيرة جداً في وسط مستمعيه المسيحيين كما قال.

وأضاف شارون قائلا: «إذاً، وعندما يُقدم الجيش الاسرائيلي على التحرك ضد المخربين فإنه سيوجه اليهم ضربة تضمن زوال الوضع الذي ساد في اعقاب عملية الليطاني الى غير رجعة. إننا سنجتث بنية الارهاب التحتية في لبنان من جذورها».

وأضاف شارون موضحاً: «لا نية لدينا للعمل ضد السوريين على الاطلاق. لكن اذا ما تم توجيه ضربة نهائية الى المخربين واقدمتم انتم على استغلال هذه الفرصة التاريخية للسيطرة على بيروت كلها، ومهّدتم بذلك لانتخابات حرة، فإن النتيجة يمكن ان تكون خروج السوريين بالطرق السياسية، وهو ما تفضله واشنطن ايضاً. على اية حال، وما دام السوريون يرفضون الخروج من لبنان، فإنكم تستطيعون ان تقيموا لأنفسكم دولة حرة تتأسس على تواصل اقليمي في الجنوب، في المناطق التي سنحتلها، وفي المناطق التي تسيطرون عليها اليوم، وفي عاصمتكم التي ستتحرر على ايديكم».

وواصل شارون كلامه، فقال: «ما جئتكم للاتفاق على خطة عمل مشتركة. فهذا الامر سابق لأوانه. لكن يهمني بالتأكيد ان اغادر وانا عارف بالضبط ما الذي تريدونه وتستطيعونه اذا اضطر الجيش الاسرائيلي الى دخول لبنان والوصول الى مشارف بيروت، او عندما يضطر الى ذلك».

وكان شارون يشدد من حين الى آخر، خلال كلامه على ان «تحرير بيروت مشكلتكم انتم. اذا اقدمتم على استغلال الفرصة التاريخية، فإن حلمكم سيتحقق. واذا لم تفعلوا فسيكون ذلك مفجعاً للاجيال القادمة. إننا لن نحارب في بيروت. نحن ندرك تماماً مغزى القتال في عاصمة عربية بما فيها من بعثات اجنبية وسكان مدنيين وما

الى ذلك. إن هدف هذه الزيارة هو ان اجمل معكم امكانات استمرار العلاقات لتوثيق التعاون. وسنرغب في توثيق التعاون في المستقبل القريب ايضاً، حتى نستطيع ان نضع الخطط لمسارينا».

«إنها ليست سوى الزيارة الاولى. ونحن شركاء مصير وإخوة سلاح منذ الآن. وسيكون بيننا تنسيق ولقاءات كثيرة، حتى نكون مستعدين لأي وضع يتشكل في المستقبل».

واستعاد شارون وعود رئيس الحكومة مناحم بيغن، بأن اسرائيل لن تتيح للسوريين إبادة الطائفة المسيحية في لبنان. واضاف: «بيد ان هناك اعمالا يجب ان تقوموا انتم بتنفيذها لا ان تحشرونا نحن فيها. نحن نساعدكم بالأجهزة وفي تدريب القوات، وفي امور اخرى». لقد كان ممكناً ادراك التغيير الذي طرأ على السياسة الاسرائيلية من الكلام الذي قاله شارون. كذلك كان في امكان المنصتين في الجانب الاسرائيلي ادراك ان شيئا لم يتغير لدى المسيحيين، في ضوء ما جاء في رد بشير الجميل. إن أهدافهم لم تتطابق والأهداف الاسرائيلية. نهض بشير من مكانه وشكر شارون على صراحته مرة اخرى. قال: «اولاً: إننا نستمع من مستوى رفيع الى هذه الدرجة، الى كلام واضح يقوم على ثقة متبادلة». وأضاف القائد المسيحي الشاب فقال: «لكن من الاهمية بمكان ان يتذكر الجنرال شارون عدد المشكلات الاساسية التي يواجهها المسيحيون. اولاً، إننا في «الجبهة اللبنانية»، كنا دائما مدركين وكأولوية اولى، لضرورة تحرير منطقة التجمع المسيحي شمال جونية، وتعداد سكانها نحو نصف المليون نسمة، من سيطرة السوريين واتباعهم مثل فرنجية. فتحرير هذه المنطقة سيؤسس لبنان المسيحي بنحو مليون نسمة من السكان المسيحيين وبتواصل اقليمي عبر السيطرة على ذلك الجزء الحيوي من جبل لبنان حيث، كما تعرفون، يستطيع

كل من يسيطر عليه ان يُملي عملياً ما سيحدث في لبنان كله».

وأثار الجميل تخوفاً آخر عندما لاحظ ان السوريين قد لا يردون في منطقة بيروت اذا ما هاجم رجاله بيروت كما اقترح شارون. واشار الى احتمال ان يبادروا الى هجوم من الشمال بهدف تصفية الجيب المسيحي. «وكما تعلمون، سيدي الوزير، نحن لا نملك القدرة على التصدي للسوريين، وقد نجد انفسنا مقيدين بقوتنا الاساسية في عملية تطهير بيروت، وتكونون انتم منشغلين بمحاربة المخربين، فتصبح منطقة جونية لقمة سائغة للاحتلال السوري». وختم بشير كلامه فقال: «من الاهمية بمكان ان تأخذ في الحسبان ان اية مشاركة من جانبنا في السيطرة على بيروت ستضطركم الى الدفاع معنا عن السلامة الاقليمية للجيب المسيحي في شمال لبنان».

شارفت المأدبة على نهايتها. وكانت تلك الساعات هي الاولى في معيّة قادة «الجبهة اللبنانية»: فادي فرام رئيس اركان جيش الكتائب، زاهي البستاني المسؤول عن شؤون الاستخبارات في قيادة الكتائب. جان نادر المستشار السياسي الاكثر موالاة لاسرائيل في قيادة الكتائب، رئيس فرع الحزب في الاشرفية ببيروت ومركز الشؤون المالية. وقد كان اكثر المقربين من بشير، وقتل مع قائده في عملية تفجير مقر الكتائب بعد وقت قصير من انتخاب بشير رئيساً للبنان. وكان هناك ايضاً: جوزيف ابو خليل وهو من قدماء المجموعة، وكان قد طلب في الماضي مساعدة اسرائيل. ايلي حبيقة قائد الوحدة الخاصة في قوات الكتائب، والذي رئس فيما بعد القوة التي نفذت المجزرة في مخيمي اللاجئين - في صبرا وشاتيلا.

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل. البرنامج الذي اعد

للضيوف من اسرائيل كان طافحاً واستعجل بشير الجميل ضيوفه التوجه الى السيارات. وانطلق الموكب على الطريق من جونية في اتجاه بيروت. اضطر الاسرائيليون الى الاستعانة بمخيلاتهم المرتبكة من اجل تصوّر انفسهم يعبرون مناطق تعيش صراعاً دامياً منذ عدة اعوام. الطريق الرئيسي المؤدي الى بيروت كان يزدحم بالسيارات. الاضواء في اماكن اللهو والنوادي الليلية وصالات البلياردو كانت تسطع في كل اتجاه. الناس كانوا يتدفقون جماعات جماعات من ملهى الى آخر. قال احد الاسرائيليين لرفيقه: «وانا كنت اظن ان المسيحيين يتقوقعون ليلاً وراء اكياس الرمل ويعززون تحصيناتهم». إن العلامة الوحيدة التي كانت تشعرهم بوجودهم في دولة ليس كل ما فيها «طبيعي»، كانت حواجز الكتائب على الطريق. وعبرت القافلة الجسر الذي يفصل منطقة جونية عن بيروت. وسلكت يمين الطريق الرئيسي، واوقفت عند مركز قيادة الكتائب لدقائق معدودة. وبعد توضيح مقتضب من بشير بنفسه واصل الضيوف رحلتهم على الطريق الرئيسي الذي يتاخم منطقة مرفأ بيروت، الى خط الحدود المديني الذي يقسم عاصمة لبنان الى شطرين، شرقي وغربي. وشاهد الاسرائيليون اول مرة الخط الذي يفصل بين شطري المدينة. كانت علامات الدمار بادية للعيان بوضوح. كانت عائلات لا تزال تقطن بعض البيوت المدمرة. وخط الحدود، بحد ذاته، كان قائماً على صهاريج كبيرة وضعت في عرض الطرق وقطعتها، وعلى مواقع حراسة جنود الكتائب التي نُصب خلف اكياس الرمل في البيوت المدمرة. كانت الصورة تشبه ما يتذكره بعض الاسرائيليين الذين خدموا في الجيش الاسرائيلي في الخمسينات بالقدس التي قُسِّمت هي بدورها الى شطرين. لقد اعادت الحدود بين شطري بيروت الى اذهانهم، وبصورة جلية، تلك المواقع في ابو طور ومصرارة وميناء شعاريم وحي باغي (بو عالي اغودات يسرائيل).

كان بشير الجميل روح الجولة. تنقل مع ضيوفه بين المواقع وهو يتحدث عن المشكلات وطرق الدفاع عن المدينة. وإن ما ناله بشير من احترام وإعجاب عند مواقع حراسة الكتائب لم يمر من دون ان يترك انطباعا. وحتى الضيف القادم من اسرائيل كان ينال ذلك ايضاً، عندما يتعرفون عليه هناك. ولم يخف اريك شارون استمتاعه بذلك. وفي ظروف لبنان الخاصة حيث يستحيل تقريباً المحافظة على اسرار الدولة، وحيث تتسرب المعلومات من طائفة الى اخرى، ومن ميليشيا الى اخرى، كان واضحاً ان قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، في بيروت الغربية وفي دمشق، ستبدأ في اليوم التالي عملية تقويم لمضاعفات زيارة شارون لبيروت. وفي ساعات الفجر الاولى عاد الاسرائيليون الى جونية وقد انهكتهم الجولة واستنزفت قواهم.

في الزيارة الثانية لبيروت، تجول الاسرائيليون ومضيفوهم لساعات قليلة. وشملت الجولة نقاط المراقبة التي كان يمكن عبر الإطلال منها، تكوين صورة واضحة لطابع المدينة، ولخط الحدود الذي يقسمها الى شطرين وللنقاط الرئيسية التي تمنح موقع سيطرة لمن يستولي عليها، ولشبكة الطرق الرئيسية والطرق الفرعية.

كانت نقطة المراقبة الاولى التي اختيرت على سطح مبنى كبير في حي الاشرفية، في جزء يسيطر عليه المسيحيون. وراقب شارون المدينة بصمت بواسطة منظار نُصب خصوصاً لتكريم الضيوف من اسرائيل. كان مركّزاً تفكيره، يواصل عملية تخطيط تفاصيل المسارات العسكرية في رأسه للمستقبل. لقد تحولت بيروت عند شارون الى مجرد هدف آخر ينبغي التخطيط له. لكن هذه المرة لم يقف الى جانبه ضباط اركان اسرائيليون فحسب، بل ايضا لبنانيون مسيحيون.

وأمعن شارون النظر في بيروت المقسمة. السوريون والمنظمات اليسارية والمخربون يسيطرون على شطر منها. والمسيحيون يسيطرون على الشطر الآخر. وعلى أطرافها تحصّنت الميليشيات الاسلامية. أما جيش لبنان فقد كان يسيطر على منطقة صغيرة جداً من المدينة فحسب ـ منطقة قصر الرئاسة في بعبدا، رمز سيادة الدولة. وقد فكر شارون في ضرورة الاقتحام لتغيير الواقع واقامة «نظام جديد» في الدولة، بينما كان يمعن النظر بواسطة المنظار المنصوب على سطح المبنى المتعدد الطبقات.

لم يتكلم وزير الدفاع كثيراً خلال الجولة في بيروت. لكنه فعل عند نقطة المراقبة التي تشرف على مطار بيروت الدولي، الذي كان في تلك الساعة غارقا في الضباب، بينما كان الاوتوستراد الذي يمتد منه في اتجاه خلدة ثم الدامور فالجنوب اللبناني، مرئيا. عندها فقط التفت شارون الى بشير الجميل وقال له ما فحواه تقريبا التالي:

«لا اريد ان اخوض في تفاصيل خططنا لأننا لم ننته من وضعها بعد. ومن السابق لأوانه التحدث فيها. لكن هناك امراً واحداً لا يكتنفه الغموض، وهو الذي سيشكل اساس عمل الجيش الاسرائيلي في المستقبل في لبنان: عندما يحين الوقت فإننا لن نتوقف لا عند الليطاني ولا عند الزهراني، بل سنواصل التقدم شمالاً حتى نصل الى محور الساحل بالقرب من بيروت. عندئذ، وكما سبق ان قلت لكم، ستتاح فرصتكم التاريخية للسيطرة على المدينة. لقد علمتني هذه الجولة ان المنطقة الاكثر اهمية للسيطرة على المدينة، هي منطقة قصر الرئاسة في بعبدا ووزارة الدفاع المتصلة بها. اذ ان تلك المنطقة، كما شاهدنا بأم اعيننا من هناك، تسيطر على عاليه وطريق بيروت ـ دمشق، وإنني لا ارى اية مشكلة في فرض سيطرتكم عليها وانتزاع محور بيروت ـ

دمشق في مرحلة متقدمة من القتال. وهكذا سينشأ وضع تكون فيه بيروت مطوقة، فتباشرون عمليات تطهير المدينة وتنظيفها من المخربين ومن يلفّ لفّهم».

وهزّ بشير رأسه وأمعن النظر في الجنرال شارون بإعجاب صريح. لكنه لاحَظ قائلاً: «أريك، اريدك ان تتذكر ان عملية من هذا النوع ستتطلب قوات بحجم يستوجب اهمال قطاعات اخرى. ولا اعتقد انه سيكون في قدرتنا ان نفعل ذلك من دون مساعدة الجيش الاسرائيلي». وردّ شارون قائلا: «لن ندخل بيروت عوضاً عنكم. لن نستطيع ان نشرح للشعب الاسرائيلي وللعالم سبب دخولنا بيروت. إن بيروت هي مشكلتكم. سنساعدكم في الاستيلاء على الخطوط في القطاعات الاخرى، ليس بواسطة قوات المشاة في الجيش الاسرائيلي بل بواسطة سلاح الجو والدعم المدفعي الذي سيتاح لكم. واذا كانت قواتنا على مسافة ملائمة فإننا سنخصكم بكل وسائط الاتصال التي ستتيح تشغيل وسائل الدعم التي في حيازتنا. إننا نعمل بموجب سياستنا إلا في الحالات التي ينشأ فيها خطر على وجودكم وعلى الجيش الذي تسيطرون عليه نتيجة هجوم لن يكون في استطاعتكم صدّه».

وما ان انهى شارون كلامه حتى كان قد اصبح واضحاً للجميع ان اللعبة الكبيرة قد بدأت. وباحتراس، ومثل مقامرين من ذوي التجربة، «اشتمّ» شارون والجميل بعضهما البعض.

كانت الطريق الى جبل صنين، المحطة التالية للضيوف من اسرائيل، شاهقة ومتعرجة. وشقت القافلة طريقها بين الصخور العالية المكسوة بالثلوج على جانبي الطريق، والوديان العميقة. وراح السر الكبير عن زيارة الضيف من اسرائيل يكبر ككرة الثلج. وكان السكان

في كل قرية يلوحون بأيديهم ويشيرون الى الشخص الذي يرتدي سترة واسعة ويجلس الى جوار بشير في السيارة الفخمة.

إن منطقة صنين موقع من مواقع التزلج والاستجمام الجميلة في لبنان: بيوت قرميدية بسطوح مائلة لينزلق الثلج بسهولة الى الارض؛ أديرة وكنائس وأحراج من شجر الصنوبر والأرز، ومنظر طبيعي رائع. خُرق الصمت مرتين فقط: في المرة الاولى، عندما عبرنا حاجزاً للجيش اللبناني. وفي المرة الثانية عند حاجز للكتائب. كانت تلك منطقة الكتائب: كان خط الحواجز الفاصلة في مناطق سيطرتهم بيد الجيش اللبناني رمز السيادة، بينما كان خط الحواجز الداخلي في ايديهم. لكن الجنود الموالين للكتائب كانوا هم الذين يتمركزون على الحواجز الفاصلة.

وقد خُصصت الرحلة الى جبل صنين للاطلاع على القيمة الاستراتيجية الكبيرة للمنطقة، وخصوصاً في قطاع ضهر البيدر. فالجبل يسيطر على الشريان الذي يربط بيروت بدمشق. وقد استغل السوريون هذا الواقع واحتفظوا في هذه المنطقة بقوة كبيرة كان هدفها تصفية الجيب المسيحي وضمان الممر الرئيسي بين الدولتين في ايديهم.

ومما لا شك فيه ان شارون عندما زار جبل صنين كانت قد بدأت تتبلور في ذهنه فكرة ان عملية اسرائيلية تستهدف تدمير بنية منظمة التحرير التحتية في لبنان، يجب ان ترتكز ايضاً على جهد عسكري يكون هدفه إبعاد منطقة بيروت وطريق الساحل عن التدخل السوري. وقد بدا لشارون ان اتخاذ خطوات كهذه سيساعد المسيحيين ويشجعهم على السيطرة على بيروت. وبينما كان يقلب الامور من وجوهها جميعا، كان بشير قد قرأ افكاره كلها. فقد كانت تشغله فكرة

كيفية جر الجيش الاسرائيلي شرقاً. أراد الجميل ان يحرر الاسرائيليون له شتورا وزحلة، ويساعدوه في تعزيز مواقع المسيحيين في جبال الشوف. إن قادة الكتائب لم يخفوا رغباتهم في الماضي، خلال سنوات التعاون مع اسرائيل. لقد ارادوا ان تساعدهم اسرائيل في تحرير بيروت وجبال الشوف، وفي تطهير طريق بيروت ـ دمشق حتى الحدود مع سورية، ومنطقة البقاع ومراكز تجمع المسيحيين في زحلة وشتورا ايضا. فقد كانوا يراهنون على انهم سيتمكنون بذلك من تحقيق وحدتهم وضمان سيطرة مسيحية تبسط نفسها على مساحة كبيرة من لبنان.

لقد آمن بشير حتى آخر يوم في حياته بأن مشكلة لبنان الاساسية هي الوجود السوري. وقد كان واثقاً بأنه اذا خرج السوريون وسلحت اسرائيل قواته جيدا، فلن يكون من الصعب معالجة «المشكلة الفلسطينية بجوانبها كافة».

ووصلت القافلة في هذه الاثناء الى قمة جبل صنين. استعرض شارون والجميل المنطقة بينما المرافقون يلعبون بكرات الثلج ويتأملون المناظر الطبيعية. واشار بشير الى طريق ضهر البيدر قائلا لشارون: «هذه هي المنطقة الحيوية التي تسيطر على طريق بيروت ـ دمشق. إذا وصلتم الى هذه المنطقة فستضطرون الى توسيع اطر عمليتكم والسيطرة على زحلة وشتورا».

اللقاء التالي عقد في بيت بشير الجميل في الاشرفية ببيروت الشرقية. كان البيت محاطاً بالحرس وبأكياس الرمل. وكانت صولانج زوجة بشير الجميلة والعاقلة، تستقبل القادمين وهي تحمل ابنها على ذراعيها.

في غرفة الاستقبال جلس اثنان طاعنان في السن من قادة الموارنة: بيار الجميل وكميل شمعون، وهما شخصيتان ترمزان اكثر من اي شيء آخر الى ماضي لبنان. بعد المصافحة وتبادل المجاملات، استقر الجميع في كراسيهم الوثيرة. وقبل بدء الحديث في صلب الموضوع استطاع الضيوف الاسرائيليون ـ شارون وموشيه ليفي وممثل «الموساد» ـ القاء نظرة حولهم. في المكتبة التي انتصبت بعيداً، برز كتاب موشيه دايان «حجارة الطريق» بترجمته الانكليزية. وعلى الحائط عُلقت صور للمضيفين في لقاءات مع شخصيات بارزة: رئيس الولايات المتحدة السابق جيمي كارتر، وحسين ملك الاردن.

استهل بيار الجميل الحديث بشكر اسرائيل على ما فعلته من اجل المسيحيين في لبنان. قال: «لن ننسى هذا ابداً. لقد كان نضالكم في ارض اسرائيل في عهد الانتداب البريطاني رمزاً لنا ومثالاً لما تستطيع اقلية ان تنجزه. هذا هو الدرس الذي تعلمناه منكم». بعدها وللمرة الالف، وصف بيار الجميل وضع بلده معتبراً ان السبب الرئيسي للوضع البائس يتعلق بالحرب الاهلية، وإن اليسار الاسلامي المتطرف قد وصل الى ما وصل اليه بفضل المساعدة التي تلقاها من الفلسطينيين. أما السوريون الذين دخلوا لبنان بهدف معلن يقضي بإنقاذ المسيحيين ومنع إبادتهم، فقد تحولوا، خلال فترة قصيرة، الى حكام لهذه الدولة، لأن هدفهم منذ وقت طويل كان السيطرة على لبنان وتصفية المقاومة المسيحية التي تشكل عائقاً رئيسياً امام تحقيق هدفهم.

ووصف الجميل معاناة المسيحيين وتضحياتهم منذ سنة ١٩٧٥: مائة الف قتيل. وختم كلامه فقال: «إن الوضع خطر جداً. إن مستقبلنا ومصيرنا برمته متعلقان بالتعاون مع اسرائيل». وأضاف الجميل الاب

فقال انه قد سمع من ابنه بشير تلك الافكار التي طرحها الجنرال شارون وإنه يباركها. وقال: «إن الخطر الاكبر علينا هو السوريون». واعرب بيار الجميل عن ثقته بأن ينمّي التعاون مع اسرائيل شبكة علاقات صداقة عميقة بين اسرائيل ولبنان.

لم يتكلم بيار الجميل عن السلام مع اسرائيل. قال ان لبنان، وعلى الرغم من طابعه الخاص، مرتبط بالعالم العربي وينبغي له ان يكون كذلك. لكن من الممكن ان نضمن ان تصبح بلاد الأرز رأس جسر بين اسرائيل والدول العربية.

ومن ثم جاء دور الرئيس اللبناني السابق كميل شمعون، الذي كان قد تجاوز الثمانين من عمره. تكلم بتأن وشدد على انه كان صاحب نهج ايجابي إزاء اسرائيل عندما كان رئيساً للبنان في اواسط الخمسينات. واثنى شمعون على الروابط التي توثقت بين لبنان واسرائيل منذ بداية الحرب الاهلية سنة ١٩٧٥. كما اثنى الزعيمان الطاعنان في السن على مناحم بيغن. فقد كان بالنسبة اليهما قائداً صلباً ذا جذور عميقة، لا يتراجع عن كلمته ويفي بتعهداته.

وردّ اريك شارون، فنقل تحيات مناحم بيغن الحارة، ثم كرر بصورة عامة ما سبق ان ابلغه لبشير الجميل.

إن الكلمات التي نقشت في آذان الاسرائيليين من اقوال شارون في ذلك اللقاء: «لحظة الحقيقة». فقد اكثر شارون من الكلام عن هذه اللحظة التي تقترب اكثر فأكثر، والتي ستعطي المسيحيين الحافز من اجل تغيير وضعهم. فبعد إحكام وسيطرة المسيحيين على بيروت وتأليف حكومة برئاستهم، ستسود مرحلة انتقالية الى حين يصبح من الممكن إجراء انتخابات حرة بمعزل عن نفوذ السوريين. ويشغل بشير الجميل مركزاً اساسياً في هذه المرحلة.

بيار الجميل وكميل شمعون وبشير الجميل بدوا مضطربين في نهاية اللقاء. فقد زرع فيهم شارون الامل، وها هم يواجهون تغييرات اساسية في وضعهم، ربما كانت الاكبر منذ الحرب العالمية الثانية، تغييرات يمكن ان تحصل في صيف سنة ١٩٨٢، على ما يبدو. وقد كان واضحاً للمشتركين في اللقاء ان المسيحيين الموارنة واسرائيل على وشك توثيق التعاون فيما بينهما في المستقبل القريب.

بدا كل شيء جيداً، جيداً جداً. فقد تبلور لدى الاسرائيليين ذلك بأنه سيكون هناك من يستندون اليه، وبأن المسيحيين - في اغلبيتهم على الاقل - سيساهمون في نصيبهم من الصفقة مع اسرائيل.

وعاد شارون الى جونية بعد المأدبة. الجماعة قد حزمت امتعتها. هبط الظلام وتأخرت الطائرة المروحية في الوصول. اصطف الاسرائيليون جماعات - جماعات مع زعماء المسيحيين الموارنة بالقرب من المدرج المُرتجل. وجلس بشير الجميل في سيارته مع مستشاره جوزيف ابو خليل. ووقف شارون وحده جانباً غارقا في افكاره. هذا، بينما كان الموجودون يأكلون الحلاوة التي احبها الضيوف القادمون من اسرائيل.

وفجأة خرجت الطائرة المروحية من الظلمة تثير عاصفة كثيفة من الغبار في كل الاتجاهات. وودع بشير وشارون بعضهما بعضا بحرارة وتبادلا القبلات. وفي طريق العودة لم يعد في وسع اعضاء الوفد الاسرائيلي المرهقين سوى الاستسلام للنوم.

وفي تلك الليلة التي عادوا فيها الى اسرائيل، اتصل شارون بأحد اصدقائه وقال له ما فحواه: «أحكمت خطتي مع المسيحيين. نستطيع مباشرة العمل منذ الآن. فقد اوثقت اقدامهم».

الفصل الثاني : أحقاً كارثة؟

لقد نُسجت العلاقة في الاشهر الاولى من سنة ١٩٧٥، بعد نشوب الحرب الاهلية في لبنان. جاء زعماء المسيحيين الى اسرائيل طلباً للمساعدة. فقد رفع تجار السلاح اسعارهم. وكانت الميليشيات المسيحية تبحث بيأس عن معدات القتال. ووجد ممثلو اسرائيل صعوبة في التصدي للمشكلة. والمعلومات في محفوظات شعبة الاستخبارات في الجيش الاسرائيلي وفي «الموساد» كانت فقيرة جداً. وجاء ممثلو عائلات ورؤساء كنائس وجمعيات مسيحية من شمال لبنان وجنوبه. وبكل بساطة قال هؤلاء: «إننا نقاتل عدواً مشتركاً - الفلسطينيين. ساعدونا في الحصول على السلاح وندفع لكم ثمنه».

وهكذا بدأت تصل صناديق الاسلحة والذخيرة. ووفى المسيحيون بوعدهم ودفعوا حتى آخر مليم اسرائيلي. مرة واحدة فقط اعيدت كمبيالة بمبلغ مائة واربعين الف دولار حررته جهات مسيحية لأمر وزير الدفاع آنذاك شمعون بيريس.

وكان هناك ما هو سحري في ثقة المسيحيين من لبنان بقدرة اسرائيل على قهر اعدائها. لقد ارادوا التقرّب اكثر، بينما بدأ الاسرائيليون

الذين اقاموا هذه الاتصالات، بـ«عملية اكتشافهم» تدريجياً. كانت الفكرة الاولى تقول بمساعدة المسيحيين في الحرب المتواصلة ضد منظمات المخربين. وقد اعتاد مسؤولو هيئة الاركان و«الموساد»، على القول: ما داموا «يضربون» الفلسطينيين فهذا مفيد لنا.

وفي بداية سنة ١٩٧٦، توجه اول وفد اسرائيلي الى لبنان. كانت المعارك بين المسيحيين والفلسطينيين على اشدها. وقد هيأ المسيحيون انفسهم للانتقام من الفلسطينيين الذين اقدموا على ذبح سكان الدامور، البلدة التي تقع جنوبي بيروت.

نزل على الشاطىء بالقرب من جونية اربعة اسرائيليين على رأسهم العقيد بنيامين (فؤاد) بن أليعيزر، الذي كان يشغل آنذاك منصب قائد المنطقة المتاخمة لحدود لبنان. وقد استقل بن اليعيزر ورفاقه زورق صواريخ تابع لسلاح البحرية، ابحر تحت جنح الظلام في مهمة اجراء الاتصال بين الاسرائيليين والمسيحيين. استخدم الاربعة سلماً من الحبال للنزول من الزورق وكان عليهم القفز الى قارب صيد صغير كان ينتظرهم في الموعد المحددة. وبالنسبة الى فؤاد كانت هناك مشكلة صغيرة: انه لا يعرف السباحة. وهو لا ينسى حتى هذا اليوم، تلك اللحظات وهو يتدلى من الزورق الحربي متأرجحاً بين الماء والسماء.

كان ممثلو الزعيم المسيحي كميل شمعون، وعلى رأسهم ابنه داني، ينتظرون على الشاطىء وهم في حالة من التوتر. استقل الاسرائيليون وهم يرتجفون مبللين، السيارات المخصصة للضيوف للانتقال الى جونية. خلال الرحلة سأل بن أليعيزر داني شمعون الذي كان يجلس الى جانبه: «لماذا استدعيتمونا؟» وكان الجواب مفاجئاً: «فعلنا ذلك بنصيحة من جهات عربية. قالوا لنا اننا اذا كنا نريد ان

نبقى على قيد الحياة في المنطقة فعلينا ان نلجأ الى اسرائيل. واليهود فقط يستطيعون ضمان بقائكم».

وتحدث داني شمعون باستفاضة عن حاجة المسيحيين الى الصمود امام المنظمات الفلسطينية التي تدرب أفرادها تدريباً جيداً في اوروبا الشرقية، والتي تلقت مساعدات من الاسلحة من الدول الشيوعية. وآخرون تلقوا تدريباتهم في الاردن، انضموا الى منظمة «فتح» في لبنان. وقد رد عليه الاسرائيليون بطلب ثمن سياسي: تحقيق تقارب بين اسرائيل ومنظمات المسيحيين، وإجراء حوار بشأن مشكلات المنطقة. وسأل فؤاد عما اذا كان كميل شمعون يوافق على لقاء رئيس الحكومة تيسحاق رابين. وكان الرد ايجابيا.

ولم يمض وقت طويل حتى تم اللقاء بين الاثنين وقد احيط بغطاء من السرية. ففي ليلة من ليالي شهر آذار (مارس) ١٩٧٦، وصل يتسحاق رابين على متن سفينة تابعة لسلاح البحرية، الى الشاطىء المقابل لجونية. وسيتحدث كميل شمعون طوال ايام عن كيفية ان اللقاء مع رابين كان بداية صداقة لسنين عديدة.

دار حديث سياسي مهم بين الزعيمين في مؤخرة السفينة، ومن دون مراسيم احتفالية. وطلب كميل شمعون مرة اخرى مساعدة عسكرية وغذائية ووقود. ووعده يتسحاق رابين خيراً لكنه اضاف: «بعد المواد الغذائية والوقود سيتم طلب المال. بالنسبة الى السلاح سنجد السبيل الى تزويدكم به مجاناً». واطلق رابين في ذلك اللقاء مصطلحا تحوّل الى حجر زاوية في السياسة الاسرائيلية إزاء المسيحيين: «سنساعدكم كي تساعدوا انفسكم». وكان هذا صحيحاً حتى سنة ١٩٧٨.

وتطلب الوضع ضرورة عقد لقاء آخر بعد مدة قصيرة، وهذه المرة مع زعيم آخر من الزعماء المسيحيين هو بيار الجميل يرافقه ولداه بشير وأمين. وعقد هذا اللقاء على متن زورق ـ الصواريخ ايضاً، وذلك قبالة ساحل جونية. صعد بشير الى السفينة شاحب الوجه مثل لون الجص، بعد ان تقيأ نتيجة إهتزاز الزورق المطاطي الذي اقله مع والده واخيه. كان الحديث مضطرباً وقد تكلم بيار الجميل كمن يشعر بالذنب. قال: «اشعر بالخجل لكوني اجد نفسي مضطراً الى اللجوء الى رئيس حكومة اسرائيل طلباً للمساعدة. فقد تكلمت بحدّة ضد دولة اسرائيل لسنوات طويلة. لقد رأيت في قيامها بداية لكارثة لبنان. فقد اضطررنا في اعقاب تأسيس اسرائيل، الى استيعاب عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين الذين يهددوننا اليوم ويحرضون المسلمين في بلدنا. لقد رأيت فيكم، انتم الاسرائيليون، اصل البلاء. فقد تغير لبنان بسببكم. اختلّت التركيبة الديموغرافية وحل الخراب في الدولة». واضاف بيار الجميل قائلا: «أما الآن، فقد تخلى عنا العالم المسيحي. ولم يعد احد يهتم بنا. ولأنني اريد ان اواصل العيش مرفوع الرأس في لبنان، فلا مناص من ان اتوجه اليكم طلباً للمساعدة لأنكم وحدكم على استعداد لمساعدتنا وتستطيعون مساعدتنا».

استمع رابين الى هذا الكلام بانتباه شديد بينما جلس الى جانبه بعض مستشاريه وافراد من «الموساد» يصيغون السمع بدورهم. ورد رئيس الحكومة قائلا: «إن دافعناُ الى الاسراع الى نجدتكم هو شعورنا كيهود قبل كل شيء. إننا نشعر بواجب ادبي يقضي بمساعدة اقلية دينية مضطهدة، لكونها كذلك. لكن لا أُخفي عليك وجود حافز سياسي ايضاً في قرارنا بمساعدتكم. ان اعداءكم هم أعداؤ نا. سنقدم لكم مساعدة عسكرية، لكننا لن نقوم بالمهمة عنكم».

وتم الاتفاق في لقاء آخر مع كميل شمعون على إعطاء المساعدة الاسرائيلية للمسيحيين زخماً. وبدأت تصل طلائع المسيحيين من لبنان الى قواعد الجيش الاسرائيلي في الشمال لتلقي تدريبات اساسية في اصول استخدام السلاح. كان من الصعب تمييزهم من اول نظرة وهم يرتدون بزات العمل الخاصة بالجيش الاسرائيلي. فقد بدوا انهم مجموعة من الاحتياط جاءت من اجل التدريبات السنوية. لكن تسريحات شعورهم المرتبة طوال ساعات النهار كانت تميّزهم من جنود الجيش الاسرائيلي.

وكلما تتابعت اللقاءات انفتحت القلوب. كان بشير الجميل شغوفاً بسرد وقائع معركته الاولى وهو في الثامنة والعشرين من العمر، للضباط الاسرائيليين الذين انضموا الى قيادته كمستشارين. كانت المعركة في عين الرمانة في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٥.

«نهضت في ذلك اليوم ومثل كل يوم احد، توجهت الى الملعب البلدي في بيروت لأتدرب من الساعة العاشرة صباحاً حتى الواحدة بعد الظهر. عدت الى البيت واستحممت. ولسبب ما كنت اشعر بتوتر وحزن في البيت. بدا حرس والدي بيارمتوترين، كان من المفروض ان نشارك بعد ظهر ذلك اليوم، في احتفال بعمادة طفل ابن شهرين يدعى بشير ابو عاصي، وذلك في كنيسة جديدة. ارتدينا افضل ثيابنا واتجهنا الى الكنيسة حيث كان الجمع يستعد للاحتفال. وبينما كنا نتجاذب اطراف الحديث، حاول باص يقل مسلحين فلسطينيين، المرور عبر طريق الكنيسة. حاول حاجز الشرطة إيقافه حتى لا يستفز ركابه رجالنا عند مدخل الكنيسة. فعلاقاتنا بالفلسطينيين لم تكن حسنة آنذاك. واخترق الباص الحواجز وأمام الكنيسة طلب رجالنا من سائق الباص الرجوع الى الوراء، فانهمر علينا رشق من الرصاص. يوسف ابو

عاصي، والد الطفل الذي كانوا على وشك تعميده، وانطوان الحسيني قتلا على الفور. ردينا على النار بالمثل، وقتلنا الفلسطينيين الذين كانوا داخل الباص».

هكذا بدأت الامور. بشير قرر ان يباشر العمل. وقد كان حتى ذلك الحين يمارس مهنة المحاماة في مكتب في حي الاشرفية ببيروت، ويخصص يوماً في الاسبوع لمعالجة شؤون الصفقات التي يعقدها اعضاء حزب الكتائب. وقال بشير لضباط الجيش الاسرائيلي: «عشية ذلك اليوم سمعت والدي يتحدث بالهاتف مع رئيس الجمهورية وقادة الجيش، يطلب منهم التدخل في عين الرمانة التي كانتْ تتعرض في تلك الاثناء لهجوم فلسطينيين جاؤوا للانتقام لضحايا الباص». وكان رد قادة الجيش بحسب كلام بشير، هو التالي: «لا نجرؤ على ارسال الجيش الى هناك. سينهار الجنود اذا فعلنا. تذكروا ان الفلسطينيين اساؤوا الينا سنة ١٩٧٥. وقد أقاموا في تل الزعتر وجسر الباشا والكرنتينا. وواصل بشير روايته، فقال: «ادركت منذ ذلك الوقت ان الجيش غير مؤهل لضمان امننا. جمعت اعضاء من الحزب كانوا في مقر القيادة يومذاك، وقلت لهم: اتركوا كل شيء، وسنبدأ التدريب.. وهكذا شكلت ميليشياتنا».

وقعت معارك اخرى في الكرنتينا وتل الزعتر بعد المعركة الاولى في عين الرمانة. وقام بنيامين بن اليعيزر خلال احدى زياراته للبنان، بتفقد تل الزعتر الذي كان يطوقه الكتائب. ووضع لدى عودته تقريراً عن حاجات المسيحيين من معدات القتال. لقد ذُبح الف فلسطيني في مخيم تل الزعتر بعد سقوطه، وكانت اسرائيل خارج اللعبة. فقد كانت سياستها تقتضي بـ«مساعدة المسيحيين كي يساعدوا انفسهم». وقال بشير في العلن انه كان سيمنع وقوع المجزرة لو انه وصل في الوقت

الملائم. واضاف: «عندما وصلت كان كل شيء قد انتهى».

كان الاسرائيليون الذين إعترفوا ببشير مفتونين بشخصيته. وكانت الروايات التي تتناقلها الالسن ذات مادة جيدة للروايات البوليسية والجاسوسية: لقاءات سرية، اخطار، لهو ونساء جميلات.

وفي يوم من ايام صيف سنة ١٩٧٦، وصل الى جونية قادماً من اسرائيل ضابط الارتباط مع المسيحيين المعين من قبل «الموساد». اقترح عليه بشير، يوم وصوله، الانتقال ليلا الى بيروت تمّ توقيف السيارة عند احد الحواجز التي اقامها الجنود السوريون على الطريق الرئيسي المؤدي الى بيروت. تطلع الجنود الى داخل السيارة وطلبوا التدقيق في بطاقتي هوية الراكبين. «زحلق» بشير المسألة بأعصاب باردة وواصل سيره. ثم صادفهما حاجز آخر. خفف بشير السرعة، وما ان اقترب الجندي السوري من السيارة حتى ضغط بشير بقدمه على «دعسة» البنزين وانطلق على الطريق بسرعة جنونية ـ حتى بيروت.

كان بشير يتكلم كالثوار. كان يريد ان يغيّر الامور في بلده، وان يحطم بنية العقلية التقليدية. كان يتكلم ضد جيل والده هذا الجيل الذي قاد لبنان الى كارثة بمساوماته مع العالم العربي. كان بشير يبغض السوريين الذين دخلوا لبنان سنة ١٩٧٦ لانقاذ المسيحيين في الحرب الاهلية، ثم بقوا فيه وكان يردد في احاديثه العديدة مع الموفد الاسرائيلي، فيقول: «لقد جاء السوريون ليبقوا». وكان يبغض الفلسطينيين ربما اكثر من السوريين. «شعب لا لزوم له» ـ هكذا كان يسميهم ويضيف: «انهم يريدون زرع انفسهم في لبنان بالقوة».

وبشير ذو شخصية جذّابة، متقدة وغير عادية. كان في علاقاته بالاسرائيليين يهتم بالامور الصغيرة كاهتمامه بالامور الكبيرة. لقد ارسل

الهدايا الى نسائهم في اعياد ميلادهن، وكتب رسائل شخصية بخط يده.

كانت علاقاته بوزير الدفاع شمعون بيريس، ودية. وعندما جاءت ساعة بيريس الصعبة ـ بسقوطه في انتخابات الكنيست في ايار (مايو) ١٩٧٧، جاءه بشير الى البيت مشجعاً، وقدم له هدية ايضاً: ساعة يد وضعها بيريس في معصمه سنوات عدة. واصبح بشير بالتدريج قرّة عين المؤسسة السياسية ـ الامنية في اسرائيل. اطلقوا عليه لقب «قائد دولة عتيدة».

وكلما تعاظمت المساعدة الاسرائيلية، وتوالت الاتصالات بالمسيحيين كان السؤال التالي يطرح اكثر فأكثر: الى اين سيؤدي كل هذا؟ وكانت مناقشة هذا السؤال تسبب في الخصومات والافتراءات والشكوك المتبادلة في «الموساد» وفي الجيش الاسرائيلي. هناك من قال بتعميق العلاقة بالمسيحيين. وهناك من فضل بروفيلاً منخفضاً وعلاقات مقلّصة. ومنذ ذلك الوقت، اختير الخيار الثاني: ينبغي لنا ان نمكّنهم من القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، ومساعدتهم في هذا النطاق ولا شيء غير ذلك. ولكن كان هناك في «الموساد» موقف آخر يؤيده بنيامين بن أليعيزر. وفي مرحلة متقدمة اكثر، رئيس الاركان رفائيل ايتان ايضاً. هذا الموقف يؤيد توسيع العلاقات بالمسيحيين وتعميقها. وزعم اصحاب هذا الرأي انه من الافضل ان تنشط في المنطقة جهات من الوان متنوعة ومختلفة. ولذلك من الضروري مواصلة تغذية العلاقات بالاقليات في الدول العربية. وتستند وجهة النظر هذه، في الاساس، الى علاقات اسرائيل بإيران في الخمسينات والستينات وبالاكراد في العراق وبغيرهم. وزعم اصحاب هذا الرأي ايضا ان فرصتنا الوحيدة اذا كنا نريد الاندماج في هذه المنطقة، تكمن

في نسج علاقات بالاقليات المضطهدة من قبل محيطها العربي. وان لبنان هو الدولة العربية الاولى التي تبدي فيها جماعات مهمّة من سكانها المسيحيين، استعدادها لاقامة علاقات فعلية مع اسرائيل.

وفي ايار (مايو) ١٩٧٧، وقع انقلاب في الحكم في اسرائيل. فقد ألف مناحم بيغن، الذي رأس تكتل الليكود حكومة جديدة، عين فيها موشيه دايان، من زعماء حركة العمل السابقين، وزيراً للخارجية اما عيزر وايزمن الذي ادار معركة الليكود الانتخابية، فقد عين وزيراً للدفاع. وطرأ التغيير في سياسة اسرائيل الامنية وفي علاقاتها بالمسيحيين في لبنان خلال هذا الانقلاب في الحكم.

وما ان دخل بيغن مكتب رئاسة الحكومة حتى اجتمع الى رئيس «الموساد» يتسحاق هوفيه، الذي اطلعه بصورة مستفيضة على شبكة علاقات اسرائيل السرية. كما اطلعه على العلاقات الوثيقة بالمسيحيين في لبنان وعلى المساعدة العسكرية والتدريبات التي يخضع لها افراد الكتائب في اسرائيل. وأُبلغت لجنة الخارجية والامن بأن العلاقات بالمسيحيين مكرّسة للمحافظة على نفوذهم في لبنان كثقل مضاد للسوريين ولمنظمة التحرير الفلسطينية، ولمنع تحول الدولة بالتالي الى قاعدة راديكالية تحكمها جهات اسلامية متطرفة. اذ لو نشأ مثل هذا الوضع فعلاً فإنه سينطوي على اخطار تجاه اسرائيل ويكون بمثابة فتح جبهة اخرى اضافة الى تلك الجبهات القائمة.

واصدر رئيس الحكومة الى «الموساد» امراً بتوسيع العلاقات بالمسيحيين وتعميقها. وطلب بيغن من هوفيه البقاء في منصبه. فقد اراد ان يجري التبديل في السلطة بلا صدمات. وعلى عكس التقديرات التي راجت بشأنه قبل ان ينتصر في الانتخابات اراد بيغن ان

يثبت بطلان صورته كمحرّض على الحرب. لقد قرر ان يبرهن انه سيبذل كل الجهود خلال ولايته لتوسيع نطاق التسويات مع الدول العربية. وقد اجمل في مناسبات مختلفة وبصوته الجهوري اهدافه كرئيس للحكومة: حمل السلام لشعبنا مع الدول العربية، وبتر ايادي اولئك الذين سيحاولون رفع ايديهم ضد ابناء شعبنا في اي مكان.

في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧، زار رئيس مصر انور السادات القدس. وفي ١١ آذار (مارس) ١٩٧٨، قتل المخربون ٣٥ مواطناً وجرحوا آخرين على طريق الساحل بالقرب من نادي تل ابيب البلدي. وردت اسرائيل بعملية عسكرية قامت خلالها قوات الجيش الاسرائيلي بتطهير منطقة واسعة من ١٠ الى ١٥ كيلومتراً في الجنوب اللبناني. اطلق على العملية اسم ذلك النهر في لبنان الذي وصل اليه جنود الجيش الاسرائيلي: «عملية الليطاني». وتم تدمير بنية منظمات المخربين التحتية التي شملت مستودعات سلاح وذخيرة وملاجىء تحت الارض ومراكز قيادة وقواعد.

كان لـ«عملية الليطاني» نتيجتان اساسيتان: الاولى، قرار الامم المتحدة بإدخال وحدات تابعة لها إلى لبنان (يونيفيل) تشكل عازلاً بين قوات الجيش الاسرائيلي ولبنان. والثانية، قيام اسرائيل بتسليم معظم المناطق التي احتلتها الا قوة بقيادة رائد في الجيش اللبناني كان قد ارسل من بيروت للمساعدة على تنظيم القرى المسيحية في الجنوب من اجل الدفاع عن نفسها في وجه المنظمات الفلسطينية، كان هذا الرائد هو سعد حداد الذي تحول في غضون ايام الى الرجل الذي اسست اسرائيل عليه وعلى رجاله الامن الجاري على حدود الشمال.

كان إقدام حافظ الاسد على انشاء «جبهة الرفض» نتيجة حتمية

لبداية مسار السلام بين اسرائيل ومصر، والذي ادى الى عزلة الرئيس السوري. لقد خلق الرئيس السوري في لبنان طوقاً من شأنه ان يوقف في المستقبل مسار السلام بحسب ما خططوا له في كامب ديفيد. فقد كان مصمماً على الرد بالقوة على تعزيزات المسيحيين المدعومين من اسرائيل.

وفي ظل محادثات السلام التي كانت على وشك ان تبدأ بين مصر واسرائيل في كامب ديفيد، راحت المدفعية السورية تقصف الاحياء المسيحية في بيروت الشرقية. وقد استمع اعضاء لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست، الذين اجتمعوا في جلسة طارئة، الى وصف محزن للمعارك بين السوريين والمسيحيين. وابلغ رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية، اللواء شلومو غازيت، اعضاء اللجنة ان لواء مدفعية سورياً يضم ٣٦ مربض مدفعية اطلق في يوم واحد الفي قذيفة على حي الاشرفية في بيروت الشرقية حيث يقع مقر قيادة القوات المسيحية. لقد دك ٢٥٠ مدفعاً سورياً هذا الحي - اي اكثر من نصف المدفعية السورية التي كانت موجودة في لبنان في ذلك الوقت. فقد حاول السوريون عزل منطقة الاشرفية عن شرقي المدينة بهدف اسقاطها.

نشبت المعركة الكبيرة من اجل السيطرة على الجسور الثلاثة بين الاشرفية وشرقي المدينة. استمرت المعركة عدة ايام ولم يستجب السوريون لنداءات وقف النار. وكانت البرقيات التي تلقتها القدس من قادة الكتائب مؤثرة. كميل شمعون ناشد ضمير مناحم بيغن قائلاً: «إن وجودنا بات في خطر. ان عملية اسرائيلية هي بالنسبة الينا مسألة حياة او موت». وفي اسرائيل ارتفعت الاصوات تطالب بمساعدة المسيحيين في لبنان. وقرر وزير الدفاع عيزر وايزمن صدّ هؤلاء الذين طالبوا

بتدخل اسرائيلي مباشر (محدود ومحدد فحسب») لمصلحة المسيحيين في بيروت. وخاطب وايزمن اعضاء لجنة الخارجية والامن بلهجة غاضبة قائلاً: «لن نتورط في حرب واسعة النطاق من اجل المسيحيين. كيف نفعل ذلك، هذا جزء من فنّ الحرب والسياسة، فنّ الممكن. مرة نرسل طائراتنا لتحلق في سماء بيروت، وتلمح بذلك الى السوريين: نحن هنا. ومرة ثانية، تحدث صوت انفجار في الجو. ان نظريتنا واضحة، لن نذهب ونتورط من اجل المسيحيين... فإذا كان هناك عالم مسيحي لا يعيرهم اهتمامه فلا حاجة بنا، اذن، لنحطم رؤوسنا. اننا نعيش في عالم اسلامي، ونجري مفاوضات مع مصر. وعدد سكان هذا البلد ٤٠ مليون نسمة بينهم ٣٥ مليوناً من المسلمين والباقي من الاقباط. علينا ان نجد سبيلاً للتعايش مع المسلمين في الشرق الاوسط». واقترح وايزمن على اولئك الذين يضغطون «للكيد» للسوريين، الكف عن الكلام الدرامي. وقال: «لقد تكبد المسيحيون خسائر فادحة، لكن معنوياتهم بقيت عالية. ان ما يجري ليس عملية إبادة شعب. إنه امر قاس ولا يمكن القبول به. ما كنت لأرغب في ان اكون مكانهم، لكنني سأفكر خمس عشرة ألف مرة قبل ان اوصي الحكومة بدخول لبنان مع الجيش الاسرائيلي».

وبسبب احساس الرئيس السوري حافظ الاسد بالاحباط لخيانة الرئيس المصري انور السادات القضية العربية، استمر في خطة خلق الوسائل التي سيمنع بواسطتها حدوث تغييرات بعيدة المدى في المنطقة. وكانت هذه الوسائل تعزيز النفوذ السوري في لبنان، ورعاية المنظمات الفلسطينية في هذا البلد.

وقد تعاطت الولايات المتحدة بإيجابية مع الوجود السوري في لبنان. فقد رأت فيه ادارة الرئيس كارتر عامل استقرار. وحاول

الاميركيون استغلال الازمة في لبنان لتحسين علاقاتهم بسورية وابعادها عن النفوذ السوفياتي، وكانوا متخوفين من امكان امتداد المواجهة المسلحة بين السوريين والمسيحيين الى جبهات واسعة. لذلك ناشدت واشنطن السوريين وقف اطلاق النار ضد المسيحيين، كما ناشدت اسرائيل في المقابل لجم المسيحيين الذين بدا نشاطهم استفزازياً تجاه الجيش السوري في لبنان. فقد عارضت الولايات المتحدة تقديم اسرائيل مساعدة عسكرية للمسيحيين لانها لم تكن تريد ان يزداد نفوذ اسرائيل في أحداث لبنان، وذلك خوفاً من ان يشجع هذا الامر المسيحيين على القيام بأعمال اكثر عدائية ضد السوريين، تكون نتيجتها مزيدا من التصعيد. وفي نهاية شهر تموز (يوليو) ١٩٧٨، ناشد وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس رئيس الحكومة مناحم بيغن، ان «تعيد» اسرائيل «دراسة» قرارها بتزويد المسيحيين بالسلاح والذخيرة وتؤجل ارسال تلك الشحنات. وكان جواب رئيس الحكومة رفض الطلب بصورة قاطعة، معللا بأن الامر هو «واجب انساني سام».

وقد عارض الاميركيون ايضاً إمكان تدخل اسرائيلي نشيط لمصلحة المسيحيين في مواجهتهم العسكرية مع السوريين، لخوفهم بصورة خاصة من احتمال ان يؤدي ذلك الى مواجهة عسكرية بين اسرائيل وسورية في لبنان. وخاطب سايروس فانس وزير الدفاع عيزر وايزمن، مؤكداً ان قراراً اسرائيلياً بالتدخل عسكرياً في لبنان سيكون «خطأً تاريخياً». إزاء الخارج، زعم الناطقون باسم الادارة الاميركية ان القوة السورية ستضطر الى مغادرة هذه الدولة بعد انهاء مهمتها القاضية بضمان تسوية ووقف المواجهة بين الطوائف. لكن الواقع هو ان الولايات المتحدة قد اعترفت في الكواليس بمصالح سورية المشروعة

في لبنان كمنطقة لها ارتباط تاريخي بها وتؤثر على امنها تأثيراً مباشراً. وأخذت الولايات المتحدة على اسرائيل، ايضاً تشجيعها الرائد حداد على خلق بنية تحتية لدولة مستقلة في الجنوب اللبناني يمكن سلخها في المستقبل عن الحكم المركزي في بيروت.

لقد كان مناحم بيغن مضطرباً من التقارير التي وصلته من بيروت. فقد كان واثقاً من ان المسيحيين يواجهون عملية ابادة. وإن امكان ان يتعرض هؤلاء لمذبحة قد حرمه النوم، وهو الذي يعتبر نفسه ملزماً بمنع حصول مذبحة اخرى اضافة الى تلك التي ارتكبت بحق اليهود في الحرب العالمية الثانية.

لقد صب بيغن جام غضبه على الاميركيين الذين حاولوا منع اسرائيل من مساعدة مسيحيي لبنان، وتسلّح بيغن بالاستعدادات لعقد قمة كامب ديفيد، ودعا القائم بأعمال السفارة الاميركية في اسرائيل، سام هارت الى التداول معه. فقد كان السفير سام لويس قد توجه مع نائبه الى واشنطن للمشاركة في الاستشارات التي سبقت وصول السادات وبيغن الى الولايات المتحدة.

استهل بيغن الحديث الذي شارك فيه وزير الخارجية موشيه دايان ووزير الدفاع عيزر وايزمن بالقول: «إننا نقترب من مأساة كبيرة جداً. والحقيقة الاساسية هي ان الجيش السوري يحارب سكاناً مدنيين مستخدماً الدبابات والاسلحة الثقيلة. وقد قُتل الاولاد والنساء نتيجة ذلك. وازدادت خطورة الوضع في الآونة الاخيرة. لقد سار الف لبناني في تظاهرة الى الجدار الطيب، وتوسلوا مساعدتنا. نريد ان تنجح قمة كامب ديفيد، ولا نسعى لأي تدهور في الوضع، ولكن علينا ان نعترف بأن اللبنانيين يناشدوننا قائلين: «إذا لم تمدوا لنا يد العون

قريباً، فمن المحتمل ان يصبح الامر متأخراً جداً. هناك مجزرة متواصلة ضد المدنيين، وقد غادر الكثيرون لبنان خوفاً على حياتهم. علينا واجب ادبي تجاه المسيحيين. لا نستطيع ان نقف متفرجين إزاء ابادة اقلية دينية او قومية. نحن اكثرية في بلدنا، لكننا اقلية صغيرة في الشرق الاوسط. لقد ساعدنا المسيحيين، ولم يساعدهم احد غيرنا، ولا حتى فرنسا التي كانت راعية الموارنة على مر الاجيال».

وطلب مناحم بيغن تدخلاً اميركياً لدى دمشق. فالولايات المتحدة سبق ان اعطت موافقتها على دخول القوة السورية الى لبنان. وهي مسؤولة عن الوضع الذي نشأ. وقال رئيس الحكومة: «يجب التوصل الى وقف النار في بيروت، وبذلك نستطيع ان نذهب الى كامب ديفيد مرتاحين، وإلا سنشعر بالقلق يومياً، لما يجري في لبنان». وقد فهم الممثل الاميركي التلميح الى امكان تأجيل الذهاب الى قمة السلام مع الرئيس المصري.

وزاد وزير الدفاع كلاماً عن الخطر المحتمل على اسرائيل اذا احتل السوريون لبنان. وقال: «لن يكون في وسعنا تحمل وجود سورية على حدودنا».

نقل موشيه دايان الحديث الى مجاريه العملية، فطرح السؤال التالي: «كيف سترد الولايات المتحدة اذا قررت اسرائيل العمل في لبنان. إننا لا نملك ان نسألكم ماذا ستفعلون لو تحول لبنان الى جزء من سورية الكبرى، واصبح فيه خبراء وصواريخ روسية، ونحن سنرى جبهة سورية عريضة في مواجهتنا. وكيف حدث هذا الامر؟ هل هذه تشيكوسلوفاكيا اخرى؟ لقد كانت هناك حرب في لبنان، وجاء ما سمي «قوات حفظ السلام العربية». وفي المرحلة القادمة تحتل القوات

السورية لبنان. ربما يتم هذا مصادفة وربما عن قصد، عشية قمة كامب ديفيد. يتهمنا المسيحيون في لبنان بأننا قد رمينا بهم الى الكلاب من اجل المفاوضات مع مصر، والسوريون يستغلون ذلك. واشك في قدرتنا على ان نقول لهم اننا سنقف متفرجين فحسب على ما يجري هناك بينما السوريون يسيطرون على لبنان، وإننا سنلتزم الصمت فقط لأننا لا نريد المساس بكامب ديفيد».

لقد بذل وزير الخارجية جهده للتوصل الى اجراء حوار مع سورية بشأن الحفاظ على الوضع القائم في لبنان، ومغزاه ان يعدل السوريون عن التقدم على الارض وان يستمر تقسيم مناطق النفوذ في لبنان وفي سمائه، بين اسرائيل وسورية.

وقال دايان: «لا اريد ان اؤنب نفسي بأننا لم نساعد المسيحيين في الوقت الملائم. عندما يتأخر انجاز عمل ما، يصبح مكلفاً جداً وباهظ الثمن. وهناك قول مأثور اسباني يقول: عندما ينبت الشوك في الربيع يمكن للمرء السير عليه حافي القدمين، لكن بعد ان ينمو في الصيف فإن قطيعاً من الفيلة لن يستطيع السير عليه».

ورد المندوب الاميركي بأن واشنطن تراقب الاحداث في بيروت. لكن بحسب المعلومات المتوافرة للولايات المتحدة، فإن السوريين هم الذين تعرضوا لاستفزازات من جانب المسيحيين ادت الى تصعيد الوضع، كما ان القائد السوري الذي اظهر مبادئه اكثر من اللزوم قد تم استبداله في هذه الاثناء، لأن المسؤولين في دمشق ادركوا انه لم يتصرف بحسب نوايا الرئيس الاسد.

وطالب رئيس الحكومة الولايات المتحدة بالقيام بعمل سريع لدى دمشق. ولاحظ بيغن قائلاً: «صحيح ان لويس ابلغني بأن الامر

مختلف في دمشق، وبأن المندوب الاميركي هناك لا يستطيع ان يقابل الرئيس الاسد في اية لحظة كما يقابلني لويس».

وأعاد سام هارت الحديث الى موضوع كامب ديفيد، فقال: «انتم على حق في إننا عشية كامب ديفيد، نطالب الاطراف كلها بأن تلجم نفسها، وبألا تسمح للبلاغة المفرطة بتحديد الخيارات». وانفجر بيغن قائلا: «اذا استخدم الاسد فترة انعقاد قمة كامب ديفيد وما تبقى من ايام لافتتاحها لمواصلة العملية السورية، فلن يكون في وسعنا ان نتحمل هذا الامر. إننا نريد ان يبقى الوضع القائم في لبنان على ما هو عليه، ونصر على مبدأين اثنين: لن نسمح بإبادة المسيحيين، ولن تكون سورية على حدود اسرائيل في لبنان، لأن في هذا خطراً شديداً ومباشراً على امننا. نريد ان يسود الهدوء في الاسابيع القادمة، حتى لا نضطر الى الاصغاء الى المذياع طوال الوقت لمعرفة ما يحدث في لبنان».

وانهى رئيس الحكومة اللقاء بأسلوب درامي كعادته: «إنني آمل، يا سيد هارت، بأن تستطيع الحصول على معلومات حتى في ايام السبت الذي لا نشتغل فيه، وتستطيع ان تتصل بي، تستطيع ان توقظني في الليل ايضاً، على اساس ان الامر مستعجل».

* * *

واصل المسيحيون ضغطهم على بيغن. أراد كميل شمعون ان يعرف ما الذي تفعله اسرائيل اذا ما تعرض المسيحيون لخطر الابادة، وكان الامر على وشك ان يحسم. وتريث بيغن بعض الوقت، قبل ان يعطي اجوبته. فقد طلب اجراء مشاورات قصيرة قبل ذلك مع وزيري الخارجية والدفاع، اعلن في نهايتها قراره الآتي: «ستدافع اسرائيل

عنكم بطائراتها في حال تعرضكم لهجوم جوي سوري». كان هذا اول تغيير في مستوى التدخل الاسرائيلي في احداث لبنان، في اعقاب تسلم مناحم بيغن منصب رئيس الحكومة. وهذا الوعد لم يسجل خطياً قط، غير ان بيغن كان معروفاً باحترامه لكلمته.

وقلائل فقط في النظام السياسي في اسرائيل عرفوا بالوعد الذي قطعه رئيس الحكومة لزعماء المسيحيين في لبنان، واستمر الجدل فيما يخص سبل مساعدتهم. وعلى الارض، كانت المساعدة العسكرية تتدفق بغزارة، افرغت السفن حمولاتها في مرفأ جونية: دبابات مرممة، مدافع كانت اسرائيل على وشك اخراجها من الخدمة، وغيرها من العتاد والمواد الغذائية. وكلما تعاظمت المساعدة كانت آمال المسيحيين تكبر. وما لبث المسيحيون ان اوقفوا الحديث عن اسرائيل التي تساعدهم للبقاء في قيد الحياة. وبدأ بشير الجميل يحلم بدولة لبنان تحت قيادة مسيحية. مع الطعام تزداد الشهية.

في واشنطن وقف كل من مناحم بيغن وانور السادات يعلنان: «لا حرب بعد الآن، لا سفك دماء بعد الآن». ولم تلاق تلك النداءات صداها في المنطقة. لقد هللوا في القدس وفي القاهرة وفي واشنطن لاتفاق السلام الذي وقّع بين الدولتين، لكن الاسد وزعماء المنظمات الفلسطينية في كل من دمشق وبيروت، كانوا مصممين على تقويض السلام الاسرائيلي ـ المصري. وازدادت محاولات ضرب الاهداف المدنية من قبل منظمات المخربين، العاملة انطلاقاً من لبنان. في ٢٢ نيسان (ابريل) ١٩٧٩، اقدمت مجموعة من المخربين على قتل اب وابنتيه ورائداً في الشرطة في نهاريا. وقررت القدس الرد بشن حرب مبادأة ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وكان يقف وراء تلك المبادرة رئيس الاركان رفائيل ايتان. لكن رئيس الحكومة تبنى الفكرة وكان من

دعاتها المتحمسين. قال بيغن لدى مثوله امام اعضاء لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست في صيف سنة ١٩٧٩: «إن اسلوب عملنا في لبنان هو ضرب «فتح» في قواعد العدو من دون ان ننتظره ليوجه ضربة الينا، عندئذ سنضطر الى الرد على اكثر من عملية على نهاريا وبتاح تكفا وغيرها من العمليات الفظيعة. هذا هو الاختلاف». وعلى نقيض سياسة ردة الفعل، باشرت اسرائيل سلسلة من العمليات في عمق لبنان ضد قواعد المخربين وشبكات دفاعهم. واضاف بيغن فقال: «إذا لذنا بالصمت اشهرا واياماً فلربما نحظى برضاء اي كان، مثل الولايات المتحدة واوروبا على سبيل المثال، ولا نصيب أحداً بأذى لكننا بذلك نكون قد اصدرنا حكماً على عدد غير معروف من مواطنينا. فهم سيوجهون الينا الضربات من البحر ومن البر، وسيختطفون الرهائن، ويقتلون الاولاد والشبان، ولهذا السبب فقد وضعنا استراتيجية جديدة، لقد اعلنوا علينا حرباً مستمرة، وسيحصلون على حرب مستمرة».

وعارضت الولايات المتحدة معارضة شديدة السياسة الوقائية التي انتهجتها اسرائيل ضد منظمات المخربين في لبنان. وزعم الاميركيون ان هذا الاسلوب سيلحق اضراراً بالغة في وسط السكان المدنيين في لبنان، من فلسطينيين ولبنانيين، ويعرض حياتهم للخطر. ان هذا الاسلوب الاسرائيلي لن يقلل من الارهاب. بل على العكس من ذلك انه سيزيد في تصميم المخربين على متابعة نشاطهم الارهابي. ان صورة اسرائيل ومصداقيتها تتزعزعان لدى الرأي العام في الولايات المتحدة، وتضعفان حكومة الرئيس الياس سركيس في لبنان. لقد ثارت ثائرة الولايات المتحدة من استخدام اسرائيل لطائراتها في القيام بغارات جوية. وقال ديبلوماسيون اميركيون ان هذا الامر يعيد الى الاذهان عمليات القصف الجوي الاميركية في فييتنام وكمبوديا. وطلبت

الإدارة الاميركية وقف عمليات القصف الجوي ضد اهداف المخربين في لبنان. لكن بيغن فهم ان واشنطن ستكون على استعداد لتحمل محاربة المخربين ما دام الامر لا يؤدي الى تورط مع السوريين.

لقد كان هدف منظمات المخربين الاساسي في لبنان هو مواصلة الاحتفاظ بمكانتهم المستقلة خصوصاً في جنوب الدولة الذي تحول الى اطار لدولة مستقلة تقريباً. وعلى الرغم من تخوف منظمات المخربين من السوريين الذين لم يمدوا لها يد العون خلال «عملية الليطاني»، فقد كانت تؤيد وجود الجيش السوري في لبنان، الذي ساعدها على التأسس. لكن هذه المنظمات كانت متخوفة ايضا من محاولة سورية السيطرة عليها او الاشراف على نشاطها. أما الجيب المسيحي في جنوب الدولة بقيادة سعد حداد، والذي استُخدم عازلاً بين اسرائيل من جهة والمخربين والسوريين من جهة اخرى، وجعل تسلل المخربين الى اسرائيل صعباً، فقد تحول الى هدف اساسي من اهداف منظمة التحرير. وقد قصف المخربون منطقة حداد وحاولوا إلحاق الاذى بالسكان فيها. وفي المقابل، اقام المخربون تعاوناً مع الائتلاف الاسلامي ـ اليساري الذي كان يتصارع على السلطة في لبنان مع «الجبهة اللبنانية» المسيحية، والذي طالب بإعادة تأسيس النظام السياسي في الدولة. ففي سنة ١٩٨٠، كان المسلمون يشكلون اكثرية كبيرة في لبنان ـ ٥٦,٩ بالمائة من مجموع السكان.

وبموازاة حرب الإبادة ضد منظمات الفلسطينيين، برز في اسرائيل اولئك الذين يؤيدون تعزيز العلاقات بالهيئات المسيحية في لبنان كمرعى خصب للعمل.

لقد بدأ التعاون مع المسيحيين في شمال لبنان بداية حسنة. وقد

قاوم المسيحيون هجمات السوريين على تحصيناتهم في بيروت الشرقية بفضل المساعدة التي حصلوا عليها من اسرائيل. وفي نهاية سنة ١٩٧٩، كان مئات من جنود الكتائب قد تلقوا تدريباتهم في اسرائيل. صحيح ان مستواهم كان يختلف عن مستوى جنود الجيش الاسرائيلي، وقد اتضح من التقارير التي تلقاها صانعو السياسة في القدس، انهم كانوا يعانون من مشكلات كثيرة، مثل ظاهرة تدخين الحشيشة والعلاقات الشخصية المتدهورة. ولم يكن في استطاعتهم في القدس سوى القول ان المرء لا يستطيع ان يختار حلفاءه بمقاييسه الخلقية الخاصة به. . . وكان وقع ما قاله بيار الجميل وكميل شمعون ليل ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٩، للمبعوثين الاسرائيليين، على الآذان عذباً.

قال كميل شمعون: «إن السوريين هم اسوأ العرب. بعد عامين ستجري انتخابات في لبنان، وخروج السوريين من دولتنا قبل هذا التاريخ امر حيوي بالنسبة الينا نحن المسيحيين. سنبذل جهدنا لتحقيق ذلك بالطرق الديبلوماسية والسياسية، لكن اذا لم يرحل السوريون فإننا سنقاتل حتى النهاية من اجل ان نتخلص منهم. إنها مسألة وجود بالنسبة الينا، ان نكون او لا نكون». . واضاف شمعون: «إن السوريين يتصرفون في بلادنا كجيش احتلال، وحتى المسلمون المعتدلون في لبنان يعارضون السوريين، لكنهم جبناء ولن يفعلوا شيئاً». وكانت تلك اللحظة لحظة ملائمة لاشراك زعماء المسيحيين في سر الامور. واسرّ المبعوث الاسرائيلي اليهم بمعلومات بلغت اسرائيل مؤخراً، ومفادها ان السوريين سوف يبدأون حرب استنزاف ضد اسرائيل. «لن نرضى بذلك، وسنشن هجوماً مضاداً». وطلب اللبنانيون معرفة ما اذا كانت اسرائيل سترد بحرب استنزاف، فقيل لهم رداً على ذلك ان الهجوم

المضاد يعني شيئاً آخر تماماً. «لقد ساعدنا المسيحيين في لبنان، وسنكون على استعداد دائم للاستمرار في مساعدتكم. اذا هاجمكم السوريون من الجو فسنستخدم سلاحنا الجوي للدفاع عنكم. ماذا تريدون غير ذلك. ان وضعكم ليس على هذه الدرجة من السوء بعد امدادنا لكم بالمساعدة».

وردّ كميل شمعون الذي كان الاكبر سناً بين الضيوف: «إن السؤال الاساسي هو كيف سيكون التعاون بين شعبين، اقليتان محاطتان ببحر مسلم. بالنسبة الى العتاد العسكري فقد وعدتمونا بمدفعية مضادة للدبابات لم نتلقاها حتى الآن. ونريد دبابات ايضاً». وتمَّ التعهد بالنظر في الطلبات بعين العطف. لكن الحديث مع المسيحيين لم يقتصر على المساعدة العسكرية. لقد كانت اسرائيل على استعداد ايضاً لشرح المسألة المسيحية في الولايات المتحدة واوروبا. وكان من المفروض ان يقوم الخبير الاميركي الشهير في العلاقات العامة ديفيد غارت بهذه المهمة. وفي وقت متأخر جداً، اجتمع بشير الجميل وممثل «الموساد» الى ديفيد غارت في اوروبا ووضع الثلاثة الخطط لتأليف جماعة ضاغطة (لوبي) لمسيحيي لبنان. وقد نظموا هيئات مختلفة في فرنسا ايضاً.

وقال زعماء المسيحيين لحلفائهم الاسرائيليين: «علينا ان نكون اقوياء لاحراز تقدم على صعيد التعاون فيما بيننا». فردّ الجانب الاسرائيلي متعهداً: «سنكون حلفاء دائماً. علينا ان نقف معا في وجه التعصب في الشرق الاوسط، الذي يشكل خطراً على قيم كثيرة جداً. سنبذل كل ما في وسعنا لمساعدتكم. ان العلاقة بكم هي جزء مهم من سياستنا. ولن نتحمل اية محاولة لتحطيم الاقلية المسيحية. وتستطيعون الاعتماد علينا».

اظهر الزعماء المسيحيون لمناحم بيغن وداً خاصاً. فقد قدّروا تصميمه وكراهيته العميقة لمنظمة التحرير الفلسطينية، عدوهم المشترك. وكان بيغن يحترم كميل شمعون لكنه كان معجباً ببشير الجميل. وقد اعتاد ان يسميه «ماي صان» (ولدي) عندما يتحدث عنه. فقد كان الجميل الشاب يذكّر بيغن بنفسه عندما كان في خضم العمل السرّي. ولم تُذكر قط حقيقة ان الحزب الذي شكله بيار الجميل كان مرتبطاً بالنازيين في البداية، وكان الجنرال فرانكو وأدولف هتلر بطليه.

لقد احيطت العلاقة بالمسيحيين، في ذلك الوقت، بسرية شديدة. كانت قلة فقط تعرف ان اسرائيل لم تعد ملتزمة المحافظة على امنها هي فحسب.

كان رئيس الحكومة راضياً عن اللقاءات والمحادثات التي جرت بين المسيحيين والاسرائيليين. لم تعد اسرائيل معزولة في المنطقة، فهناك اتفاق السلام مع مصر، ومستقبل تعاون مع المسيحيين في لبنان. وكما هو مألوف بين دولتين قررتا ربط مصيرهما بعضهما ببعض، فقد عمد المسيحيون الى وضع خطوط التعاون. وتحت عنوان «اسرائيل ومسيحيو لبنان»، كتب كميل شمعون ما يلي:

مع نشوب حرب السنتين على خلفية السلوك السوري ونهج الدول العربية المعادي والسلبي، بدأت بين اسرائيل والمسيحيين في لبنان علاقات تضامن طبيعية. وهذه العلاقات مكرسة لتوجيه سياسة هاتين الاقليتين ابناء الثقافة الواحدة واصحاب الاتجاهات الاجتماعية، والثقافية الواحدة، لأنهما تواجهان تهديداً بالإبادة الكاملة بضغط من اكثرية العرب الذين يصل عدم تسامحهم الى حد الحقد على الغرباء. وينبغي لهاتين الاقليتين الاستعانة بعضهما ببعض من اجل البقاء وذلك

في المجالات كافة: الاعلامية والاقتصادية والدفاعية وفي السياسة الخارجية.

«إن الاتكال على الولايات المتحدة هو بمثابة وهم ستكون نهايته مخيبة للآمال، ناهيك بأن الولايات المتحدة تعارض حتى اللحظة اية فكرة تعاون بين شعبينا من خلال التشجيع الذي تبديه للثورة الفلسطينية، ونظرتها المتعاطفة الى قادة هذه الحركة والكلام النابي الذي توجهه علناً ضد اسرائيل. هكذا ساهمت الولايات المتحدة في تصليب مواقف الفلسطينيين والدول العربية، وفي تعزيز رغبتهم في الحرب، وفي تغذية اتجاه العودة الى اسلوب العنف، ومنه الى طريق الحرب، وذلك عوضاً عن تغذية الامل بالسلام. وتسلك الدول الاوروبية هذا الطريق ايضاً. لذلك، فإننا نجد انفسنا وحيدين في ضائقتنا واسرائيل معزولة اليوم تماماً مثل عزلة مسيحيي لبنان منذ سنة ١٩٧٥».

وقد اقترح كميل شمعون في هذه المذكرة ايضا، طريقاً عملياً وممرحلاً لاستمرار هذا التعاون:

«يجب ان نعمل معاً لاخراج السوريين والفلسطينيين، او على الاقل للتوصل الى نزع سلاحهم وتحرير النقاط الاستراتيجية التي يسيطرون عليها. ومن ثم يستولي المسيحيون على السلطة، الامر الذي سيتيح وحده التوصل الى سياسة تعاون ومساعدة متبادلة. وإن إمكان ضمان هذا التعاون يعتمد الى حد كبير على صيغة لبنان الدستورية المستقبلية. فالتعاون غير ممكن تقريباً بحسب صيغة سنة ١٩٤٣، التي لا تتيح اي توجه من دون موافقة المسلمين. وإن هذا التعاون قابل للتحقيق اذا اصبح لبنان دولة فدرالية.

«ولو توافرت لنا الوسائل الملائمة فلا شيء يمنع طائفتنا من ان تطيح بالفدرالية في المستقبل القريب، وتحولها الى كونفدرالية ويصبح الجنوب اللبناني تابعا لنا. إن لاسرائيل قوة كبيرة ونحن ايضاً بحاجة الى ان نكون اقوياء ولمصلحة الجميع. ليس في نيتي ان اقلل من اهمية المساعدة التي تمدنا بها اسرائيل والتي مكنتنا من مقاومة نشاط السوريين والفلسطينيين الحثيث. ولكن هذه المساعدة برهنت بحد ذاتها انها غير كافية عندما يتعلق الامر بتنفيذ خطة حيوية لضمان استقرار وبقاء الاقليتين اللتين ننتمي اليهما، ضمن محيطهما المعادي».

وعلق رئيس الحكومة على المذكرة قائلا: «انها اقوال واقعية. ولكن لماذا لا يوافقون على ارسال مقاتلين الى الجنوب اللبناني لمساعدة الرائد حداد؟ فهؤلاء مسيحيون واولئك مسيحيون ايضاً! انه لأمر غريب» - مناحم بيغن لم يفهم هذا الامر.

وبدأت نتائج الاجتماعات السرية تظهر على الارض بسرعة ادهشت «الشركاء» في القدس وتركتهم فاغري الفاه. اما بشير الجميل الذي تعززت ثقته بنفسه نتيجة استمرار الحرب الاهلية وما تلقاه من مساعدة اسرائيلية، فقد قرر ان يطبق النظام في المعسكر المسيحي. فظاهرة الوحدة التي اظهرتها ميليشيات كميل وداني شمعون تجاه ميليشيات بيار وبشير الجميل كانت بسبب القصف السوري ضدهم فحسب. اذ ما ان تحسن وضعهم الامني الداخلي قليلا حتى عادوا يتقاتلون لتحقيق مواقع سيطرة اقتصادية في كل من بيروت وجونية. وبالنسبة الى بشير، فقد كانت له طموحات في ذلك الوقت، ليتحول الى ما هو افضل من زعيم عصابة، كما عبر عن ذلك بنفسه. لقد كابد لقيادة المسيحيين، ولذلك قرر تصفية قوة الميليشيات التي تزاحمه.

وفيما بعد، وعندما جاء مبعوثون اسرائيليون لمعرفة ما يجري عند حلفائهم في لبنان، همس بشير في آذان ضيوفه القادمين من اسرائيل مهدئا، وقال: «كانت تلك مجرد لحظة في الكفاح من اجل الانعتاق. لقد كان جسم المعسكر المسيحي بحاجة الى تدخل جراحي لاستئصال العفن».

تلقت القدس التقارير عن اعمال القتل المتبادلة بين المعسكرين بشعور من الارتباك. فقد استُغل السلاح الذي ارسل للدفاع عنهم، من اجل اهداف اخرى. لم تكن اهدافاً مقبولة لكنها لم تكن فظيعة. ومن الذي كان لديه الوقت الكافي للتفكير في كل ما يجري. فالاهتزازات حدثت حتى في معسكر مناحم بيغن. ففي ربيع سنة ١٩٨٠، كانت حكومته كسفينة على وشك ان تتحطم على الصخور. وزير الدفاع عيزر وايزمن اعتزل منصبه، وصفق الباب خلفه بصخب، وتكلم بصلافة عن رفاقه: «طريقكم ليست طريقي». فقد عارض وايزمن خطوات رئيس الحكومة تجاه مصر. وفي رأيه، فقد اضاع بيغن الفرصة لصنع سلام حقيقي مع المصريين ولبدء الاندماج في المنطقة، كما انه تمسك بالامور التافهة. وقد فقد وايزمن، بدوره صبره السياسي في الانتظار كوريث لبيغن بلا منازع في حركة حيروت وفي رئاسة الليكود.

راح الكثيرون يتكهنون بمن سيخلف وايزمن في رئاسة جهاز الامن، وذكرت اسماء يتسحاق شمير والوية في الاحتياط من الذين ترتفع وتنخفض اسماؤهم بصورة دائبة في اوقات عمل البورصة السياسية. كان وزير الزراعة اريئيل شارون راغباً جداً في هذا المنصب، لكن لم يخطر قط في بال بيغن ان يضع في يد شارون مسؤولية امن الدولة. وقال رئيس الحكومة لاثنين من الوزراء آنذاك انه لن يسند حقيبة الدفاع الى شارون بأي شكل من الاشكال، لأنه «قد

يرسل الدبابات لتطوق مكتب رئيس الحكومة». وقد غضب شارون من هذا التهجم وحاول ان يرد عليه. لكن بيغن تكلّف السذاجة، وقال: «كنت امزح. انا لا افهم، اننا نفتقر الى حسّ المزاح البريء من وقت الى آخر».

توقفت التكهنات بعد فترة وجيزة. فقد قرر مناحم بيغن الاحتفاظ موقتاً بحقيبة الدفاع. وكان هناك من سارع الى القول انه لا يوجد في اسرائيل ما هو ثابت اكثر من الموقت وقرر رئيس الحكومة ان يعمل في وزارة الدفاع بتل ابيب، يوماً واحداً في الاسبوع. اما التقارير اليومية فقد كان يتسلمها مساعده العسكري العميد افرايم بورن، او كان بيغن يتلقاها مباشرة وشفهياً من رئيس الاركان رفائيل ايتان. وكان يوم الخميس هو اليوم المخصص بكامله لشؤون الامن، اذ انه كان يُستغل لاجراء مناقشات في اطر موسعة في وزارة الدفاع لمنح اذونات في القيام بعمليات عسكرية سرية وبعمليات طلعات جوية لأغراض التصوير ولمعالجة المشكلات الشخصية لكادر الضباط في الجيش الاسرائيلي. وتعاظم نفوذ رئيس الاركان رفائيل ايتان (رفول) على الفور وكان بيغن يطلق عليه لقب «القائد العسكري» من حين الى آخر من باب الاعراب عن اعجابه بالشخص الاكثر قرباً اليه. فقد كان رفول في نظر رئيس الحكومة، رمزاً للأصالة ولقوة الإرادة وللعزيمة الفولاذية، وكان يد بيغن القوية التي تطبق نظريته الامنية التي تقضي بضرب المخربين حيثما كانوا ومن دون رحمة، وقبل ان ينطلقوا هم في مهمات هجومية. وهذا ما فعله الجيش الاسرائيلي في لبنان إن بالقصف الجوي او بالغارات على اهداف المخربين.

وكان رئيس الاركان يؤمن بأن العلاقات بالكتائب في لبنان ستحقق فائدة كبيرة «للشريكين» في المستقبل. وكان رفول

كالمسيحيين، يريد طرد السوريين، ويريد الهجوم عليهم وضربهم. وفعلا، تميز عهد بيغن وإيتان كمسؤولين عن جهاز الامن، بتطورين اثنين يتصلان بلبنان. فلقد حاز توق المسيحيين الى دولة بقيادتهم والى امكان طرد السوريين من بلدهم، على تشجيع فعلي لم يسبق له مثيل. اما منظمات المخربين فقد عززت قوتها وباشرت تنظيم نفسها كجيش متخندق من جميع الوجوه، بعد ما تلقته من ضربات طائرات سلاح الجو ومن سلسلة الغارات التي شنتها قوات المشاة.

وتتابع الحوار بين اسرائيل والمسيحيين. في ليل ٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠، وصل اسرائيليون الى جونية مرة اخرى، من اجل لقاء بيار الجميل وبشير الجميل وقيادات مسيحية اخرى. كان المسيحيون قلقين تجاه النشاط العسكري الاسرائيلي في الجنوب اللبناني. وقد رفضوا التعاون مع الرائد حداد. وكان وفد مسيحي آخر قد تحدث في السابق عن قرار بتنفيذ انقلاب في لبنان بالطرق الديمقراطية او غيرها لتحقيق خروج السوريين والفلسطينيين من الدولة. وقد اشار هذا الوفد الى اتصالات تجري مع الدروز في جبل لبنان لتحقيق هذا الهدف.

وقد حصل هؤلاء على وعد بالمساعدة في تطوير شبكة دعاوية لهم في الولايات المتحدة وفي اوساط الدروز في اسرائيل، الذين سيعبرون عن تأييد نضالهم. وطلب المسيحيون المزيد من السلاح في ختام الزيارة وقالوا ان الزمن يعمل لغير مصلحتنا.

كان الاحتفال في جونية مؤثراً. فقد رفرفت اعلام اسرائيل ولبنان وجيش القوات الموحدة، من على رؤوس الصواري. قام العميد بنيامين بن اليعيزر بعرض الجنود وكان قلبه مفعماً بالقوة. فالتعاون بين

اسرائيل والمسيحيين قد اثمر. وقد جرى استقبال الوفد الاسرائيلي في جونية، في مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٠، بإجراء المراسيم كافة المعمول بها بين دولتين. وقام بشير الجميل وقادة القوات التي كانت خاضعة لسلطته باستقبال الاسرائيليين كما يُستقبل ممثلو دول صديقة. ودارت المناقشات بشأن مسائل سياسية وعسكرية. ولولا غياب البيانات الختامية لوسائلَ الاعلام لاكتملت الصورة.

عرض بشير امام ضيوفه صورة الوضع. صحيح ان الجيب المسيحي الذي يسيطر عليه يمتد على جزء صغير من الدولة، لكن لا تزال هناك مفاجآت متوقعة في المستقبل. قال بشير: «لقد تعلمنا منكم كيف نصطاد السمك، وإننا في الوقت الحاضر بحاجة الى ان نتعلم، بقوتنا الذاتية، كيف نتجنب الجوع، وسنواصل اشراككم في افكارنا، وسنطلب مشورتكم دائماً من اجل مصير شعبينا المشترك. لم يعد هناك مجال للعودة، لقد قُتل اربعة آلاف مسلح من صفوفنا، وليس في نية الباقين الرضوخ الآن وقد اصبحت المكاسب السياسية والعسكرية بادية للعيان. لقد انجزنا الوحدة بين العناصر المسيحية المختلفة. وقد تشكلت في بلدنا حكومة جديدة، ولن يكون الرئيس الياس سركيس دمية سورية بعد الآن. سيقف الى جانبنا في المستقبل».. وكشف بشير النقاب عن اجتماعه الى سركيس وعرضه عليه استثمار الموارد لتطوير سريع للمنطقة المسيحية وتهيئة الحكم لعملية استيلاء القوى الشابة عليه، التي ستعمل من اجل فرض هيمنة المسيحيين ـ الموارنة على لبنان. وقال بشير ان سركيس كان موافقاً على التقويم القائل ان نظام الحكم في لبنان القائم على المحافظة على توازن مزيّف بين المسيحيين والمسلمين، هو نظام حكم سيىء للغاية. لذلك فإنه سيتعاون، ان لم يكن بإرادته فعلى الاقل لانعدام امكان عملية اخرى.

واضاف بشير: «لقد اقترحت عليه المساعدة في تقوية البنية التحتية الاقتصادية، والسعي للتخلص من الانتداب السوري وتعزيز النفوذ المسيحي في الجيش».

اما السياسي الماكر او كما يسمونه في المعسكر المسيحي «الثعلب العجوز» كميل شمعون، فقد مال نحو مصالحة بشير الجميل. اذ أعلن يوم وصول الوفد القادم من اسرائيل: «سننسى الماضي». واعترف بشير من جهته بجدارة شمعون الادبية والسياسية.

ومرة اخرى لم يتم الاتفاق مع الاسرائيليين بشأن الجنوب اللبناني. قال بشير: «إننا لا نتكلم عن موجة واحدة معكم». وسأل: «ماذا بقي لي في الجنوب اللبناني لأعمله؟» ساد الغرفة جو من الارتباك، ولم تكن الاجوبة في محلها، وراح الوفد الاسرائيلي يسرد بحماسة ما شاهده خلال جولته في المناطق الواقعة تحت سيطرة الكتائب والتي دامت ثلاثة ايام، وحظي بنيامين بن اليعيزر خلالها بمشاعر المحبة والتقدير في كل مكان. وقال فؤاد ملاحظاً: «انهم يعلقون علينا آمالاً كبارا خصوصاً اولئك الجنود الذين تلقوا تدريباتهم في اسرائيل. انهم الرسل الذين يحملون نية اسرائيل الطيبة. ويحظى بشير الجميل باحترام الجماهير، وصوره ترفرف على كل الطرقات. انه يتمتع بشعبية ويمكننا في لبنان المسيحي الذي يتكوّن، ان نلاحظ بداية مرحلة البناء والتطوير». بهذه اللهجة رفعوا تقريرهم الى القدس. يسيطر بشير على الوضع، وهو يطلب المزيد من المساعدات، لا المساعدات العسكرية فحسب بل ايضا مساعدات في مجالات الثقافة وتنظيم الاحزاب وحل المشكلات الاجتماعية. ان مطالبهم معقولة ـ هذا ما اتفق عليه المبعوثون الاسرائيليون فيما بينهم.

* * *

لم تتأخر ساعة تسديد الحساب، كانت مدينة زحلة كجيب مسيحي في قلب البقاع اللبناني: مدينة اصطياف تسيطر على الشريان الرئيسي بين بيروت ودمشق. وقبل نهاية سنة ١٩٨٠، اصدر بشير الجميل امراً بتعبيد طريق فرعي يربط زحلة بالاحياء المسيحية في بيروت. ورد السوريون في شهر آذار (مارس) ١٩٨١، بمحاصرة المدينة وقصفها وقصف جبل صنين والاحياء المسيحية في بيروت. وتكلف بشير السذاجة عندما سأل المراسلين الصحافيين الذين التقاهم حين اندلعت المعارك: «لماذا تنهمر علينا انفجارات الحقد السوري كل بضعة اشهر؟» وفي القدس استفهم المسؤولون: هل تسقط زحلة في يد السوريين؟ وسارع بشير الى ارسال برقية الى رئيس الاركان تقول: «ساعدونا».

الفصل الثالث: من يسحب الصواريخ؟

القدس، دائرة رئيس الحكومة، برقيات كثيرة تراكمت على طاولة مناحم بيغن خلال الليل، وكان معظمها يتعلق بما يجري في لبنان. وقد واصل السوريون قصف الاحياء المسيحية في بيروت، ومحاصرة زحلة. ويعتبر هذا القصف الاشد منذ سنوات. وفي بيروت نزل السكان الى الملاجىء. وقد استهل رئيس الحكومة نهاره في احد الايام الاولى من شهر نيسان (ابريل) ١٩٨١ كعادته بقراءة البرقيات والتقارير والتقويمات التي قدمتها شعبة الاستخبارات و«الموساد» ودائرة الابحاث في وزارة الخارجية.

كانت التقويمات بشأن ما يجري في لبنان مختلطة هذه المرة. وكان احد الاحتمالات ان النشاط العسكري السوري في لبنان ناجم عن الرد على محاولة المسيحيين بزعامة بشير الجميل الإضرار بمكانة السوريين وموقعهم في لبنان. وزعم السوريون ان المسيحيين هاجموا حاجزا لهم على مشارف زحلة وقتلوا ثلاثة جنود واشعلوا النيران في ثلاث دبابات واقاموا حاجزا على طريق بيروت ـ دمشق. وكان لدى المسيحيين رواية اخرى بشأن التطورات التي ادت الى نشوب المعارك

مع السوريين. ومما قام به السوريون انهم اختطفوا قائد الكتائب ثم بدأوا يدكون المدينة بالمدفعية.

لقد قرر بيغن الاستماع الى رأي رئيس هيئة الاركان. ولم تكن هناك شكوك لدى رفائيل إيتان الى جانب من يقف الى جانبه. كما ان مسألة من المبتدىء لم تشغله، ففي رأيه انه ينبغي مساعدة المسيحيين في شمال لبنان، وحشر السوريين وضرب مكانتهم في الدولة. وستكون اسرائيل هي الرابحة من خطوات بشير الجميل وزمرته. كان تحليل رئيس الاركان بسيطا، ونشر عبر احاديث ادلى بها الى وسائل الاعلام في البلد. وكانت الصورة التي رسمها على النحو التالي: اكتشف السوريون ان المسيحيين ازدادوا قوة وسيشكلون خطرا عليهم في المستقبل. لقد اصبح لبنان مقسما بطبيعة الحال. وقد احكم السوريون سيطرتهم على البقاع، وسيطر الرائد حداد على الجنوب، وسيطر المخربون وانصارهم من منظمات اليسار الاسلامي على المنطقة الممتدة من منطقة حداد حتى بيروت الغربية، وسيطر المسيحيون على منطقة جونية وبيروت الشرقية.، ووقع الشمال تحت سيطرة سليمان فرنجية، وهو مسيحي كان يحظى بتأييد السوريين والمخربين. أما رئيس لبنان، الياس سركيس، فلم يكن يسيطر على اي مكان سوى قصره في حي بعبدا ببيروت.

لقد عرض رئيس هيئة الاركان في مقابلات صحافية ازدياد قوة المسيحيين في الطريق الى دولة مستقلة يسيطرون عليها وحدهم. لقد تأسسوا وجبوا الضرائب، واستخدموا ميناء جونية وانتجوا الكهرباء وبنوا جيشا. ودرج رفائيل ايتان على القول ان بشير الجميل يقوم بثورة. وبهذا المعنى رفع تقريرا الى رئيس الحكومة.

كان النشاط العسكري الذي يمارسه بشير على الارض وسيلة لتحقيق أهداف سياسية في المستقبل في انتخابات الرئاسة التي كانت ستجري خلال منتصف سنة ١٩٨٢. وأراد الجميل توسيع المناطق التي يسيطر عليها، ولو بثمن المواجهة مع السوريين. وتوجه الى الرائد حداد وطلب منه المساعدة بالمبادرة الى حادثة اطلاق نار على منظمات المخربين في منطقة صور وصيدا، وكان يعتقد ان تبادل اطلاق النار بمحاذاة الحدود سيجر الجيش الاسرائيلي الى مزيد من التدخل الى جانب قوات حداد التي «تتعرض للهجوم».

إن الاتصالات بين بشير ومستشاريه من الجيش الاسرائيلي و«الموساد» لم تتوقف. وقد طلبت ميليشياته مساعدات بالذخيرة والمعدات الطبية. وفي ٨ نيسان (ابريل) ١٩٨١ وصل الى جونية مبعوث خاص من قبل رئيس الحكومة، وابلغ بشير ان اسرائيل تواصل التمسك بتعهدها للمسيحيين في لبنان بالدفاع عنهم في حال قيام الطائرات السورية بمهاجمتهم من الجو.

بذل بيغن المستحيل من اجل زيادة المساعدات للمسيحيين. ففي اوائل الشهر اصدر تعليماته الى مدير عام وزارة الخارجية في القدس بالتوجه الى وزارة الخارجية في واشنطن طالبا تدخل الولايات المتحدة للحؤول دون ذبح سكان زحلة. وردا على طلبه، نقل السفير سام لويس رسالة من وزير الخارجية ألسكندر هيغ تتضمن تأكيدا: «إننا نبذل جهودا ملحة لدى جميع الفرقاء المعنيين، بما في ذلك السعوديون والفاتيكان والحكومات الاوروبية - ومن بينها فرنسا - لاستخدام نفوذهم في لجم السوريين والكتائب على السواء».

ماذا يريدون من الكتائب - تساءل بيغن عندما قرأ رسالة هيغ.

في زحلة استمر الحصار السوري، وقصفت المدينة بشدة. وردا على ذلك قصفت قوات بشير التي حصلت على تعزيزات من ستمائة مقاتل أُحضروا من بيروت، بلدة شتورا التي كان مقر قيادة القوات السورية في لبنان قائما فيها. وطلب الرئيس السوري، الاسد، بشدة ان يُخرج الجميل من زحلة جنود الكتائب الذين حضروا من بيروت. كما طلب ان يبقى محور الحركة، الذي يقطع المنطقة من دمشق حتى مشارف بيروت تحت سيطرة السوريين وحدهم. وقد حشد الجيش السوري كوسيلة ضغط اضافية كتيبتين مدرّعتين وثماني كتائب كوماندو حول زحلة.

وكعادته، سلك الرئيس السوري ايضا السبيل الدبلوماسي. فقد اجتمع وزير الخارجية عبد الحليم خدام ورئيس الاستخبارات السورية في لبنان، محمد غانم، مع الرئيس سركيس وكميل شمعون وبيار الجميل، لكن من دون التوصل الى نتيجة.

وطلب هيغ من بيغن، مرة اخرى ان يلجم المسيحيين. وكان جواب رئيس الحكومة مألوفا: «إن المسيحيين يقاتلون من اجل وجودهم. نقلنا طلبكم الى بشير الجميل، ورفض. ومع ذلك فإننا نرحب بالأمور التي كتبت باسم وزير الخارجية تيغ والتي تفيد ان السوريين لم يعودوا يشكلون قوات تسوية في لبنان، وإن هدفنا المشترك - كما قال هيغ - هو العمل على إخراج السوريين من لبنان».

وقد برزت في توجه ألكسندر هيغ الى اسرائيل ملامح التغيير في السياسة الاميركية إزاء الوجود السوري في لبنان. ان هذه الملامح ناجمة عن نظرة وسياسة عالميتين تختلفان عن نظرة وسياسة ادارة كارتر، الذي كان في البيت الابيض قبل الرئيس ريغان.

لقد سعت السياسة الخارجية، في بداية عهد ريغان، لانشاء تحالفات بين الدول الصديقة للولايات المتحدة من اجل وقف التوسع السوفياتي في مختلف انحاء العالم، وذلك خلافا لادارة كارتر الذي اعتبر حل المشكلة الفلسطينية دواء لجميع امراض المنطقة. واعتقد صانعو السياسة الجديدة في البيت الابيض انهم لن ينجحوا في انشاء شبكة تحالفات بين الدول العربية المسماة «معتدلة»، لكن اذا انخرطت اسرائيل هي ايضا في حلف استراتيجي مع الولايات المتحدة ستخف حدة النزاع العربي - الاسرائيلي، اذ ان الاتحاد السوفياتي هو الذي يغذي النزاع. وعهد الاميركيون الى اسرائيل بدور متواضع الاشتراك في لجم السوفيات في منطقة البحر الابيض المتوسط. بيد انه اتضح للأميركيين ان الدول العربية المعتدلة تتجه نحو خط التطرف ولا مفر من معالجة محور النزاع: المشكلة الفلسطينية القائمة والمتأججة في لبنان. وكان في تقدير ألكسندر هيغ انه اقيم بحماية مظلة سورية، كيان فلسطيني راديكالي في لبنان يحول دون احراز تقدم نحو حل النزاع بالطرق السلمية. ولم ولن يكون في الامكان التقدم في طريق الحل السياسي إلا بعد إخراج السوريين من لبنان، وتوجيه ضربة عسكرية الى منظمات المخربين. إن هيغ، خلافا لنصائح مستشاريه، تخطّى خلال زياراته الاولى لدول الشرق الاوسط سورية التي اعتبرها محمية سوفياتية.

وقد استمد من في القدس التشجيع من رسالة هيغ، ولو لم تقصد الولايات المتحدة جعل بشير الجميل يسيطر على لبنان. أما اسرائيل فقد منحت بشير الدعم الكامل لأعماله كافة، وكافأها في أواخر نيسان (ابريل) بكلمات ودية كتبها في رسالة الى رئيس الحكومة جاء فيها: «في هذه الساعات الحاسمة والمصيرية التي نمر بها فإن التفهم

والمساعدة والدعم من قبل دولة اسرائيل الى مسيحيي لبنان بصورة عامة، وقوات المقاومة اللبنانية بصورة خاصة، تبرز دليلا راسخاً على التحالف بين شعبينا الذي لا تراجع عنه». وقد بعثت هذه الكلمات الدفء في قلب مناحم بيغن.

إن الوضع على الارض تطلب اجراء مشاورات متواترة في القدس، وقد زود رئيس هيئة الاركان رئيس الحكومة بالتقارير والتقويمات، وكان التطور الذي اقتضى دعوة اللجنة الوزارية لشؤون الامن الى الاجتماع، هو سيطرة السوريين على موقع في جبل صنين كان يسيطر عليه المسيحيون، وله اهمية استراتيجية - بحسب رأي رئيس هيئة الاركان - وهو الموقع الذي كان يعرف باسم «الغرفة الفرنسية». وقد استخدم السوريون طائرات نقل ساعدت قواتهم في الجبل. وقد حضر جلسة ٢٨ نيسان (ابريل)، مناحم بيغن مصطحبا معه مشروع قرار. قال رئيس الحكومة ان «اسرائيل ستمارس التزامها إزاء المسيحيين في لبنان، والذي بحسبه تستخدم اسرائيل طائراتها لمساعدة المسيحيين في حال تعرضهم لخطر هجوم من الجو بواسطة الطائرات السورية».

وبعد مضي بضع ساعات، اسقطت طائرات سلاح الجو في جبل لبنان طوافتي نقل سوفياتية الصنع من نوع ME-8.

إن التقرير الذي كتبه بنيامين بن أليعيزر الذي ارسل الى زحلة للاطلاع على وضع المسيحيين، وضع جانبا، ولم يره الوزراء على الاطلاق. وقد جزم بن - أليعيزر بأنه لا يحيق بالمسيحيين في زحلة خطر الفناء. وفي مقابل ذلك أكد ناطقون حكوميون في ارشاداتهم الى الصحافيين ان حكومة اسرائيل قررت منع السوريين من تصفية الاقلية

المسيحية في لبنان. وبعد ان صعد السوريون من تهديدهم لوجود المسيحيين بعد سيطرتهم على جبل لبنان، تقرر كخطوة اولى ان تقوم طائرات سلاح الجو بمنع السوريين من استخدام طوافاتهم الهجومية في المنطقة التي يدور فيها القتال مع المسيحيين. وقيل للصحافيين ان هذا العمل كان مراقبا، وانجز بعد استنفاذ الامكانات الاخرى جميعا.

وقد اضاف ناطقون باسم الجيش الاسرائيلي في توجيهاتهم الصحافية ذرائع اخرى من اجل استخدام سلاح الجو لمساعدة المسيحيين في لبنان. وكانت هذه ضرورة عسكرية لأن السيطرة السورية على جبل لبنان (٢٦٠٠ متر فوق سطح البحر) ستمكنهم من السيطرة بنيران المدفعية على منطقة جونية ومنطقة البقاع. ولا تستطيع اسرائيل التسليم بمثل هذا التطور. وقد كشف رئيس الحكومة النقاب، في مقابلة مع «اذاعة اسرائيل»، عن ان اسرائيل تقدم طوال الوقت مساعدات كبيرة الى المسيحيين في لبنان، في الجنوب والشمال، اذ ان احدى مهماتها هي المحافظة على ميناء جونية كميناء حر من اجل الابقاء على استمرار تدفق المساعدات.

بعد اربع وعشرين ساعة من اسقاط الطوافتين السوريتين نقلت ثلاث بطاريات صواريخ ارض ـ جو من نوع إس. آي ـ ٦ من سورية الى منطقة البقاع في لبنان. وبعد يومين من ذلك نصب المزيد من بطاريات الصواريخ إس. آي ـ ٦ وإس. آي و ـ E2 في الاراضي السورية على مقربة من الحدود مع لبنان. وبعد مرور بضعة ايام نقلت ثلاث بطاريات من نوع إس. آي ـ ٢ وإس آي ـ ٣ الى منطقة البقاع. وقد اتخذت هذه التدابير السورية بصورة مكشوفة وعبر تشجيع وسائل الاعلام على اذاعة هذا التحرك.

لقد أخذوا يفركون اياديهم طربا في المعسكر المسيحي. لقد نجحوا في جر اسرائيل الى الداخل، والآن وعلى حد قول المثل الشعبي، «السيد يخوض النزال والعبد يقف جانباً»، وكانت هذه اوبرا اخرى.

حرص بيغن على المحافظة على برودة اعصابه، ظاهريا على الاقل. ولدى خروجه من جلسة لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست قال انه ينبغي الانتظار كي نرى ما اذا كانت الانباء التي نشرت صحيحة. وليس لدى اسرائيل تأكيد معتمد على استقدام صواريخ ارض ـ جو سورية الى البقاع اللبناني. وربما اعتقد رئيس الحكومة ان الاسد سيعيد، هذا التصريح، السيف الى غمده. لكن تأكيد هذا الخبر وصل بسرعة. فقد تقيدت حرية عمل طائرات سلاح الجو. ولم تعد اجواء لبنان كما كانت بالأمس. وقد اضطر طيارو سلاح الجو الى توخي الحذر الشديد خلال تنفيذ مهمات التصوير لأهداف المخربين في لبنان. ان التوازن الاستراتيجي الذي بقي قائما منذ دخول السوريين لبنان سنة ١٩٧٦ قد اختل. والتفاهمات التي كانت قائمة في اساس تورط سورية واسرائيل في لبنان، لم تعد لها قائمة. وحتى اسقاط الطوافتين حاذر السوريون المساس بمصالح اسرائيل الحيوية في الجنوب اللبناني، وذلك في مقابل عدم مساس اسرائيل بأهداف سورية وخصوصا في منطقة البقاع. وقد ألغى اسقاط الطوافتين سياسة الخطوط الحمر التي ظلت قائمة منذ سنة ١٩٧٦. واوضحت اسرائيل انها تنوي ردع الجيش السوري وضربه حتى في المنطقة الحيوية بالنسبة اليه. واشتملت الاعتبارات منذ الآن فصاعدا على التزام نحو الاقلية المسيحية في لبنان. اما سورية، فقد اوضحت لاسرائيل بنصبها الصواريخ على الاراضي اللبنانية، انها مصممة على المحافظة على

مصالحها الحيوية ولو بثمن المواجهة المباشرة معها.

وكان من المفروض ان تقدم اسرائيل على الخطوة التالية. وقد تبنى بيغن توصية رئيس هيئة الاركان بمهاجمة الصواريخ السورية في لبنان والقضاء عليها. غير ان حالة الطقس وتدخل الولايات المتحدة شكلا حائلا دون هذه الخطوة الاسرائيلية. وبناءً على طلب من السفير الاميركي، قررت اللجنة الوزارية لشؤون الامن بالاجماع، في ٣٠ نيسان (ابريل)، الاستجابة لطلب الولايات المتحدة بالامتناع عن القيام بأي عمل عسكري لفترة زمنية محددة بأربعة ايام، وذلك من اجل افساح المجال امام الاميركيين لاستنفاد التحرك الدبلوماسي من اجل إبعاد الصواريخ. وقد طلبت اسرائيل ان تلتزم سورية اخراج الصواريخ التي نصبت في لبنان وإنزال قواتها من جبل لبنان. وقررت الحكومة انه في حال اعطاء تعهد كهذا، فتوافق اسرائيل على افساح المجال امام تنفيذ هذا القرار خلال سبعة ايام. وقد امتنع بيغن عن الاعراب عن التشكيك العلني في قرار اسقاط الطوافتين السوريتين، وسئل بعد بضعة ايام من العملية لدى اقتراب يوم الاستقلال: «ألا تعتقد انك اخذت على عاتقك [مسؤولية] اكثر من اللزوم؟» فأجاب: «كلا، على العكس إنني استطيع ان اتكلم عن ذلك بافتخار. عندما اصدر هيرتسل صحيفة المنظمة الصهيونية العالمية، اطلق عليها اسم «هعولام» (العالم) وليس «تسيون» (صهيون) لماذا؟ لقد كتب هيرتسل انه عندما تقوم دولة يهودية ستساعد الزنوج على الانعتاق. ما لنا وللزنوج في افريقيا؟ لكننا نتباهى بذلك. ان الصهيونية امثولة انسانية. وبحسب تقاليدنا من يقف على الحياد يكون كأنه مشترك بنفسه في العمل المخزي. ونحن كيهود لا نستطيع الوقوف على الحياد عندما يهدد الخطر شعبا آخر».

كشف رئيس الحكومة النقاب، في احدى المقابلات عن ان المسيحيين كانوا على وشك الانهيار ببضعة ايام. «ان العملية الاسرائيلية غيرت الوضع. وارتفعت معنويات المسيحيين عاليا، واصبحوا يعرفون الآن انهم لن يكونوا وحدهم».

غير ان الشك تسلل الى القلب رويدا رويدا وبتواضع. وتقرر انجاز الغسيل في غرفة مغلقة. وبادر رئيس الحكومة الى اتفاق مع قادة المسيحيين، وكان هذا الاتفاق قاطعا: في المستقبل سيجري المسيحيون مشاورات مع اسرائيل في كل مرحلة من مراحل عملياتهم العسكرية. وقد وافق قادة المسيحيين على ذلك، وبذلك حققوا مرادهم: لقد اصبحت اسرائيل متورطة في النزاع الداخلي في لبنان بصورة مباشرة.

في ربيع سنة ١٩٨١ كانت شؤون الدولة تدار بيد عليا، وكانت معنويات بيغن عالية. فبعد فترة من الكآبة استمرت خلال اشهر الشتاء، برز تحسن في شعوره العام. فقد تغيرت استطلاعات الانتخابات التي اشارت خلال الاشهر الاولى من السنة الى انخفاض كبير لليكود وارتفاع للمعراج. وظهر تكافؤ بين الكتلتين السياسيتين الكبيرتين، فانتعش الليكود. وبدت الدلائل الواضحة لهذه الظاهرة على محيا رئيس الحكومة اثناء ظهوره في احتفالات «المسؤول» عن المتحدرين من افريقيا الشمالية، باغن ساكر، في القدس. وكان الاستقبال حارا، واضطر شمعون بيريس، زعيم المعارضة، الى مغادرة المكان بعد فترة قصيرة. وشكلت نتائج انتخابات الهستدروت علامة مشجعة اخرى. وعلى الرغم من ان ديفيد ليفي، ممثل الليكود، لم يفز بالاكثرية لكنه حافظ على نسبة مهمة من تأييد الناخبين. وقال مناحم بيغن امام اصدقائه انه عندما سمع بنتائج انتخابات الهستدروت، ادرك ان هناك

احتمالا معقولا لقيادة الدولة خلال فترة ولاية ثانية. وكانت انتخابات الكنيست ستجرى في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٨١.

كلما تعززت ثقة بيغن بنفسه تواترت التصريحات النابية والاساءات الى اشخاص ودول مختلفة. وقد هاجم رئيس الحكومة في مقابلات يوم الاستقلال هلموت شميدت مستشار المانيا الغربية والرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان.

لقد احضر السوريون المزيد من صواريخ ارض ـ جو الى الاراضي اللبنانية. «اخذنا كل ذلك في الحسبان» ـقال بيغن للصحافيين ـ «التفكير اولا، ثم العمل. وعندنا عقل وتصرفنا بعقل». وبدت اسرائيل وسورية على حافة الحرب.

لقد نجحت المحاولة الاميركية الاولى في تبريد الاجواء قليلا. واوضح الناطقون باسم الادارة في الولايات المتحدة ان عملية اسرائيلية في لبنان ستنطوي على كارثة للمصالح الاميركية في المنطقة، وستؤدي الى تدهور شامل، وعرقلة مسار السلام والمفاوضات السياسية، وتعريض الولايات المتحدة لضغوط عربية، واساءة شديدة الى صورتها في نظر اصدقائها العرب، وستبدو انها عجزت عن لجم «زبونها» الاساسي: اسرائيل.

بعد مرور بضعة ايام، اثيرت الحاجة الى سكب المزيد من الماء البارد على مصدر الحريق. وفي ٣ ايار (مايو) وصلت رسالة من رئيس الولايات المتحدة ريغان الى رئيس الحكومة. وقد استدعي مناحم بيغن من جلسة لجنة الخارجية والامن الى مكتبه في الكنيست لاستلام الرسالة. لقد طلب الرئيس الاميركي مهلة جديدة لحلحلة العقدة بين اسرائيل وسورية. وكان سيوفد الى المنطقة وسيطا اميركيا: فيليب حبيب.

وجد رئيس هيئة الاركان، الذي حضر الى مكتب بيغن لابلاغه نقل المزيد من الصواريخ السورية الى لبنان، بيغن في حالة معنوية جيدة. وكانت لا تزال على طاولة رئيس الحكومة الرسالة التي وصلت للتو من الرئيس ريغان، وترجم مضمونها الى رفائيل ايتان، مشددا على جمل مهمة وحيوية بالنسبة الى اسرائيل. ومما ورد في الرسالة:

«ثمة اهمية الآن لأن تعطى المبادرات المختلفة لتسوية الازمة فرص النجاح الكاملة. كما انه لأمر حيوي ان يبذل كل ما يستطاع من اجل عدم تمكين السوفيات من توسيع نفوذهم في الشرق الاوسط. ويبذل السوفيات جهودا حثيثة للعودة الى الشرق الاوسط كعنصر رئيسي. انني اعلم انك تشاركني الرأي في انه ينبغي مكافحة هذه الجهود.

إننا نتفق مع اسرائيل تماما على ان سورية تخطت عتبة معينة في اعمالها الاخيرة. وينبغي صد سورية وإعادة الوضع الى ما كان عليه في السابق. وفي الوقت ذاته، فإن ايماني وطيد، سيدي رئيس الحكومة، بأن علينا استنفاد كل امكان لايجاد تسوية سلمية لهذه المشكلة».

مع تحياتي الشخصية الحارة
المخلص رونالد ريغان.

لقد اجمل بيغن الاوضاع امام رئيس هيئة الاركان بقوله: «لم يسبق ان كانت هناك ادارة اميركية كهذه بالنسبة الى اسرائيل. وها هو ريغان يتفق معنا على أن سورية هي التي تسببت بالازمة. وسنضطر الى احترام الجهود الشخصية التي يبذلها الرئيس ريغان، لكن القرار بشأن التوقف عن الانتظار هو في ايدينا». وقد لمّح بيغن الى تلك

الايام الغابرة، التي انتظرت فيها الحكومة عشية حرب الايام الستة انه لم يقصد التلعثم او الانتظار طويلا.

دعيت اللجنة الوزارية لشؤون الامن الى الانعقاد مرة اخرى، وقررت تمديد المهلة الزمنية للجهود الدبلوماسية، والترحيب بالوسيط الاميركي ومبعوث رئيس الولايات المتحدة، فيليب حبيب.

اخذ الاميركيون يدركون رويدا رويدا ان هناك مناحم بيغن اثنين: الاول رئيس الحكومة الذي يبحث عن حل للأزمات بالطرق السياسية؛ والثاني؛ الناطق البارز باسم حركة حيروت الذي يوزع التهديدات في كل حدب وصوب مع تغطية عملية محدودة. ولدى ظهور بيغن في مباني الامة في القدس هدد السوريين قائلا انه اذا لم يخرجوا صواريخهم من لبنان نتيجة الجهود الدبلوماسية التي تبذلها الولايات المتحدة، فسيصدر الامر الى سلاح الجو بالتحرك. «وينبغي ألا يكون هناك اي شك في ذلك، وأنتم تعلمون ان سلاح الجو يحقق انجازات عندما يتحرك».

لقد اقيم في مركز العمليات في وزارة الخارجية الاميركية بواشنطن فريق عمل خاص كان يتابع التطورات بين اسرائيل وسورية، كما هي العادة خلال الازمات الدولية. ودعي اناتولي دوبرينين، السفير السوفياتي لدى الولايات المتحدة، الى وزارة الخارجية، حيث اشاروا امامه الى خطورة الوضع. وحرصت واشنطن على تأكيد انها تنظر بجد الى تهديدات مناحم بيغن.

كُلِّف فيليب حبيب، الدبلوماسي الاميركي المتقاعد، من مواليد لبنان وترعرع في حي يهودي في نيويورك والذي قال انه صهيوني قبل ان يعرف معنى هذه الكلمة، كُلِّف محاولة انتزاع الفتيل من النار.

وصل حبيب الى دول المنطقة بلا آراء مسبقة ووراءه ماض مجيد في السلك الخارجي الاميركي وخبرة بإدارة مفاوضات بين فرقاء متنازعين (فييتنام الشمالية وفييتنام الجنوبية).

وبينما كان فيليب حبيب في طريقه الى دمشق بالطائرة الخاصة التي وضعها الرئيس ريغان في تصرفه، اخذ يراجع التفاصيل التي جمعت له عن الشخصية التي كان يجتمع اليها. فقد كان لدى الادارة في واشنطن صورة ايجابية للرئيس حافظ الاسد. وكتب عنه هنري كيسنجر وزير الخارجية السابق في مذكراته «انه اكثر شخص اثارة للاهتمام التقيته في الشرق الاوسط». وهو من ابناء الطائفة العلوية التي هي اقلية في سورية، واستمر في الاحتفاظ بزمام الحكم اكثر من اسلافه. وقد اظهر في الماضي تعاطفا معينا مع الولايات المتحدة، ووفى بوعوده خلال الاتصالات بكيسنجر بعد حرب يوم الغفران في محادثات اتفاقيتي فصل القوات بين جيشه والجيش الاسرائيلي. وهو يتمتع بروح الدعابة وبثقة شديدة في النفس.

استقبل الاسد فيليب حبيب في قصر الرئاسة في ضاحية ابو رمانة بدمشق. وبعد تبادل التحيات، دعا الرئيس السوري الوسيط الاميركي الى الجلوس على الاريكة المصنوعة من المخمل الاخضر من طراز لويس الرابع عشر، الموضوعة في صدر قاعة طويلة لا نوافذ لها. وكانت الجدران مزينة بستائر المخمل الاخضر المصقول. وكانت الزينة الوحيدة في القاعة هي لوحة لمعركة حطين، التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين الذين جاؤوا من اوروبا الى الاراضي المقدسة.
وجلس الى جانب الرئيس وزير الخارجية خدام، ومساعدون، ومترجمة، ومساعد آخر كان يدون محضر الاجتماع.

تحدث فيليب حبيب عن الحاجة الى اعادة الوضع الى ما كان عليه في لبنان. وقال ان ازالة الصواريخ لن تهدد استمرار وجود القوات السورية في لبنان، لأن الاسرائيليين لم يعتدوا على الجيش السوري في لبنان خلال السنوات الخمس منذ وجوده على اراضيه.

رد الاسد بحزم فقال: إن الولايات المتحدة وافقت على دخول الجيش السوري لبنان سنة ١٩٧٦، ولا استطيع ان اعرض جنودي هناك لهجمات جوية من جانب اسرائيل من دون ان اوفر لهم وسائل دفاع ملائمة. واسأل وزير الخارجية، الجنرال هيغ، هل يمكن الابقاء على جنود بلا حماية. واذا أُطلقت عليهم فيجب ان يردوا بإطلاق النار. فكيف تطلبون مني اعادة الوضع الى ما كان عليه قبل اسقاط الطوافتين. هل تستطيع ان تعيد لي الطوافتين اللتين اسقطهما الاسرائيليون، وجنودي الذين قتلوا في الحادثة؟».

فأجاب الوسيط الاميركي: «هذا ما لا استطيع ان افعله، لكن سنمنع وضعا يقتل فيه المزيد من الجنود. واستطيع تحقيق هذا الامر».

الاسد: «إن اسرائيل هي التي سببت في التصعيد بإسقاط الطوافتين، فلا تأتوا إلي الآن بطلب لا معنى له سوى الابقاء على جنودي بلا حماية. إن نصب الصواريخ في لبنان جزء من شرعية وجودنا في لبنان. وقد تم بموافقة الحكومة في بيروت. واذا طلب الرئيس سركيس إخراج الصواريخ من لبنان، فسأستجيب لطلبه».

اعتبر فيليب حبيب كلام الاسد هذا طرف الخيط الذي يؤدي الى حل الازمة. فبعد فترة وجيزة سيتقدم رئيس لبنان رسميا بطلب الى سورية، ويعلن انه نشأ وضع يتيح إزالة الصواريخ لأنه لم تعد ثمة حاجة اليها. وبشعور من التفاؤل المتحفظ توجه حبيب الى القدس.

اخذ مقررو السياسة في البلد يلهون بطرح مقترحات تتعلق بكيفية انزال الاسد من الشجرة الشاهقة التي تسلقها. لكنهم اضافوا خطأً الى خطأ. فالأسد تمسك بالشجرة، التي اخذ يتأرجح على فروعها هؤلاء الذين قرروا تعميق تورطهم في لبنان.

«إنني سعيد بمشاهدتك اشكرك على مجيئك»، بسط مناحم بيغن يديه بحركة عناق نحو مبعوث رئيس الولايات المتحدة على مدخل مكتبه في مقر الكنيست في القدس. وبينما كان يقود حبيب الى زاوية الجلوس في الغرفة، امام عدسات عشرات الصحافيين ومايكروفوناتهم، يتجاذب اطراف الحديث مع السفير الاميركي سام لويس: «إن وزارة الخارجية ستفاجأ بما يجري هنا. لدينا استطلاعات للرأي تشير الى ذلك. هنواصل التحادث بعد الانتخابات ايضا». (كان بيغن غاضبا على السفارة الاميركية في تل - ابيب لانها، على حد علمه، قوّمت في تقارير ارسلتها الى واشنطن ان احتمالات عودة المعراخ الى قيادة الدولة افضل من احتمالات الليكود للبقاء في الحكم).

استمرت المحادثة بين حبيب وبيغن ساعة ونصف الساعة، عرض خلالهما الوسيط الاميركي مضمون اجتماعه الى الاسد. ولدى خروجهما، اجمل بيغن نتيجة المحادثة بقوله: «دار بيننا نقاش استمر ساعة ونصف الساعة». أما حبيب فقد فضل صيغة مختلفة، «لم يدر نقاش بيننا، وإنما دار بحث». لقد طلب الوسيط مهلة زمنية اخرى لاستنفاد التحرك الدبلوماسي من اجل إخراج الصواريخ السورية من لبنان. وفي تلك الاثناء، سكب الرئيس ريغان المزيد من المبررات على بيغن. ففي رسالة اخرى بعث بها اليه بتاريخ ٧ ايار (مايو) ١٩٨١، عاد فطلب من رئيس الحكومة تمكين فيليب حبيب من

مواصلة السعي لتسوية الازمة بالطرق الدبلوماسية.

لقد تعاون بيغن فعلا مع الاميركيين، واحجمت اسرائيل عن مهاجمة الصواريخ. غير ان رئيس الحكومة استعاض الإحجام عن القيام بأي عمل بالادلاء بتصريحات متشددة. وكان يواجه انتخابات الكنيست التي كانت تقترب.

لقد طلبت كتل المعارضة إجراء نقاش في الكنيست الملتئم في شأن الازمة مع السوريين في لبنان، ونالت مرادها. وكان المستشارون المقربون من مناحم بيغن وحدهم يعرفون سلفا ان رئيس الحكومة سيفاجىء المجلس. وعلى الرغم من إلحاح حبيب في تخفيف اللهجة والامتناع عن الاساءة الى هيبة الاسد وكرامته، خاطبه بيغن من فوق منبر الكنيست قائلا: «رئيس سورية، لقد سرْتَ الى شفير الهاوية. تراجع. وهذا لن يحط من قدرك، إننا لا نريد امتهانك، إن هذا سيرفع من قدرك لأنك ستخدم السلام، ولا شرف اعظم من ذلك. ولذا تراجع عن خافة الهاوية، واسحق الصواريخ، وانزل جنودك من على جبل صنين، وأعد الوضع الى ما كان عليه، والانسانية بأسرها ستتنفس الصعداء وسيكون لديها سبب وجيه للامتنان لك. هذه هي دعوتي لك بصدق وبلا موارية، انها كلمة عدو الى عدو. اعد الوضع السابق وكل شيء سيعود الى مكانه بسلام».

لقد ترك بيغن المفاجأة الى وقت لاحق. حتى ان انصاره البارزين ذهلوا من كشف السر: «في ٣٠ نيسان (ابريل) اصدرت تعليمات الى رئيس هيئة الاركان بتدمير ثلاث بطاريات صواريخ ارض - جو إس. آي - ٦ نصبها السوريون في لبنان. وتحددت ساعة الصفر للعملية الاولى في الحادية عشرة من قبل الظهر، لكن قبل نصف ساعة من ذلك

قيل لي ان الطقس لا يسمح بتنفيذ العملية، وتأجلت هذه حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. لكن العملية تأجلت مرة اخرى بسبب الطقس. وهذا ما حدث عندما تحددت ساعة الصفر للعملية الثالثة بعد الظهر. ولذا تأجلت العملية الى اليوم التالي، وعندها الغي الامر بناء على طلب من رئيس الولايات المتحدة».

اتهم قادة المعارضة بيغن بالكشف عن أسرار الدولة، وانعدام المسؤولية الوطنية عبر معالجته للأزمة. والكثيرون منهم شكروا حالة الطقس.

ظهر رئيس سورية مرة اخرى انه لاعب جيد ومتزن. وروى كريس فان دير كلاو، وزير خارجية هولندا الذي حضر الى القدس بصفته رئيسا مناوبا لوزراء خارجية السوق الاوروبية المشتركة ان الاسد وسورية لا يريدان الحرب مع اسرائيل اذا امتنعت هذه عن مهاجمة الصواريخ التي نصبت في لبنان.

اتجه بيغن الى الولايات المتحدة، عبر رسالة الى الرئيس ريغان اعرب فيها عن شكره على رسالة الرئيس التي تلقاها في ٧ ايار (مايو) «إنني اعرف السيد حبيب منذ سنوات عديدة»، كتب بيغن في رسالته، «إنه احد الدبلوماسيين الاكثر حنكة وكفاءة الذين التقيتهم في حياتي. والاهم من ذلك، انه انسان رائع، سيدي الرئيس». وجاء ايضا في الرسالة، «من واجبي ان اؤكد مرة اخرى المسؤولية الجسيمة التي نأخذها على عاتقنا هنا في كل يوم، بسبب تأجيل العملية الحتمية في حال فشل الجهود الدبلوماسية. وفعلا، فإن من شأنها ان تفشل. لقد بدأنا بثلاث بطاريات صواريخ، ونحن نواجه اليوم (الساعة ٨,٠٠ بالتوقيت المحلي) اربع عشرة بطارية، بينها اربع بطاريات خطرة جدا،

اي بطاريتان إس. آي - ٢ وبطاريتان إس. آي - ٣، وماذا سيحدث غدا؟ انني لا اخجل من الاعتراف امامك، سيدي الرئيس، بأنني منزعج جدا وافكاري كلها عند ابنائنا الطيارين الشبان. هل سيكون البعض منهم، وهم شبان رائعون، عرضة للموت او التعذيب؟ اشكرك سيدي الرئيس، على اهتمامك وجميع جهودك ودعمك»، بهذا انهى بيغن رسالته.

ان من وجد صعوبة في سبر اغوار تحركات رئيس الحكومة كان بشير الجميل. «لماذا تنتظرون؟» سأل الممثلين الاسرائيليين الذين كان يجتمع اليهم باستمرار. «لماذا لا تهاجمون الصواريخ السورية؟».

كان بشير يريد ان يعرف مسبقا خطط اسرائيل ليعد نفسه جيداً لمواجهة تطورات المستقبل. وكانت كلمة «التنسيق» كلمة سحرية في المحادثات مع الاسرائيليين. وكان الجميل مغنيا بالاجتماع الى ممثل من اسرائيل وفي اقرب وقت. غير ان زعيم الكتائب الشاب لم يغلق ابوابا اخرى. فاجتمع سرا الى محمد الخولي، مستشار الرئيس الاسد ورئيس استخبارات سلاح الجو السوري سابقا، والذي كان الاسد قائده في الماضي. وأدرك بشير انه ينبغي الا يضع البيض في سلة واحدة. وطلب منه السوريون اعلان قطع علاقاته بإسرائيل، وقرر الانتظار لاعطاء الرد كي يرى كيف ستتصرف اسرائيل.

وجد فيليب حبيب صعوبة في التوفيق بين المواقف المتباينة والمتناقضة لممثلي الفئات العديدة في لبنان. وتحدث ساعات طويلة في بيروت الى القادة المسنين، وممثلي الجيل الوسط في القيادة اللبنانية. وقال له الشيعة انهم يؤيدون الرئيس سركيس والجيش اللبناني الذي يخضع لسلطته. وكان وليد جنبلاط، الزعيم الدرزي

المقرب من السوريين، متحفظا. وقال لحبيب انه سيرفض السماح بدخول الجيش المنطقة الدرزية في جبال الشوف في اطار خطة تعزيز السلطة المركزية في لبنان. وحتى لو دخلت وحدات فإنه ينبغي ان يكون الضباط من اصل درزي. اما كميل شمعون، الزعيم المسيحي، فقد اتخذ موقفا بدا لحبيب انه غير واقعي. وكان يعتقد ان اسرائيل ستدخل لبنان و«ستنظف»، على حد تعبيره، الدولة من الوجود السوري لتقدم اليه زعامة لبنان. وطلب شمعون من حبيب ان ينقل الى السوريين مطلبا انذاريا بمغادرة لبنان خلال ستة اشهر. وكان رد حبيب: «إن السوريين سيسخرون مني اذا تصرفت وفق ما تقترح».

قبل ان يعود حبيب الى دمشق لاجتماع آخر مع الاسد، اتضح ان السعوديين وافقوا على الاشتراك في الجهود الدبلوماسية لحل الازمة في لبنان. واجتمع ممثل الملك الامير عبد العزيز ونائب قائد الحرس الوطني، الى رئيس سورية. وكان جوهر الرسالة التي كانت على لسان الاسد معروفة: إن سورية لم تغير الوضع في لبنان بل المسؤول عن ذلك هو اسرائيل، وليست لدى سورية اية نوايا عدوانية تجاه اسرائيل. كما ان نصب الصواريخ كان وسيلة دفاعية. وتسعى سورية للمساعدة على اعادة النظام الى لبنان.

وقف حبيب في مواجهة العقدة اللبنانية: صواريخ سورية في البقاع، دولة مقسمة بين اجنحة وتيارات متعددة، رئيس عاجز عن فرض سلطته إلا على قسم ضئيل من الاراضي اللبنانية، حصار سوري على البلدة المسيحية زحلة، وتهديد اسرائيلي للعمل ضد الصواريخ، اذ ان دلالته هي تدهور لا يستطيع احد ان يتكهن بنتائجه. وأخذ الوسيط يدرك انه ليس ساحرا، وليس في قبعته ارانب. لكن للتحركات الدبلوماسية دينامية خاصة بها. وأخذت الاجتماعات تتوالى. وصار

حبيب داخلا وخارجا من مكتبي الاسد وبيغن واليهما.

وفي ١٤ ايار (مايو) التقى حبيب وبيغن في مكتب وزير الدفاع بتل ابيب. ومرت ثلاثة اسابيع على نصب الصواريخ السورية على الاراضي اللبنانية. واخذ رئيس الحكومة يكشف عن نفاد صبره بصورة تظاهرية. وروى له حبيب انه اجتمع الى الاسد في حديث استمر ساعتين وخمس واربعين دقيقة. وحضر معظم الحديث وزراء ومستشارون، وجلس حبيب مع الاسد على انفراد مدة خمسة واربعين دقيقة. وأصر الرئيس السوري على رأيه: الصواريخ ستبقى في مكانها. «إنني لا استطيع قبول مطالب اسرائيل التي طرحت بصورة علنية؛ فهذا املاء قائم على فرضية ان اسرائيل قادرة على ان تفعل في لبنان ما يحلو لها، وان تطير في اجوائه، وان تتدخل في شؤونه الداخلية. واذا وافقت على ذلك»، قال الاسد وفق ما ابلغه حبيب، «وكأنني وافقت على ان لاسرائيل الحق في ان تقرر ما يجري في لبنان، بما في ذلك تحديد نوع الاسلحة التي يجب ادخالها او عدم ادخالها. لن أخرج الصواريخ من لبنان، وهذا سيكون بمثابة هزيمة معنوية لي»، بهذا اجمل حبيب ما اقتبسه من كلام الاسد.

«بأية لهجة تكلم الاسد؟» سأل بيغن بينما كان حبيب مسترسلا في الحديث.

حبيب: «قيل هذا الكلام بهدوء. فالرئيس السوري لا يرفع صوته بصورة عامة، ويتكلم دائما بلباقة وبصورة صحيحة».

بيغن: «هل اشترك وزير خارجيته خدام في الحديث؟»

حبيب: «خدام يصمت بحضور الاسد، إلا إذا سأله رئيسه».

بيغن: «هل ذكر الاسد دعوتي له من على منبر الكنيست؟»

حبيب: «لم يذكر ذلك بصراحة. ولكنه قال لي مرة واحدة انه يعلم تماما ما يقال في اسرائيل والقدس. وقال الاسد خلال الحديث، انه لو اجرى استفتاء عاماً في بلده فيما يتعلق بالسؤال عما اذا كان يجب اخراج الصواريخ من لبنان، لكان الجواب: كلا. واجبته على ذلك، ان الشعب لا يُستفتى وإنما يقاد. وتوجهت الى الاسد بسؤال عما اذا كان مستعدا لاخراج الصواريخ اذا طلب منه رئيس لبنان ذلك، كما صرح في لقائنا الاول. «لقد كان هذا اعلانا مبدئيا، هذا ما قاله الاسد باختصار ولم يضف. لقد فشلت في مهمتي».

سارع بيغن الى تشجيعه وكأنه اراد بذلك ان يشجع نفسه: «لقد فعلت تقريبا المستحيل. وكانت خطواتك رائعة. ان خطوتك بالحصول على موافقة سركيس، ليطالب الاسد بإخراج الصواريخ خطوة رائعة حقا. ولكن عليك ان تتذكر ان التحركات دينامية».

في اليوم ذاته الذي التقى فيه بيغن وحبيب اسقط السوريون في اجواء لبنان طائرة اسرائيلية بلا طيار. وشعر بيغن بالقلق من الانباء التي حصل عليها من رئيس هيئة الاركان بشأن تحركات القوات السورية الى ما وراء البقاع، وتمركز فرقة اخرى في مرتفعات الجولان. ورداً على ذلك، حركت اسرائيل بعضا من قواتها.

وفي نهاية الحديث اشار بيغن الى خريطة اعدت في مكتبه في وقت سابق. وكان لدى اسرائيل معلومات تفيد ان الاسطول السوفياتي تحرك وانتشر جنوبي قبرص، بالقرب من منطقة الازمة. وتقرر في واشنطن التلويح للروس بإصدار تعليمات الى الاسطول السادس بالابحار نحو دول المنطقة، وتراجعت السفن السوفياتية الى الوراء.

«ماذا سنقول للصحافيين؟»، سأل بيغن حبيب في نهاية احد اللقاءات خلال شهر ايام (مايو)، فأجاب حبيب: «لن اقول كلمة واحدة».

بيغن: «اقترح ان نقول لهم ان الجهود لايجاد حل سلمي للأزمة مستمرة، ونكتفي بذلك».

كانت معركة انتخابات الكنيست التاسع في ذروتها. وأكثر رئيس الحكومة من الظهور في المناسبات العلنية. وكان شعاره: الحزم تجاه الخارج، والاعتدال والمراعاة إزاء الداخل. وفي احدى المناسبات التي تحدث فيها امام عشرات الآلاف من المتعاطفين معه، توجه مرة اخرى الى الرئيس السوري مطالبا اياه بإخراج الصواريخ، وإلا فإن رفول ايتان ويانوش (قائد المنطقة الشماليةآنذاك) سيقومان بالمهمة. وكان المستمعون اليه يحبون مثل هذه التصريحات. أما الآخرون، موظفو المؤسسة الحاكمة ورجال وزارة الخارجية والصحافيون الذين تخوفوا من هذا الاسلوب، فلم يأبه بيغن لهم. واشارت استطلاعات الرأي الى تكافؤ بين كتلتي المعراخ والليكود، وكان السباق ثنائيا. وكانت كل نسبة واحد بالمئة من شأنها ان تقرر مصير الحكم، وعمل اريئيل شارون بنشاط حثيث من اجل فوز الليكود. واستطاع بحكم وظيفته كرئيس للجنة الوزارية لشؤون الاستيطان، ان يزرع في خريطة يهودا والسامرة عشرات المستوطنات. ومن مكتبه نقل مساعدوه بصورة منظمة عشرات الآلاف من البشر الى المناطق تحت شعار «نحن على الخريطة». وأراد شارون مواصلة السباق وانهاءه، والوعد في جيبه: أراد حقيبة الدفاع. وسوف يقول بيغن لمقربيه، مع مرور الايام: إن أريك داهمه في لحظة ضعف. وكان السؤال الذي طرح للحسم: كيف يمكن ضمان فوز الليكود في الانتخابات. ولم يترك شارون بين يدي بيغن اي خيار. وفي حديث بينهما في غرفة مغلقة، قطع رئيس الحكومة وعدا على نفسه امام شارون بتعيينه في منصب وزير الدفاع في حكومته الثانية، اذا ما كُلف بتشكيلها. وكان بيغن يُكن التقدير

لشارون كجنرال ورجل عسكري، وكان يتخوف منه، والغى مفعوله كرجل سياسة. «انه انسان ذو طبيعة سامة». هكذا وصفه بيغن لعدد من مقربيه. لكن شارون انتهج مع بيغن التكتيك نفسه الذي منحه علامات عالية: اختيار اللحظة الملائمة. وقبل انتخابات الكنيست، كان شارون في الواقع يتولى حقيبة وزارة الدفاع، تلك الوظيفة التي عمل من اجلها بلا كلل. وتسرب «السر» الى المؤسسة العسكرية والامنية. واخذت الوية الجيش تؤم مكتب شارون، وكان يخيل احيانا ان رجال الجيش هم الأوائل لمحو الماضي، وطمس الآراء، وتفضيل المنفعة.

تظاهر رئيس الحكومة بالحزم مع الاعداء عبر النشاط ضد منظمات المخربين في لبنان، وبدعمه اللامحدود للوزير شارون، وذلك على الرغم من واقع ان المخربين حرصوا كثيرا على المحافظة على ضبط النفس خلال فترة الازمة بين اسرائيل وسورية. واستند المخربون الى معلومات حصلوا عليها من مصادر اميركية وغيرها، تفيد ان اسرائيل ستقوم بعملية واسعة النطاق ضدهم، تؤدي الى تصفية معاقلهم في لبنان. وقد اقنع ياسر عرفات رفاقه بتوجيه المنظمات الفلسطينية نحو الانصراف الى ترسيخ مواقعهم في الجنوب اللبناني وتحصينها. وفي اطار هذه العملية حصل المخربون على صواريخ إس. آي ـ ٣ ونصبوها في منطقة الدامور.

تقرر في جلسة اللجنة الوزارية لشؤون الامن، التي دعيت الى الاجتماع في أواخر شهر ايار (مايو)، توصية رئيس هيئة الاركان بإصدار التعليمات الى سلاح الجو بمهاجمة قواعد المخربين، التي نصبت فيها صواريخ الـ إس. آي ـ ٣.

تركت الطائرات وراءها أهدافا مدمرة. وكانت الاصابات دقيقة.

وظهر الخراب في الصور التي اخذت على الارض وعرضت على شاشات التليفزيون في الولايات المتحدة. كما اصيبت نساء وأطفال ايضا.

اخذ يسود وزارة الخارجية الاميركية شعور بأن الولايات المتحدة تتعامل مع زبون صعب المراس. وبعد تحليل الاحتمالات تقرر ارسال تحذير الى القدس. وقبل ساعة واحدة من دخول السبت، في ٢٣ ايار (مايو) ذهب السفير الاميركي لويس الى منزل رئيس الحكومة في القدس.

«يا صديقي، الكلام لك»، قال بيغن للسفير لويس. وبعد ان اعتذر عن مجيئه في ساعة متأخرة قال لويس إن «وزير الخارجية هيغ يود ان يبلغك بأنه ينبغي لدولة اسرائيل عدم الاقدام على المزيد من الاعمال كتلك التي اقدمت عليها، فيما عدا الحالات التي تمارس فيها ضدكم اعمال استفزازية لا تترك لكم من إمكان سوى الرد. وعلمنا من التقارير التي حصلنا عليها من الحكومة اللبنانية ان العمليات العسكرية التي قامت بها اسرائيل تسببت بوقوع اصابات كثيرة، بينها عدد كبير من النساء والاطفال. اننا نستغرب نطاق العملية. ويشعر الوزير هيغ بأن استمرار مهمة فيليب حبيب تتطلب بضورة حيوية ان تكون كمية اطلاق النار في الحد الادنى. وفي تقديرنا، ان نجاح حبيب المحتمل انما هو اكثر اهمية من الفائدة المحدودة التي ستجنونها من تنفيذ هجمات من النوع الذي قمتم به». واشتكى السفير الاميركي، كما هو متوقع، من ان اسرائيل فاجأت الولايات المتحدة بحجم العملية ونتائجها على السواء.

اصغى بيغن، على حد قوله، «الى كل كلامه بحذر شديد». غير

ان الموضوع الذي قرر رئيس الحكومة طرحه في تلك المناسبة التي اتيحت له كان مختلفا تماما. «إن سورية ستهاجم اسرائيل»، قال بيغن جازما امام السفير الذي اصيب بذهول من هذا التصريح. «إن لدى اسرائيل معطيات بأن السوريين جندوا خلال الفترة الاخيرة آلاف الجنود. وبعد التشاور مع رئيس هيئة الاركان تقرر تجنيد نحو خمسمائة من اصحاب التخصص في مجالات حيوية. وأود ان تنقل هذا الخبر الى وزير الخارجية والى الرئيس ريغان»، اختتم بيغن كلامه.

«هل مصدر الخبر موثوق به؟»، سأل لويس بتردد.

«اجل، بحثت ذلك مع قادة الجيش»، اجاب بيغن بلا تردد.

«سأنقل ذلك اذن على الفور»، قال لويس.

وبالنسبة الى الشكوى الاميركية، اعرب بيغن عن دهشته اذ انه سبق ان قال لحبيب ان اسرائيل ستضرب المخربين، من اجل الحؤول دون الاعتداء «على نسائنا واطفالنا». واجاب حبيب انه لا يعالج هذا الامر. وبالنسبة الى مسألة الابعاد والحجم، «ماذا فعلنا؟»، سأل بيغن ببلاغة، «ضربنا الليبيين. ماذا يفعلون في لبنان؟ لقد جاؤوا مع صواريخ ومدافع مضادة للطائرات ليغطوا المخربين بمظلة جوية ويمنعوا طائراتنا من استقصاء وتتبع النشاط الذي تخططه «فتح» ضد اسرائيل». وتابع بيغن يقول: «لم اسمع من المعلومات التي تلقيتها من رجالنا عن اصابة نساء واطفال. لقد ابلغوني بإصابة مقاتلين ليبيين ورجال منظمة جبريل (القيادة العامة) واذا حدثت اصابة نساء واطفال بصورة عفوية فإنني آسف على ذلك. وسوف اسأل رئيس شعبة الاستخبارات عما اذا كانت لديه معلومات اخرى عن هذا الموضوع.

شاهدت اليوم في فيلم صورة طائرات سلاح الجو التي كانت تعمل في منطقة الدامور وكيف ان الصواريخ حاولت اصابة طائراتنا. وينبغي لوزير الخارجية، الذي كان جنرالا في الجيش وخبيرا بالشؤون العسكرية، ان يتفهم المخاطرة الكبرى بشأن الصواريخ، التي هي بالنسبة الينا مسألة حياة او موت».

إن المهمة التي قام بها فيليب حبيب والتي لم تأت بأية نتيجة شجعت بيغن والحكومة على العمل ضد صواريخ المخربين في لبنان بلا خوف من تدهور في العلاقات مع الولايات المتحدة. «ليس لدينا تحديد لمدة مهمة فيليب حبيب»، قال بيغن للويس. «لكن على الرغم من ذلك فإن كل ما حصلنا عليه حتى الآن من هذه المهمة هو الكلام فقط. إننا لا نرى نتائج فعلية. وهناك حدود لصبرنا. ويدخل المنطقة المزيد من الصواريخ. فهل علينا أن نضع قيودا على انفسنا، وننتظر حتى يطلقوا النار على اطفالنا؟ إننا لا نقبل هذه الفلسفة. بل سنضربهم قبل ان ينفذوا مكيدتهم ضدنا. وذكر وزير الخارجية انني امثل امة جرى القضاء على مليون ونصف المليون من اطفالها، ومن واجبي المحافظة على حياة اطفالنا. وما فعلناه منطقي تماماً بحسب تعريف (كانت) وتعبيراته».

لقد كان السفير الاميركي بحاجة الى الكثير من الهواء ليضخه الى رئتيه عندما يأتي ليرد على هذا الكلام العاطفي والمعروف الذي يصدر عن بيغن. ومن خلال التعبير عن التفهم لغضب بيغن، قال لويس إنه «ينبغي الحؤول دون قتل النساء والاطفال». وأضاف ان الخبراء العسكريين في السفارة الاميركية قالوا ان الصواريخ الموجودة بالقرب من الدامور نصبت قبل وقت طويل وان مداها لا يتجاوز ١٥ ألف قدم، في حين ان طائرات التصوير الاسرائيلية تحلق على ارتفاع اعلى كثيرا

ولا تستطيع هذه الصواريخ اصابتها. وقد بدت ضرورة الهجوم الذي قامت به طائرات سلاح الجو في نظر الاميركيين مشكوكا فيها.

لقد تمكن بيغن من اطلاع لويس على اجتماعه المتوقع في ٤ حزيران (يونيو) مع الرئيس المصري انور السادات في شرم الشيخ. وامتنع بيغن عن التلميح الى القرار بشأن قصف المفاعل النووي العراقي، بالقرب من بغداد امام سفير الولايات المتحدة. وهذه مفاجأة اخرى احتفظ بها للأميركيين.

لقد تبين ان بشير الجميل شاب متبصر، فعندما اتضح له ان اسرائيل لا تأخذ بنصائحه، وان السوريين سيظلون مركز قوة اساسيا في لبنان، وسّع الاتصالات بالوسطاء السعوديين والممثلين السوريين في بلده.

في ٧ حزيران (يونيو) اجتمع وزيرا خارجية العربية السعودية والكويت الى بشير في محاولة لاقناعه بقطع علاقاته بإسرائيل. وسيحصل في مقابل ذلك على وقف اطلاق نار مع السوريين، وموافقتهم على تخفيف قواتهم بالقرب من بيروت، ورفع الحصار عن زحلة. وقد ضغط السكان المسيحيون على بشير للاستجابة لمطالب الوسطاء من الدول العربية والحاحهم. وقد بحثت هيئة عربية دعيت «لجنة المتابعة» في الوضع، وقررت العودة الى الاجتماع في بيت الدين عاصمة لبنان القديمة. وكانت مكانة بشير الجميل في خطر. إذ توصل المسيحيون في بيروت الشرقية الى استنتاج ان بشيرا يقوم بعمل يفوق طاقته.

قرر الاسد رئيس سورية، بصورة قاطعة انه اذا كان بشير معنيا بالاشتراك في عملية «المصالحة الوطنية»، اذ يعني هذا المحافظة على

نصيبه من كعكة السلطة، فعليه ان يودع الرئيس سركيس رسالة يعلن فيها قطع علاقاته بإسرائيل.

عرضت معضلة بشير بحدة خلال اللقاءات مع ممثلين اسرائيليين. وقد اتخذ القرار بعد ان اعطى رئيس الحكومة موافقته على صيغة الرسالة التي كانت ستسلم الى رئيس لبنان. وأكد الجميل ان هذه خطوة موقتة، «ظاهرية» فقط، وان التحالف الاستراتيجي بين الشعبين، المسيحيين في لبنان والاسرائيليين، سوف يستمر. فقد ادرك زعيم الكتائب في قرارة نفسه، بطبيعة الحال، انه ينبغي احيانا التراجع بضع خطوات قبل مواصلة التقدم خطوة الى الامام.

في ٢ تموز (يوليو) ١٩٨١، وقع اتفاق زحلة. وقام الاتفاق، في الاساس، على مبدأ العودة الى الوضع الذي كان قائما في السابق، بما في ذلك عودة المقاتلين المسيحيين من غير سكان زحلة، وعودة السوريين الى المواقع التي كانوا يحتفظون بها قبل نشوب الازمة. وقد تنازلت الكتائب معبرة بذلك عن ميزان القوى الحقيقي بينها وبين السوريين. وتم التوصل الى الاتفاق بوساطة السعوديين لا بواسطة الولايات المتحدة وممثلها فيليب حبيب.

طلب قادة الكتائب من ممثلي «الموساد» والجيش الاسرائيلي تقليص نشاطهم في جونية، وخفض عدد الممثلين وعدد الدورات للمتدربين، وباختصار: تقليص ظهورهم على الارض. واصبحت الطوافات الاسرائيلية فجأة ضيوفا غير مرغوب بهـا. غير ان الرسائل التي ارسلت الى البلد [اسرائيل] بقيت ودية: «انكم ثروتنا الاستراتيجية الوحيدة. إننا بحاجة الى فترة من الوقت للتفكير، وهذا ما نفعله الآن. ولا تطلبوا منا الحضور الى ان يتوضح الوضع».

لم ينجح فيليب حبيب، اذن، في إخراج الصواريخ السورية من لبنان. وبينما كانت الولايات المتحدة تعالج الازمة الاسرائيلية - السورية وقعت عليها العملية الاسرائيلية ضد المفاعل النووي العراقي بالقرب من بغداد كالرعد في يوم صاف ومن دون اشراكها في القرار نفذت اسرائيل خطوة كادت تحدث، كما افترضوا في واشنطن، خللا في علاقات الولايات المتحدة بالدول العربية، وتصويرها على انها عاجزة عن التأثير على اسرائيل، التي كانت متماثلة معها الى حد بعيد. وردت الادارة على ذلك بتعليق تزويد [اسرائيل] بأربع طائرات إف - ١٦ كتلميح وسابقة لحالات تعمل فيها اسرائيل خلافا لتوصياتها، او لحالات تفاجئها بها.

إن العملية في العراق أزالت تهديدا على امن اسرائيل، لكنها اثارت تهديدات جديدة، منها انها عرضت مرافق حيوية من الدرجة الاولى لخطر دائم لهجوم محتمل. إن تدمير المفاعل أخّر دخول الخيار النووي الى المنطقة لكنه لم يلغه. وقد ساءت علاقات اسرائيل بالادارة الاميركية، وازداد التخوف من ردة فعل اسرائيلية غير مراقبة. وفي ضوء قيود سياسية داخلية في اسرائيل تم الحؤول، في هذه الاثناء، دون الهجوم الاسرائيلي على الصواريخ السورية في لبنان، لكن اطفال اسرائيل نجوا - على حد قول رئيس الحكومة - من تهديد آخر هو التهديد النووي من جانب العراق.

إن التوصية التي رفعت في صيف سنة ١٩٨١ الى رؤساء الدوائر التي تعالج شؤون دول الشرق الاوسط في احد اجهزة الحكم، حملت بشرى التغيير: المزيد من التدخل فيما يجري في لبنان. ينبغي تقليص اعتماد الكتائب على اسرائيل. اذ انه بواسطة المساعدات التي حصلت عليها من اسرائيل اصبحت الكتائب تشكل عنصرا مهما من شأنه ان

يعرض التوازن الطائفي في الدولة للخطر. ان الاعتماد على اسرائيل اصبح مكشوفا، وهذا من شأنه ان يقود الى المزيد من توتر العلاقات بسورية. وللولايات المتحدة اهتمام متزايد بالكتائب وبشير الجميل. وكان فيليب حبيب وراء التوصية بزيادة المساعدات لبشير. وكان الافتراض هو انه بهذه الطريقة يمكن كبحه.

لقد تقرر في واشنطن دعوة بشير الى زيارة الولايات المتحدة. ومن اجل التوازن، ارسلت دعوات الى شخصيات اخرى تقود تيارات وطوائف في لبنان. وخلال شهر آب (اغسطس)، زار بشير واشنطن وترك انطباعا مؤثرا لدى مضيفيه، ومنهم رؤساء الاستخبارات الاميركية، وقيل في الولايات المتحدة: «لم يعد متهورا وزعيم عصابة، بل اصبح شابا ناضجا وخصوصا بحكم منصبه كزعيم للكتائب». وبدا بشير خلال زيارته رجل سياسة يسعى لتوحيد القوى في بلده تحت قيادته. وظهر انه يعشق الموسيقى الكلاسيكية، ويحب الكتاب، وخصوصا سِيَر حياة رؤساء الدول. وقال لمضيفيه انه قرأ مذكرات شارل ديغول، وريتشارد نيكسون، وموشيه دايان. وتحدث بالعربية والانكليزية والفرنسية.

كانت للسفير الاميركي في بيروت روبرت ديلون، علاقات وثيقة بقادة الطوائف والفئات والميليشيات في لبنان. وكان بشير احد رواد منزل السفير. وخلال احد لقاءاتهما انضم الى الحديث ضيف، وكان هذا روبرت أماس الذي قدم نفسه بأنه محلل كبير للسياسة الاميركية في الشرق الاوسط، وهذا لقب تمويهي لوظيفته الحقيقية في وكالة الاستخبارات الاميركية (سي. آي. إيه). فقال أماس لبشير: «قررنا مساعدتك، وخلال فترة قصيرة سيصل الى بيروت ممثل يبقى على اتصال بك. وسنرسل ايضا ممثلا الى جونية، يحمل لقب مدير مشروع

المساعدات الاميركية. ما هي طلباتك؟» سئل بشير، الذي اعتبر حقا الاستعداد الاميركي لتوثيق الروابط به خطوة ايجابية وانجازا ذا دلالة سياسية.

لم تكن الطلبات متواضعة وقد دهش الاميركيون عندما طلب الجميل من الولايات المتحدة مساعدته على تدريب لواء يشكل من الكتائب، والعمل على إعداد عدد من رجاله لقيادة لواء وكتيبة، وارسال طوافات له، وقطع بحرية. وعلى صعيد الوسائل القتالية، طلب بشير من الاميركيين تزويده بدبابات وصواريخ ضد الدبابات، وما شابه ذلك. وابلغه الاميركيون بأنهم سيرسلون له آلاف القذائف من نوع آر. بي. جي ـ ٧، وآلاف القذائف المدفعية من نوع ١٢٠ملم، وذخيرة روسية ـ ١٢٢ ملم، واجهزة لاسلكي، ومعدات عسكرية، علاوة على تفاصيل اخرى سيتم الاتفاق عليها في المستقبل.

كان في استطاعة بشير ان يلخص نتيجة الاجتماع مع ممثلي الولايات المتحدة في قرارة نفسه، بأنه حتى مع الاميركيين يمكن عقد صفقات جيدة.

جرت انتخابات الكنيست التاسع في ظل التوتر الامني. وبقيت وحدات الجيش الاسرائيلي في حالة استنفار تحسُّباً لمفاجآت من جانب سورية، وللرد على اعمال المخربين. وقد فاز مناحم بيغن بأكثرية ضئيلة. وكانت الوظيفة التي وعد بها اريك شارون على وشك التحقيق. وكان شارون وايتان على وشك العمل معا مرة اخرى كما جرى في الماضي عندما كان شارون قائد لواء مظلات ورفول قائد كتيبة في اللواء. وسوف يقود اللقاء الجديد الرجلين الى تحقيق امنيات مشتركة على صعيد الامن.

الفصل الرابع: وقف اطلاق نار أم لا؟

أمضى رئيس الحكومة خمس دقائق في احد الملاجىء المزدحمة في كريات شمونة. وكانت هذه [الدقائق] كافية. كان ذلك خلال ساعات الصباح المبكرة من يوم ٢٣ تموز (يوليو)، ١٩٨١. لم يكن سكان البلدة الشمالية في انتظار مناحم بيغن لأنهم ببساطة لم يكونوا في البلدة، إذ ان معظمهم غادرها خلال القصف الصاروخي والمدفعي الذي قام به المخربون، وسافروا الى المستوطنات في وسط البلد وجنوبه. وفي اليوم التالي، ابلغ بيغن الوسيط الاميركي فيليب حبيب بموافقته على وقف اطلاق النار مع منظمات المخربين في لبنان.

ادى تفقد المنطقة الى تغيير، اذ يستحيل تجميل الواقع بالخطب الرنانة والحماسية. لقد وصل مناحم بيغن الى كريات شمونة مرتديا بزة زرقاء اللون وقميصا ياقته مفتوحة، برفقة كبار قادة الجيش الاسرائيلي. واراد ان يزور السكان في الملاجىء. والقلائل الذين كانوا في البلدة عاملوه بعطف، واتهموا قادة المعراخ بما يجري في كريات شمونة. فعندما دخل الملجأ في وسط الحي الذي يحمل اسم يغآل آلون، هتفت احدى النساء بصوت عال: «جاء مسيحنا». والتفت اليها بيغن سائلا: «ألست خائفة؟ ألستم خائفين ايها الاطفال؟». وكان الجو في

الملجأ حارا ومضغوطا. واخذ بيغن يتصبب عرقا. «اين الهواء؟» سأل مرافقيه. وهتف الحاضرون ابتهاجا.

خرج بيغن من الملجأ ليجتمع الى اعيان البلدة الذين استخدموا مرافق الطوارىء في المستوطنة المهجورة. وقال رئيس الحكومة في نهاية زيارته الخاطفة هذه: «رأيت المعنويات عالية جدا هنا. وهناك ما ومن يمكن التفاخر به. المعنويات هي الاساس. يذكرونني بقولي انه لن تسقط صواريخ كاتيوشا على كريات شمونة. إن هذا تحريف لكلامي: لقد قلت انه سيأتي يوم لن تسقط بعده صواريخ كاتيوشا على كريات شمونة. الصبر، سيأتي يوم لن تسقط بعده صواريخ كاتيوشا على كريات شمونة».

إن منظر البلدة المهجورة ترك لدى بيغن انطباعا مفجعا. فمنذ بداية الشهر جرى تبادل لاطلاق نار عنيف بين اسرائيل ومنظمات المخربين في لبنان. وقصفت مستوطنات الشمال - كريات شمونة ونهاريا، والكيبوتسات والموشافيم - وامضى السكان معظم اوقاتهم في الملاجىء.

من الصعب الرد على سؤال من بدأ. كان تطور الاحداث على النحو التالي: ليلة ٢ تموز (يوليو) ١٩٨١ تطور اطلاق نار مدفعي على نطاق واسع بين المخربين وقوات حداد في منطقة الجنوب اللبناني. وبدأ المخربون اطلاق النار، بمن فيهم «فتح»، فأطلقوا نحو تسعين قذيفة وصاروخ كاتيوشا على قرى الجنوب اللبناني.

في ١٠ تموز (يوليو)، هاجمت طائرات سلاح الجو أهدافا للمخربين في الجنوب اللبناني وعلى امتداد الساحل حتى جوار طرابلس وأعلن الاستنفار في صفوف المخربين، وفي اليوم ذاته ردوا

بقصف مستوطنات الشمال بالمدفعية.

في ١٢ من الشهر نفسه، عادت طائرات سلاح الجو فهاجمت اهدافا للمخربين في الجنوب اللبناني. ورد المخربون في الليلة التالية بإطلاق الكاتيوشا على المطلة.

في ١٤ تموز (يوليو)، هاجمت طائرات سلاح الجو ثلاث قواعد للمخربين في الجنوب اللبناني. وخلال الهجوم انطلقت طائرات سورية لاعتراض الطائرات الاسرائيلية فأُسقطت منها خلال معركة جوية طائرة ميغ - ٢١.

وفي ١٤ تموز (يوليو)، اجتمع المجلس العسكري الاعلى للمخربين في بيروت، وقرر الرد بكل ما أوتيت منظمات المخربين من قوة على ضرب تجمعاتهم.

وخلال الاسبوع الذي اعقب قرار المجلس الفلسطيني، قصف المخربون ٣٣ مستوطنة اسرائيلية ٨٨ مرة، وأطلقوا عليها ١٢٣٠ صاروخ كاتيوشا وقذيفة مدفعية تسببت بمقتل ثلاثة اشخاص وجرح ٥٩ شخصا.

زرعت طائرات سلاح الجو الدمار في بيروت. فهوجمت قيادات المخربين في العاصمة اللبنانية، وجسور نهر الليطاني ومعابره (جسر القاسمية)، والزهراني (جسر الزهراني). وقتل في هذه العمليات ١٠٠ مخرب تقريبا، وجرح نحو ١٣٠. وقتل ٢٠٠ مواطن وجرح ٨٠٠ نتيجة هجمات سلاح الجو.

كانت هذه النتيجة المباشرة لسياسة عمليات المبادأة الوقائية ضد منظمات المخربين. إن النشاط العسكري الذي تحول الى حرب

استنزاف دفع منظمة التحرير الفلسطينية الى التمركز بهدف الاقلال من خسائرها. وقررت منظمة التحرير تسريع وتيرة التسلح بوسائل القتال المدفعية، بهدف تهديد مستوطنات الشمال، وكان الافتراض ان يمنع هذا التهديد الهجوم المدبر على قواعد المخربين، او يحمل اسرائيل على التروي على الاقل. واضيف الى ذلك التفكير في ان هجمات سلاح الجو على قواعد المخربين انما هي إعداد لعملية برية واسعة النطاق لاحتلال الجنوب اللبناني. وقد توصل المخربون الى ان لا فائدة من ان يضبطوا النفس، فاسرائيل قررت تصفيتهم في مطلق الاحوال.

جزمت اوساط التقويم الرسمية في البلد بعد حرب الاستنزاف القصيرة بين اسرائيل والمخربين، بأن منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن هي المبادرة الى القتال في تموز (يوليو)، بل جاءت ردات فعلها في اعقاب المبادرة الاسرائيلية. واعتقدت اوساط التقويم ان منظمة التحرير نشطت للدفاع عن نفسها. وبعد ان بادرت اسرائيل الى مهاجمتها، عمل المخربون ليبرهنوا انهم يملكون القدرة على مقاتلة اسرائيل من موقع المساواة. واستهدفت اعمال القصف المدفعي المكثف لمستوطنات الشمال ضرب المدنيين وايذائهم، ردا على غارات طائرات سلاح الجو في لبنان. وارادت منظمة التحرير ان تبرهن ان اسرائيل عاجزة عن إلحاق الهزيمة بها، وانها تشكل عنصرا عسكريا مهما وقويا، وانها صاحبة قدرة دفاعية وردعية على السواء.

لقد برهنت منظمات المخربين للسكان الفلسطينيين في لبنان ان في قدرتها الانتقام من اسرائيل على اعمالها ضدهم. ومن اجل تجنب المشكلات مع الفئات الاخرى في لبنان، تعهد زعماء المخربين بدفع تعويضات مادية للمتضررين نتيجة الاعمال الاسرائيلية.

عندما تعزز لدى المخربين الاحساس بتحقيق انجاز عسكري، اتجهوا نحو استخلاص مكاسب سياسية بإظهار المرونة والمصداقية في نظر الرأي العام الدولي، وخصوصا في نظر الولايات المتحدة.

لقد فقدت اسرائيل في نظر السوريين شيئا من صورتها الرادعة، التي تعززت بعد ضرب المفاعل النووي في العراق. وظهرت إسرائيل كأنها تجد صعوبة في تنفيذ تهديداتها وترجمتها بسرعة الى قوة ردعية عسكرية في لبنان، حتى ضد المخربين. ولاحظ السوريون انعدام الاجماع الوطني في اسرائيل إزاء مدى التزامها وتورطها في لبنان.

كانت العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة، خلال الايام التي كانت فيها طائرات سلاح الجو تسقط قنابلها على احياء بيروت، تتفاعل في الخفاء فقد طلب الرئيس ريغان وقف النشاط الجوي، وقال لمستشاريه بعبارات نابية: «إن هذا الرجل، بيغن، يصعّب علينا مسألة مساعدته». ومن اجل وقف التصعيد في لبنان، وخصوصا ازاء التخوف من ان اسرائيل قد تقدم على غزو جنوب هذه الدولة، تقرر ارسال فيليب حبيب مرة اخرى الى دول المنطقة، والاتصال بالامم المتحدة للتوصل الى وقف لاطلاق النار بين اسرائيل والمخربين.

لقد تعقدت مهمة فيليب حبيب بسبب طلب اسرائيل، التي اعتمدت على «تفاهم مكتوب» مع الولايات المتحدة، عدم اجراء اتصال مباشر بمنظمة التحرير الفلسطينية الى ان تعترف هذه الاخيرة بإسرائيل. وقد احتج بيغن على الولايات المتحدة بسبب قرارها تعليق تزويد بلده بطائرات إف - ١٦.

«هذه هي اول مرة تُنتهك فيها شروط العقود منذ ان وقعت اسرائيل عقودا لتزويدها بالسلاح مع الولايات المتحدة. والولايات المتحدة لا

تفي بشروط التزويد في موعده»، قال بيغن محتدا واضاف: «في الوقت الذي يتمتع فيه المخربون بتزويد منتظم ومستمر لكميات كبيرة من الاسلحة من الاتحاد السوفياتي وليبيا، كان في الامكان ان نتوقع من الولايات المتحدة ان تتقيد بالعقود التي وقعتها».

لقد حاول ألكسندر هيغ، وزير الخارجيّة، ان يشرح في رسالة الى رئيس الحكومة بعث بها مع فيليب حبيب، دوافع الرئيس الى تعليق تزويد الطائرات. فقد تأثر الرئيس نتيجة القصف الاسرائيلي بطائرات اميركية الصنع، وذلك عشية انعقاد مؤتمر قادة الدول الغربية في اوتاوا بكندا.

تمحورت [ابحاث] جلسات الحكومة المستمرة حول سؤال هل ينبغي الاستجابة لدعوة الولايات المتحدة الى وقف اطلاق النار في الشمال. فقد تحدث وزير الدفاع العتيد اريئيل شارون، ورئيس هيئة الاركان رفائيل ايتان، ومناحم بيغن طبعا، عن ضرورة «إنهاء المهمة»، واحتلال الجنوب اللبناني حتى مشارف بيروت، وتدمير بنية المخربين التحتية، والاحتفاظ بالمنطقة الى ان تتولى قوة دولية المسؤولية عن النظام في المنطقة. ولا يجوز السماح للمخربين بالإفادة من وقف اطلاق النار، اذ سيعودون الى تنظيم صفوفهم في ظله، قال بيغن وشارون وايتان الى اعضاء الحكومة. واستخدم رئيس الحكومة ايضا حججا شرعية، العنصر القوي عنده. وقال بيغن في حديث الى فيليب حبيب، ان اسرائيل لا تستطيع الموافقة على وقف اطلاق النار مع منظمات الارهاب، لأن وقف اطلاق النار - على حد تعبيره - «إنما هو مصطلح قانوني يلزم دولتين. فلن يعود الهدوء الى لبنان ما دام المخربون متمركزين في المناطق التي سيطروا عليها بالقوة» - اكد بيغن.

إن الذين على دراية بعقلية بيغن والذين يعرفون طبعه وتحركاته، يعرفون ايضا متى يكون مستعدا للتنازل. والصيغة هي على النحو التالي: كلما كانت تصريحاته اكثر تشددا وكلامه اكثر حدة اقتربت لحظة اتخاذه قرار التساهل والتنازل.

في جلسة للحكومة عقدها بيغن في ٢١ تموز (يوليو) لمناقشة اقتراح فيليب حبيب بوقف اطلاق النار على الحدود الشمالية، بعد ان ابلغ عرفات قائد اليونيفيل، الجنرال كالاهان، باستعداده لوقف اطلاق النار، روى بيغن قصة ضابط يدعى ماينرتساغن، خدم في احدى الوحدات بقيادة الجنرالي اللنبي، الذي احتل ارض - اسرائيل [فلسطين] سنة ١٩١٨. فقد درج ماينرتساغن على التحدث عن نوع من اليهود «المرتعدين من الخوف» باقتباس رئيس الحكومة. «نحن سادتي»، قال بيغن لوزرائه، «لن ننتمي الى نادي اليهود المرتعدين من الخوف، وعلينا ألا ننفعل». وفي اليوم ذاته، خولت الحكومة فيليب حبيب «إجراء اتصالات برئيس لبنان، من اجل احلال السلام بين اسرائيل ولبنان». وتجنب ذكر منظمة التحرير الفلسطينية وكأنها لم تكن. لكن الجميع كانوا يعلمون من هو المقصود في الدعوة الى احلال السلام «بين اسرائيل ولبنان».

وفي اقل من يوم، وفي رحلة خاطفة قام بها حبيب الى الرياض في العربية السعودية وفي العودة الى القدس، تم ترتيب وقف لإطلاق النار بين اسرائيل والمخربين في لبنان. وظهر يوم الجمعة، ٢٤ تموز (يوليو)، خرج حبيب برفقة رئيس الحكومة لمقابلة الصحافيين الذين كانوا ينتظرون عند مدخل مكتب رئيس الحكومة، وأعلن الوسيط الاميركي: «ابلغت الرئيس ريغان انه ابتداء من الساعة ١٣,٣٠ اليوم، سيتوقف اطلاق النار على حدود لبنان، في الجو والبحر والبر».

وتضمن الاتفاق بندا آخر يمنع القيام بأي نشاط عسكري ضد منطقة حداد في الجنوب اللبناني. واعتُبر ذلك في القدس انجازا لأن هذه اول مرة تعترف فيها الولايات المتحدة بمكانة خاصة للمنطقة التي تقع تحت سيطرة حداد. لكن لم يكن لمثل هذا الاعتبار اي اساس لدى الاميركيين. وهذا وهم صغير آخر.

لم يكد المداد يجف عن الاتفاق حتى بدأ الطرفان حملة اعلامية. ففي القدس اكد الناطقون الحكوميون ان «الحكومة خولت فيليب حبيب التكلم مع صاحب البيت، حكومة لبنان، وليس مع مخلوق غير شرعي غزا بيتا ليس ملكه، وهو منظمات المخربين. فلا حرب بيننا وبين صاحب البيت»، اضاف الناطقون، «وإنما مع الساكن غير الشرعي». وفي امكان الاميركيين تفسير موافقة اسرائيل كما يشاؤ ون. فكل فريق حر في تفسيره. ، غير ان اسرائيل لم تنكفىء، بل استجابت لطلب الرئيس ريغان».

وقبل يومين فقط من ذلك، بدت القدس انها مستعدة لشن حرب على الولايات المتحدة ايضا.

وفي واشنطن حظي حبيب بالتجميد. وسجل الانجاز لمصلحة الرئيس ريغان، الذي عمل في خدمة السلام. ولمزيد من الحيطة واصل الاميركيون تعليق تزويد اسرائيل بالطائرات ليضمنوا استمرار وقف اطلاق النار.

وتنفس المخربون الصعداء في مقار قياداتهم في بيروت. اذ ان وقف اطلاق النار سيساعد على ترميم البنية التحتية التي تضررت، وجمع الاشلاء، واعادة التنظيم عسكريا وسياسيا.

كانت اسرائيل في صيف سنة ١٩٨١ مستنزفة على حدودها

الشمالية. ووجد سكان المدن والمستوطنات صعوبة في الصمود امام الضغط المكثف للقصف، في حين ان كل شيء بدا طبيعيا على مسافة سفر ساعتين وأقل، تل ابيب. وقد ادرك بيغن هذه الامور خلال تلك الزيارة في كريات شمونة في ٢٣ تموز (يوليو). وافترض ايضا ان وقف اطلاق النّار مسألة موقتة فحسب، ومثله جزم شارون ورئيس هيئة الاركان.

خلال جلسة الحكومة، التي سبقت قرار الاستجابة للدعوة الى وقف اطلاق النار، قال اريئيل شارون انه اذا تقرر قبول المقترحات الاميركية، فينبغي ربط ذلك بعدة شروط: ان ينسحب المخربون الى مسافة نحو اربعين كيلومترا عن الحدود الشمالية، وألا يعطى لهم مزيد من السلاح يتيح لهم إعادة التأهب للقيام بعمليات ضد اسرائيل، وان معنى وقف القتال في لبنان هو وقف الارهاب ضد اسرائيل في كل مكان ـ من الاردن وسورية ومن كل دولة اخرى. وطلب شارون ان يرد في الاتفاق ان اسرائيل ستكون حرة في مواصلة طائرات سلاحها الجوي القيام بدوريات استطلاعية في الاجواء اللبنانية وكان الاتفاق الذي تم التوصل اليه في النهاية قصيرا وغامضا، وترك مجالا لعدة تفسيرات.

وفي صيف سنة ١٩٨١، كان من الواضح لكل مراقب حيادي ان التدهور الى اعمال عدائية جديدة قد تأجل الى وقت محدود. وبقيت مادة التفجير قائمة. وقد خرقت الميليشيات المسيحية، بقيادة بشير الجميل، توازنا حساسا في لبنان، وهي تستمد التشجيع من المساعدات الاسرائيلية التي بقيت تتدفق عليها. وادراكا من المسيحيين ان اسرائيل لن تتخلى عنهم أخذوا يمنون النفس بأماني سياسية وطموحات في السيطرة على لبنان وطرد السوريين منه. ومن الصعب الافتراض ان اساس هذه الطموحات كان ايمانهم بقوتهم

فحسب. فقد ادرك بشير، من اللقاءات المتعددة التي عقدها مع رئيس هيئة الاركان إيتان ومع ممثلي «الموساد» والجيش الاسرائيلي، انه «من المسموح» له بأن يقوم رويدا رويدا، وبغطاء قوة رادعة اسرائيلية، بأعمال قضم الوجود السوري تقود الى توسيع مناطق سيطرته. ولم يواجه المسيحيون على الاطلاق خطر الفناء من قبل السوريين. وكان هذا يشكل تعارضا مطلقا مع استراتيجية سورية وسياستها في لبنان، اللتين تقضيان بأن سيطرتها لن تقوم إلا على دولة متعددة الطوائف، وفق الاسلوب المعروف «فرِّق تسد». فقد كان هدف اعمال سورية ضد المسيحيين في لبنان اعادتهم الى حجمهم الطبيعي ليس إلا.

لقد كرّس رجال «الموساد» انفسهم لخدمة تحركات الكتائب، ونقلوا الى البلد بلا تردد او تحفظ، الرسائل والمطالب والحاجات. اذ ان الساعات الطويلة التي امضوها في صحبة الكتائب، والحفلات والمحادثات الودية، اثرت بالضرورة في قدرة قسم من الاسرائيليين الذين كانوا مسؤولين عن الاتصالات على إصدار الأحكام الصحيحة. وإلا يصعب تفسير ما حدث. فالكتائب اعلنت مرات لا حصر لها ان لديها خطة ذات ثلاث مراحل لتحرير لبنان: اولا، توحيد السكان المسيحيين في تجمع واحد ذي قوة وحظوة؛ ثانيا، تغيير الحكم في لبنان وإعادة توزيع مراكز القوى في الدولة؛ وأخيرا، ضم الجنوب اللبناني الى السلطة المركزية.

ان تورط اسرائيل المكثف في لبنان حمل المسيحيين على الاعتقاد أن شرط اقامة التعايش في لبنان يكمن في اقامة مظلة صواريخ تدافع عن قواتهم وتحميها. وآمنوا بقدرتهم على جر اسرائيل الى تحقيق طموحاتهم.

لقد كانت هناك مواد اخرى قابلة للانفجار، كانت توحي في صيف سنة ١٩٨١ بأن الحرب في لبنان هي مسألة وقت. ولم تكن في حكومة مناحم بيغن الثانية شخصيات معتدلة تتمتع بأي نفوذ. فقد شغرت اماكن موشيه دايان وعيزر وايزمن ويغئيل يدين وشموئيل تمير. وبرز بدلا منهم اريئيل شارون، يسانده رفائيل ايتان رئيس هيئة الاركان. وقال الوزير زفولون هامر مرة ان كل من في الحكومة انداد، لكن نظرا الى الظروف فإن رئيس الحكومة ووزير الخارجية ووزير الدفاع اكثر اهمية، فهم اول من يعلم، وهم اول من يتخذ القرار السريع عندما يطلب منهم ذلك.

وادرك من في واشنطن بسرعة، ان الابتهاج بنجاح حبيب كان سابقا جدا لأوانه. واستطاعت الولايات المتحدة الامساك بغطاء مرجل الضغط الذي يغلي. وكتب هيغ في برقية ارسلها الى مناحم بيغن: «ان وقف اطلاق النار هش، ويجب تعزيزه. ونحن مقتنعون بأننا بمساعدتك الحيوية نستطيع التقدم ومواصلة تثبيت الظروف التي ستؤول الى المزيد من الامن لمواطني اسرائيل ولبنان كما عاشوا خلال السنوات الاخيرة».

وجزم من في واشنطن ايضا بأن على بيغن التعاون معهم. وكانت التوصية التي رفعت الى الرئيس والتي شارك في وضعها اوساط الادارة كافة: ينبغي دعوة رئيس حكومة اسرائيل الى واشنطن في اسرع وقت ممكن، لاجراء محادثات مع رئيس الولايات المتحدة والمسؤولين في الادارة، من اجل تنسيق التحركات في المستقبل وتوضيح عدد من الموضوعات التي شغلت بال قادة دول المنطقة.

الفصل الخامس : العدّ العكسي

شاهد البعض الدموع تترقرق في عيني مناحم بيغن. . وكان حرس الشرف، المكون من ممثلي قطاعات الجيش الاميركي، كافة، يقف بصمت والموسيقى العسكرية تعزف نشيد «هتكفا» (الامل). ووقف رئيس الحكومة على منصة صغيرة الى جانب رئيس الولايات المتحدة رونالد ريغان، في حديقة البيت الابيض الخلفية بواشنطن. «تأثرت، لكن عيناي لم تدمعا»، رد بيغن فيما بعد على سؤال لأحد الصحافيين تابع زيارته للولايات المتحدة في ايلول (سبتمبر) ١٩٨١.

عملت الادارة الاميركية كل ما في وسعها لاضفاء البهجة على رئيس حكومة اسرائيل خلال اقامته في عاصمة الولايات المتحدة. وفي الحقيقة كانت الدولتان تمران بذروة الخلافات العلنية في الرأي بشأن نية الولايات المتحدة بيع السعودية طائرات تجسس من نوع «ايواكس»، لكن كان ثمة امل في واشنطن بأن تنتهي الزيارة بسلام. وتقرر في المناقشات التي سبقت المحادثات مع بيغن الامتناع عن ممارسة اي ضغط بشأن المستوطنات في المناطق المحتفظ بها، ذلك الموضوع الذي يرغب بيغن دائما في التطرق اليه مستندا الى تعليلات

تاريخية ودينية بشأن حق اسرائيل في انشاء مستوطنات في يهودا والسامرة وقطاع غزة. كان الهدف من دعوة رئيس الحكومة الى الولايات المتحدة هو التوصل الى تنسيق شامل بين الدولتين لتجنب اوضاع تفاجىء فيها اسرائيل صديقتها وتربكها امام العالم بأسره. وكان من المفروض ان يعرض ريغان على اسرائيل توقيع مذكرة تفاهم وتعاون استراتيجي بين الدولتين، هذا الموضوع الذي يرجح فيه الاتفاق في الرأي على الخلاف، اذ كان بيغن وريغان متفقين في الرأي بشأن موقفهما المعادي للاتحاد السوفياتي ودوره في خلق مناطق ازمات في انحاء العالم.

بعد وقت قصير من وصول الوفد الاسرائيلي برئاسة بيغن الى واشنطن، والذي كان يضم وزير الخارجية يتسحاق شمير، ووزير الدفاع اريئيل شارون، ووزير الداخلية الدكتور يوسف بورغ، الذي كان يترأس فريق الوزراء في مفاوضات الادارة الذاتية لسكان المناطق، دعا رئيس الحكومة الى اجراء مشاورات في مقر الضيافة الفخم «بلير هاوس». وقد فوجىء الحاضرون بما رواه بيغن انه عندما كان في طريقه من مطار اندريوز بالقرب من واشنطن قال له وزير الخارجية، ألكسندر هيغ، ان الولايات المتحدة تنوي ان تعرض على اسرائيل تخزين ادوية عندها وضمادات ومواد طبية اخرى، في اطار التعاون الاستراتيجي الذي سيعقب توقيع المذكرة. وتنوي الادارة الاميركية استخدام المستشفيات في اسرائيل من اجل القوات الاميركية التي سترسل الى المنطقة في اوقات الازمات.

«هذا كل شيء؟» ـ سمع صوت اريئيل شارون، الذي كان اول المعلقين. فشعر بإهانة شخصية وقومية من الاقتراح الاميركي المقلص

للتعاون الاستراتيجي. «عليك ان ترفض الاقتراح رفضا باتا» ـ قال شارون.

كان رأي بيغن مختلفا. فعلى حد قوله ثمة قيمة كبيرة للوثيقة السياسية التي ستوقعها الدولتان. وفي الامكان مناقشة التفاصيل مع مرور الوقت. ان الوثيقة مهمة بحد ذاتها وستشكل برهانا على ان اسرائيل لم تعد معزولة بل شريكة لأكبر دولة عظمى. وفعلا، تم التوصل الى تفاهم في شأن القضايا العالمية. أما بالنسبة الى قضايا المنطقة فالامر مختلف. فقد هاجم بيغن وشارون، في كل اجتماع، نية الادارة الاميركية بيع طائرات «ايواكس» الى العربية السعودية، وعرضا امثلة مجسمة لاخطار متوقعة لأمن اسرائيل نتيجة لذلك: ستكون مطاراتها مكشوفة، وستنقل المعلومات التي ستجمعها الطائرات الى الدول العربية، والعربية السعودية هي في حالة حرب مع اسرائيل واشتركت قواتها في المعارك ضد اسرائيل جميعا.

شرع المسؤولون في الإدارة الاميركية يظهرون استياء من الحملة الاعلامية التي شنها ضيوفهم ضد نوايا الرئيس. واعتقد من في البيت الابيض ان بيغن سيكتفي بالاعراب عن الاحتجاج خلال الحديث مع الرئيس. غير ان رئيس الحكومة اختار سبيلا آخر. وكان حذراً في تصريحاته خلال اجتماعه فقط الى زعماء مؤتمر الرؤساء للمنظمات اليهودية، في فندق «وولدورف استوريا» بنيويورك. وعندما سأله مضيفوه عن المساعدة التي يستطيعون تقديمها الى اسرائيل بشأن «الايواكس»، أجاب بيغن باسطا يديه وملوحا بهما نحو الجانبين: «لا يحق لي تقديم النصح لكم بما ستفعلون. انتم مواطنون احرار في الولايات المتحدة». واشتدت حرارة النقاش بشأن «الايواكس» وهزم اللوبي الاسرائيلي، وزودت العربية السعودية بالطائرات وتضعضع امن

الاسرائيلي، وزودت العربية السعودية بالطائرات وتضعضع امن اسرائيل.

خلال زيارة واشنطن، استطاع مسؤولو الادارة الاميركية الوقوف على التغيير الاساسي الذي حدث في حكومة مناحم بيغن الثانية. برز وزير الدفاع اريئيل شارون انه الناطق الرئيسي. وكان حقا «نجم» الرحلة. وعرض بلغته الانكليزية الاساسية، التي كثيرا ما كان يتباهى بها («لغة فلاح» ـ على حد قوله)، المعركة ضد الارهاب الدولي على انها هدف مشترك بين اسرائيل والولايات المتحدة، الى جانب اهداف اخرى كثيرة. هز مناحم بيغن برأسه موافقاً. كانت العلاقات بينهما اكثر من عادية. وخلافا للتكهنات لم تتحقق التخوفات من شارون بعد. كان وزير الدفاع يبلغ رئيس الحكومة بكل حدث، مهما يكن تافها، في مجال وزارته. وكان رئيس الحكومة يستشيره ويمنحه الدعم الكامل. في بداية ولاية شارون قال بيغن انه لو كان عليه الاختيار بينه [شارون] وبين عيزر وايزمن لاختار شارون؛ «في نظري ان الحصان غير الاليف افضل من الحصان الكسول. ويمكن لجم الحصان غير الاليف اذا شد اللجام في الوقت الملائم».

لقد فضل رئيس الحكومة عدم الخوض في التفاصيل خلال محادثاته في الولايات المتحدة. فقد ترك التفاصيل للمداولات بين شارون وهيغ. وقد عرض وزير الخارجية الاميركي، بصورة عامة، مشروعا اعدته الادارة لحل المشكلات في لبنان، تلك القنبلة الموقوتة التي ينبغي محاولة نزع فتيلها. كانت اهداف هذا المشروع العسكرية: تثبيت وقف اطلاق النار، زيادة قوة اليونيفيل بهدف ضمان عدم تجدد الاعمال العدائية في الجنوب اللبناني، وابعاد الاسلحة الثقيلة على جانبي الحدود على مراحل. وكانت الاهداف السياسية للمشروع:

تعزيز الحكم المركزي في لبنان، وتجديد الوفاق الوطني، وانسحاب السوريين على مراحل، وتشجيع الحكومات الاخرى على تقديم الدعم العسكري والمدني للبنان (الفرنسيون اعربوا عن موافقتهم على ذلك). وبدأ الاميركيون يتفحصون امكان تنفيذ مشروع تجريبي (Pilot Project) لتعزيز امن لبنان الداخلي.

لقد عرضت ثلاث مراحل لتنفيذ هذا المشروع: كان من المفروض تنفيذ المرحلة الاولى خلال شهر ايلول (سبتمبر)، والتي تقتضي ان تحصل الامم المتحدة على موافقة المخربين على نقل المدافع الثقيلة والراجمات وصواريخ الكاتيوشا جميعا من منطقة اليونيفيل الى المناطق الواقعة شمالي نهر الليطاني. كما تحصل الامم المتحدة على موافقة منظمات المخربين على عدم ادخال اسلحة ثقيلة الى جنوبي الليطاني.

لقد طلب من اسرائيل المساهمة بنصيبها في الصفقة الشاملة التي اقترحها الاميركيون، بأن تسحب من الجنوب اللبناني جميع العتاد الذي ربطت الولايات المتحدة تزويد اسرائيل به بعدم استخدامه لأهداف هجومية ـ مدافع ١٥٥ ملم و١٧٥ ملم المتحركة. كما طلب من اسرائيل الكف عن القيام بطلعات استطلاعية جوية على ارتفاع منخفض فوق الجنوب اللبناني. ووصف الاميركيون هذه الطلعات الاستطلاعية بأنها «اعمال استفزازية»، وطلب من اسرائيل مواصلة تحليق طائراتها على ارتفاع شاهق.

كانت المرحلة الثانية في المشروع الاميركي اخراج الاسلحة الثقيلة التابعة للمخربين من منطقة صور، وتحديد وجود قوات منظمة التحرير الفلسطينية في المنطقة الواقعة تحت سيطرة اليونيفيل بـ ١٥٠ ـ ٢٠٠ رجل، وادخال وحدات من الجيش اللبناني وقوات الامم المتحدة

الى منطقة صور. وكان من المفروض ان تعود قوة الامم المتحدة الى قلعة الشقيف التي طردها منها المخربون الذين سيطروا على المنطقة. طلب من اسرائيل خلال هذه المرحلة اخراج قواتها من الجنوب اللبناني، واقناع الرائد سعد حداد بإخلاء بعض مواقعه وإلغاء معارضته دخول جنود من الجيش اللبناني، بالإضافة الى الجنود الـ ١٥٠٠ الذين كانوا في المنطقة. كان الاميركيون مزمعين على التوجه، في تلك المرحلة، الى سورية لتوافق ضمن اطار المشروع الشامل على حل الازمة في لبنان والشروع في اخراج قواتها من لبنان بدءاً ببيروت.

في المرحلة الثالثة من المشروع كان من المفروض بممثلي الجيش الاسرائيلي استئناف لقاءاتهم بممثلي الجيش اللبناني، وقيام المخربين بإخلاء قلعة الشقيف وتسليمها لمراقبين من الجيش اللبناني، وزيادة عدد مواقع اليونيفيل، وانسحاب السوريين من منطقة مطار بيروت. وأمل الاميركيون بأن يخرج السوريون، في نهاية هذه المرحلة، صواريخ ارض ـ جو من منطقة البقاع، ويبعد المخربون والرائد حداد مدافعهم الثقيلة الى خارج المدى الذي يعرض الفريقين للخطر، وتنقل المدافع الى اشراف الامم المتحدة، وينسحب السوريون من الاراضي اللبنانية كافة باستثناء منطقة البقاع ـ على ان يحدث ذلك كله قبل معركة انتخابات الرئاسة في لبنان، في صيف سنة ١٩٨٢.

وبحث شارون مطولا في المشروع الاميركي مع ألكسندر هيغ. غير ان المشروع لم يعرض على الحكومة قط. فقد قدم وزير الدفاع مشروعا مختلفا لحل الازمة في لبنان: في المرحلة الاولى تبتعد قوات منظمة التحرير الفلسطينية اربعين كيلومترا عن الحدود مع اسرائيل. وجاء في المشروع قيام السوريين بسحب قواتهم من منطقة بحيرة

القرعون. وتقوم قوات اليونيفيل باحتلال المناطق التي تجلو عنها منظمة التحرير. ولم يكن مطلوبا من اسرائيل، التي لا تحتفظ بقوات دائمة في الجنوب اللبناني، ان تعطي شيئا في المرحلة الاولى التي اقترحها شارون.

ادرك من في واشنطن انه اذا كان شارون يعارض المشروع الذي طرحوه، فمعنى ذلك ان اسرائيل ترفض الموافقة عليه. اذ كان وزير الدفاع في صيف سنة ١٩٨١ الرجل القوي في السلطة الاسرائيلية. ولذا، فإن المشروع الاميركي لم يناقش قط في اي اطار في اسرائيل. لكن والحق يقال، فإن الاميركيين انفسهم تخلوا ايضا عن الافكار التي طرحوها، لأنه لم يكن احد في الطرف الآخر من الحدود مستعدا لتبني هذه الافكار.

وجد اريئيل شارون لدى دخوله وزارة الدفاع خططا للعمل في لبنان. وقد اعدت الاركان العامة للجيش الاسرائيلي مقترحات مختلفة، قامت كلها على فرضية اساسية مفادها ان عملية موسعة ضد منظمات المخربين هي حتمية. فمنذ عملية الليطاني (سنة ١٩٧٨) كانت هناك ثلاث مراحل في تطور تخطيط خيارات استخدام الجيش الاسرائيلي ضدّ المخربين في لبنان وحماية امن اسرائيل في الحدود الشمالية.

خلال عهد عيزر وايزمن كوزير للدفاع، كان مفهوم الجيش الاسرائيلي يرتكز على المنطقة التي احتلت في عملية الليطاني والتي انيطت مسؤوليتها بالرائد سعد حداد، قطاع مكون من عشرة كيلومترات على الحدود الشمالية، وتمركز قوة اليونيفيل حتى نهر الليطاني، ونشاط انتقائي للجيش الاسرائيلي شمالي الليطاني ضد المخربين، رداً على محاولاتهم لضرب اهداف في اسرائيل.

خلال ولاية مناحم بيغن كوزير للدفاع، حدث التغيير. لقد استطاع رئيس هيئة الاركان، رفائيل ايتان، ان يمرر في الحكومة قرارات ساهمت في ارساء السياسة تجاه المخربين على اساس المبادأة والتواصل في محاربتهم، وليس على اساس الانتقام والرد، بهدف حرمان منظمة التحرير من التأهب للقيام بنشاط تخريبي ضد اسرائيل. وقد بلغت هذه السياسة ذروتها بقصف قيادات المخربين وقواعدهم في بيروت الغربية وارجاء لبنان في صيف سنة ١٩٨١ قصفا مكثفا.

كانت المرحلة الثالثة على وشك ان تسجل في عهد اريئيل شارون كوزير للدفاع. وهذه هي مرحلة العلاج الجذري، بالدمج بين الاهداف العسكرية والاهداف السياسية، اذ ان الهدف هو «نظام جديد» في لبنان يضمن لاسرائيل السلام والامن.

عرضت على شارون في هيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي خطط تقيد استخدام الجيش الاسرائيلي لازالة اخطار الارهاب، «عملية ليطاني موسعة حتى نهر الزهراني، وتطهير مدينة صور من المخربين». وتطرقت خطط اخرى الى امكان ضرب السوريين في لبنان، الذين يوفرون لمنظمات المخربين المظلة التي تعمل في حمايتها. غير ان الخطة التي حازت على اعجاب وزير الدفاع كانت تلك التي تحمل الاسم السري «اورانيم» (الصنوبر)، او كما درج على تسميتها «الخطة الكبرى». كانت اهدافها قطع طريق بيروت ـ دمشق، والوصول الى بيروت الشرقية، وحشد قوات في القطاع الشرقي في لبنان في حال محاولة السوريين التدخل في القتال. اصدر شارون تعليمات الى الاركان العامة لاعداد الخطة بتفاصيلها وعرضها عليه في اسرع وقت ممكن. وقد ادركت الاركان العامة ان الخطط بالنسبة الى شارون لا

تعد لوضعها في الخزائن بعد ذلك. لكن كيف يمكن تنفيذ خطة كبرى بغزو دولة مجاورة؟

ان الحقائق تضاربت قليلا مع التصور الذي ارادوا إضفاءه على منظمة التحرير الفلسطينية. فقد كان ياسر عرفات يسيطر على المنظمات الفلسطينية بصورة عامة، وهذه بذلت جهودا للمحافظة على وقف اطلاق النار على الحدود الشمالية. وعندما حاول رجال أحمد جبريل وجورج حبش، من قادة المنظمات الفلسطينية الاكثر تطرفا، خرق وقف القتال، اتخذت «فتح» تدابير مشددة ضدهم، اشتملت اعتقال مخربين والاستيلاء على مكاتب واقامة حواجز.

لقد ساعدت انصار الكفاح المتواصل في منظمة التحرير حقيقة ان منظمات المخربين اختلفت في شأن مواصلة نهجها. فالمنظمات المتطرفة فضلت مواصلة الكفاح المسلح ضد اسرائيل. ومن اجل الحؤول دون المواجهات الداخلية والانتقادات من جانب الدول العربية، اعلنت منظمة التحرير ان وقف اطلاق النار لا يحول دون الكفاح المسلح ولا يمس حق المخربين في العمل ضد منطقة الجنوب اللبناني، او تنفيذ عمليات في يهودا والسامرة وقطاع غزة. كان القصد حصر الحرب في نطاق محتمل، والابقاء على مجال معين للمناورة للعمل ضد اسرائيل.

خرج ياسر عرفات من الصراع العسكري في تموز (يوليو) ١٩٨١ زعيما قادراً على السيطرة على رجاله، وعنوانا لادارة المفاوضات السياسية. وكان ثمة تقويم في الإدارة الاميركية ان منظمة التحرير الفلسطينية ستكون عاجلا ام آجلا طرفا في المفاوضات السياسية بشأن مستقبل المناطق. ان المواجهة بين اسرائيل والمخربين عززت رأي

الادارة اكثر فأكثر. واخذ الاميركيون يزدادون قناعة بما لمنظمة التحرير الفلسطينية من تأثير على سكان المناطق. وقد لمّح بعض المسؤولين في الادارة الاميركية، بصورة غير مباشرة، الى زعماء المخربين بأنه «سيكون هناك ما يمكن التفاوض بشأنه في المستقبل». ولم يخف ذلك عن مصر والعربية السعودية اللتين مارستا الضغط على الولايات المتحدة للاعتراف بالجهات المعتدلة في منظمة التحرير. واعتبرت القدس إمكان بدء حوار بين الولايات المتحدة والمنظمة عملا مدمرا بالنسبة الى اسرائيل. كيف يخلقون اذن لدى الرأي العام في الولايات المتحدة وعيا بأنه لا مفر من محاربة منظمة التحرير واقتلاعها من الجذور؟ اولا، اكد الناطقون الحكوميون في اسرائيل ان وقف اطلاق النار يسري على كل عمل مصدره بيروت. وبالتالي، بدأت تظهر في وسائل الاعلام تعابير وصفت بيروت بأنها مركز للارهاب المحلي والاقليمي والدولي. ثانيا، جزم الناطقون بأنه برعاية اتفاق وقف اطلاق النار تعزز منظمات المخربين تمركزها وتعد بنية تحتية تهدد امن اسرائيل في المستقبل. كانت مستوطنات الشمال، كما قيل، بمثابة رهائن في ايدي الارهاب الفلسطيني، الذي سيشل سير الحياة في شمال اسرائيل تحت غطاء المظلة السورية. والنتيجة المترتبة على هذه السياسة الاعلامية هي ان على اسرائيل ان تفك الخناق الآخذ في الاطباق على عنقها.

ثمة وسيلة اخرى استخدمت لشرح ضرورة محاربة المخربين، كانت قياس مدى رماية صواريخ الكاتيوشا التي يمتلكها المخربون. وتم تلوين خريطة منطقة الجليل بلون مدى الرماية الذي اشار الى الخطر الداهم. وأعلن وزير الدفاع اللاءات الاربع التي تتمسك بها اسرائيل، والتي هي بمثابة شروط لا رجوع عنها على الاطلاق: لن

تسمح اسرائيل بخرق الوضع الراهن في الجنوب اللبناني، لن تسمح بإدخال السلاح النووي الى المنطقة؛ لن تقف على الحياد اذا دخلت قوات عراقية او سورية الاردن، لن تسمح للمصريين بخرق الترتيبات الامنية في سيناء التي تم الاتفاق عليها في معاهدة السلام معهم. وثمة من وافق على رأي شارون في ان على دولة بحجم اسرائيل ان تحدد أهدافها القومية بوضوح. وزعم آخرون ان تعيين خطوط حمر يقيد سلفا حرية عمل الدولة.

في أي حال، بدأ العد العكسي في اسرائيل. اخذ الناطقون يعددون عمليات الارهاب العربية منذ سنة ١٩٦٥، عندما نشأت «فتح» وحتى وقف اطلاق النار في تموز (يوليو) ١٩٨١. كما عددوا العمليات التي نفذت او التي منعت منذ بداية وقف اطلاق النار. وانصرفت شعبة الاستخبارات في الجيش الاسرائيلي الى إعداد جداول بالعمليات لشرح المفاهيم التي نفذت على اساسها. وخلال الاشهر الاخيرة من سنة ١٩٨١، عرض على الوزراء معلومات اجمالية كثيرة عن تعاظم قوة المخربين في لبنان بالأسلحة وأنظمة الوسائط الدفاعية المحصنة جيدا. وأخطر الوزراء بأن المخربين حسّنوا من سيطرتهم في جنوب الدولة (اللبنانية)، وعززوا قطاعات حساسة، وتحصنوا، وجددوا ملء مخازن الامدادات والذخيرة، وأدخلوا تحسينات في اجهزة اللاسلكي. واستوعبت المنظمات الفلسطينية وسائل قتالية من الدول العربية من اجل التسريع في عملية مأسسة الاطر العسكرية لحاجات التعاظم في مواجهة عناصر القوة الاخرى في لبنان. وبموازاة ذلك، كرست جهدا كبيرا للحصول على انظمة اسلحة متقدمة، وصواريخ ارض ـ جو، ومدافع بعيدة المدى تشكل حلولا ملائمة للعبر والدروس التي استخلصت من حرب الاستنزاف في تموز (يوليو) ١٩٨١. وأبلغت

الحكومة بأن المخربين أدخلوا في اطار استعداداتهم اسلحة ثقيلة الى جنوبي نهر الاولي. كانت المعطيات مذهلة.

علاوة على الرأي العام في البلد، كان على صانعي السياسة ان يقنعوا الحليفة والداعمة الاساسية، الولايات المتحدة، بأن الحرب في لبنان حتمية لا مفر منها. وجرى حوار مستمر بين رئيس الحكومة ووزير الخارجية ووزير الدفاع من جهة، والسفير الاميركي في تل ابيب، سام لويس، من جهة اخرى.

كانت العلاقات بين شارون ولويس تتأرجح صعوداً وهبوطاً، وعلى الاخص هبوطاً. لقد قال كبار الدبلوماسيين في السفارة الاميركية ان اريك يتمتع بسحر شخصي، خصوصاً عندما يتم اللقاء معه في مزرعته، والى جانبه عقيلته. اضطر لويس الى الانتظار بضعة ايام ليقابل شارون لأول مرة في وزارة الدفاع. كان شارون مستاء جدا من شبكة العلاقات التي نشأت بين رئيس الحكومة ولويس، الذي كان يؤم مكتب بيغن ومنزله ذهابا وايابا في اي وقت يشاء. وفي ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) اجتمع شارون ولويس في حديث كان الهدف منه ان يشكل خلفية اعلامية تجاه الاميركيين. تحدث شارون عن الوضع في الجنوب اللبناني، وعن خرق المخربين لوقف اطلاق النار «بصورة مستمرة». وقال ان «الوضع خطر في لبنان»، واضاف ان «المخربين خرقوا ٣٧ مرة اتفاق وقف اطلاق النار ضد الجيب الذي يسيطر عليه سعد حداد. ولا تستطيع اسرائيل ان تتحمل ذلك، ولذا ارتأيت اطلاعك على خطورة الوضع كي لا تفاجأوا انتم، ايها الاميركيون». وفي اليوم ذاته قيل للويس من مصادره ان شارون ورئيس هيئة الاركان وألوية الجيش الاسرائيلي قاموا بجولة في جيب حداد وعرضوا الوضع.

في اثر التقارير الواردة من تل ابيب تقرر في واشنطن ارسال فيليب حبيب الى المنطقة مرة اخرى، لإزالة الشكوك التي ميزت في ذلك الوقت العلاقات بين القدس وواشنطن. لقد تخوف الاميركيون من احتمال تراجع اسرائيل عن موافقتها على اخلاء سيناء كلها وتسليمها الى مصر، طبقاً لما اتفق عليه في اتفاق السلام، وتخوف من في القدس من ان تخرج الولايات المتحدة عن اتفاق كامب ديفيد بعد ان تكمل اسرائيل الانسحاب من سيناء في نيسان (ابريل) ١٩٨٢. أما الوضع في لبنان، فكان الاكثر مدعاة الى القلق. فقد حضر حبيب الى البلد للتخفيف من حدة الشكوك «وتكبيل الايدي»، كما قال مسؤولون في الحكومة.

خلال حديث جرى مع وزير الخارجية، يتسحاق شمير، وعد حبيب بالعمل على اخراج الصواريخ السورية من لبنان. واعرب عن تمسك الرئيس ريغان باتفاق كامب ديفيد. واشتكى شمير من ان المخربين يعتدون على منطقة حداد، «ومن الصعب اقناعه بعدم الرد على الاستفزازات المتكررة ضده من قبل المخربين»، قال وزير الخارجية مشيرا الى تدفق السلاح على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. «حتى متى نستطيع ان نضبط انفسنا؟» - سأل. وأجاب حبيب: «ما دام امنكم المباشر غير معرض للخطر، فإن عليكم عدم ركوب المخاطر، وأنتم تفعلون ذلك ادراكا منكم بأنكم قادرون على تمزيق أعدائكم اربا اربا. ان قوتكم هي العصا التي لا يوجد اكثر منها فعالية. واذا كان الاسد يتكلم معي كما يتكلم، ويقول لي انه عندما تكف اسرائيل عن المطالبة اليومية بإخراج الصواريخ من لبنان، حينها يعالج الموضوع بسهولة - ذلك بأنه يعرف مدى قوتكم». صحيح ان حبيب قادم من واشنطن لكن لهجته شرق - اوسطية. ومن اجل اقناع

الغير عرف كيف يستخدم المجاملات، والمسايرة الشخصية، والتوسل على طريقة الشرق.

إن حبيب يتذكر طبعا لقاءه مع اريئيل شارون حتى اليوم. «إن صراحته تكون احيانا مذهلة، حتى انها تصل الى كشف اكثر أسرار الدولة سرية» - هذا ما قاله دبلوماسي اميركي حضر المحادثات التي جرت بين حبيب وشارون.

لقد وصف شارون الوضع في لبنان بصراحة، على حد قول الدبلوماسي الاميركي، وكان استنتاجه أن العملية العسكرية لتطهير لبنان من تجمعات المخربين انما هي عملية حتمية. وشرح وزير الدفاع مشيرا الى خريطة خطط العملية، التي اعدت في الاركان العامة قبيل اجتياح لبنان. «كيف ستضمنون انكم لن تصطدموا بالسوريين، وان العملية ضد المخربين ستبقى محصورة ومقتصرة عليهم فقط؟» - سأل حبيب وهو يتأمل في الخريطة. «إننا غير معنيين بمحاربة السوريين في لبنان، او الصدام معهم» - اجاب شارون. وغادر حبيب الاجتماع برفقة السفير موريس داريبر، الذي ساعده في مهمته في دول المنطقة. كان الرجلان مصممين على العمل بصورة حثيثة لوقف التدهور. سارع حبيب ودرايبر الى ارسال تقرير الى واشنطن بمحادثاتهما مع شارون، مع توصية قاطعة الى وزير الخارجية ألكسندر هيغ: اقترح الممثلان الاميركيان الطلب من البلاط الملكي السعودي ان ينقل تحذيرا حازما الى ياسر عرفات، يطلب منه الحرص الشديد على وقف اطلاق النار، وإلا فستجتاح اسرائيل لبنان بكامل قوتها. وأوصى حبيب ودرايبر بأن يكتب هيغ الى بيغن ويشرح له موقف واشنطن، في حال قيام اسرائيل باجتياح لبنان.

لقد نقلت الرسالة الى منظمة التحرير. لكن لم يتم التوجه الى بيغن. وقد اطلع احد المشتركين الاسرائيليين في اللقاء بين حبيب وشارون احد الوزراء في حكومة اسرائيل على مضمون المحادثات حيث علم لاول مرة بـ «الخطة الكبرى». اما زملاؤه فلم يسمعوا بها إلا بعد بضعة ايام من ذلك.

في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١ زلت قدم رئيس الحكومة في حمام منزله فوقع وكسر ركبته وأُدخل مستشفى «هداسا» في عين كيرم. حاول الناطقون باسمه التخفيف من حالته. وقالوا ان بيغن يستمع الى الاذاعة ليطمئن عن حالته وانه سيعود الى مكتبه خلال فترة قصيرة. وبينما كان يعاني من آلامه تبلور في قرارة نفسه قراران: توقيع اسرائيل على مذكرة التفاهم التي اقترحتها الولايات المتحدة على الرغم من مضمونها المحدود لجهة التعاون بين الدولتين، وتطبيق القانون الاسرائيلي على مرتفعات الجولان. دعيت الحكومة الى اجتماع في المستشفى، وتقرر سفر شارون الى واشنطن لتوقيع المذكرة هناك. وعلم وزراء الحكومة بتفاصيل الوثيقة المقترحة من وسائل الاعلام. وقد غلب على رئيس الحكومة، الذي كان يعاني من آلام مبرحة، النعاس فنام خلال الجلسة، التي رفعت الى ان اعطاه الاطباء ادوية لتخفيف آلامه.

في ١٤ كانون الاول (ديسمبر)، غادر مناحم بيغن المستشفى. وفي صبيحة ذلك اليوم، دعا الى غرفته وزيري الخارجية والدفاع، ودعا بعد ذلك قادة الائتلاف وابلغهم قراره بأن يطرح في اليوم ذاته للتصويت في الكنيست مشروع قانون تطبيق القانون الاسرائيلي على مرتفعات الجولان. ودعي الوزراء الى منزله في الساعة الثانية عشرة

ظهرا، ولدى دخولهم سمعوا بالقرار من بيغن الذي كان يجلس على كرسي ذي عجلات.

في الكنيست رفعت الايدي تأييدا لمشروع القانون، باستثناء وزير واحد قرر عدم التأييد، وغادر الجلسة قبل انتهائها. فوجىء اعضاء الكنيست بهذه الخطوة، لكن ثمة اكثرية كبرى في المجلس التشريعي مع القرار. وقال بيغن في خطاب حماسي ألقاه من مقعده الى طاولة الحكومة بسبب صعوبة سيره على الاقدام: «لن يوجد في بلدنا او خارجه شخص واحد جاد درس تاريخ ارض ـ اسرائيل، يحاول ان ينفي ان مرتفعات الجولان كانت خلال اجيال عديدة جزءا لا يتجزأ من ارض ـ اسرائيل».

والتفت بيغن بغضب شطر سورية: «اين تقف سورية، سياسيا واخلاقيا. . . قال وزير الخارجية السوري خدام في مؤتمر فاس رافضا مشروع الامير فهد، انه يجب الا يقدم العرب اين مشروع كان، وعليهم الانتظار حتى مائة سنة واكثر الى ان تضعف قوة اسرائيل، وبعد ذلك يتحركون».

كانت قوة بيغن السياسية وتأثيره على الحكومة وكتل الائتلاف مؤثرين جدا، حتى خلال الايام التي وهنت فيها قوته الجسدية. كان من الصعب طرح مشروع من دون ان يكون في قدرته تمريره في الحكومة. كانت قوته ادبية. «لقد جرفنا» ـ هذا ما يقوله مع مرور الايام بعض الوزراء معتذرين. ويضيفون «كانت هذه دينامية جماعية، كان من الصعب علينا مواجهتها».

كانت ردات الفعل العالمية تجاه تطبيق القانون الاسرائيلي في الجولان عنيفة. ففي الامم المتحدة طرح طلب بإلغاء القانون،

واتخذت الولايات المتحدة تدابير عاقبت بها اسرائيل، اذ تم تعليق مذكرة التفاهم التي لم يكن قد جف مدادها، كما علقت المساعدات العسكرية والاقتصادية مرة اخرى. ومرة اخرى فوجئت واشنطن. وقال بيغن في جلسة الحكومة انه لم ير ضرورة لإبلاغ الولايات المتحدة بنيته سلفا، لان ذلك لا يقتضيه التفاهم الذي تمّ التوصل اليه مؤخرا بين الدولتين، ولأنه اعتقد ان من مصلحة الولايات المتحدة الا تعرف بخطوة اسرائيلية كهذه سلفا.

رد السوريون بتعبئة قوات وتحريك الجيش في مرتفعات الجولان. وقد سبق للجيش الاسرائيلي ان اتخذ تدابير دفاعية، واعلن حالة الاستنفار وتعبئة الاحتياط. وصرح وزير الدفاع امام لجنة الخارجية والامن: «قد يستغل المخربون قانون الجولان من اجل ازعاج مستوطنات الشمال، ولكننا سبق ان اوضحنا اننا لن نوافق مرة اخرى على خوض حرب استنزاف، لا في الجليل ولا في الجولان. اننا متأهبون للحؤول دون هذا الامر».

كان مسلك مناحم بيغن يوحي انه على وشك اعلان الحرب على الولايات المتحدة. فقد غضب على ردة الفعل الاميركية تجاه قانون الجولان. وفي يوم الاحد ٢٠ كانون الاول (ديسمبر)، دعي السفير الاميركي الى منزل رئيس الحكومة لحديث كان بمثابة مونولوج. كان فحواه: «ان اسرائيل ليست جمهورية موز». كان بيغن يجلس على مقعد وضع في وسط صالة الاستقبال في الطبقة الارضية من المنزل وهو يرتدي لباس النوم وفوقه مبذل (روب دو شامبر). وكان يجلس الى جانبه وزيرا الخارجية والدفاع، شمير وشارون. ـ اخذ بيغن يهاجم الادارة الاميركية على امتداد ساعة كاملة، وعلى مسمع من لويس الذي

بدا وجهه شاحبا لدى سماع كلام بيغن ومضمونه» إننا لسنا دولة تابعة للولايات المتحدة» ـ قال بيغن مؤنبا السفير.

اضيف الى هذا المشهد فصل كان شارون مخرجه. ففي وقت سابق دعا وزير الدفاع رئيس هيئة الاركان وألوية الجيش الاسرائيلي وضباطا ومستشارين مزودين بخرائط وتصاميم ورسومات، وانتظر هؤلاء في قاعة الدخول في منزل رئيس الحكومة. كان القصد ان يلاحظ لويس «الضيوف» لدى خروجه. وقد لاحظ السفير وفهم: هنا يخططون لشيء ما. وقد فوجىء الوزراء ايضا بهذا «الشيء ما»، عندما استدعوا هم ايضا الى منزل بيغن.

في مستهل الجلسة عرض بيغن الحديث مع لويس. وبعد ذلك، وخارج هذا السياق، القى القنبلة: اقترح اتخاذ قرار يمكن الجيش الاسرائيلي من دخول لبنان وتطهيره من قواعد المخربين. وعرض وزير الدفاع ورئيس هيئة الاركان على الوزراء خطة واسعة النطاق، تضمنت احتلال منطقة حتى مشارف بيروت، عبر انزال قوات في جونية، بعد ان يتم الاتصال بالمسيحيين [المقصود هنا الاتصال المادي ـ المترجم]. كانت تعليلات بيغن انه قد يحدث شيء ما مع السوريين في اية لحظة. ان المخربين لا يتوقفون عن ضرب أهداف اسرائيلية ويهودية، وينبغي وضع حد لذلك. حاول اعضاء الحكومة الذين سمعوا للمرة الاولى بحجم العملية، بذل جهود لتبريد حماسة بيغن. واعتقدت اغلبيتهم انه يجب عدم اقرار الخطة. ادرك بيغن ان اقتراحه لن يحظى بالأكثرية فقرر عدم طرحه للتصويت. في هذه الاثناء اشتدت آلامه، واصبحت الجلسة صعبة عليه بسبب الجرح، وبالتالي اختتمت من دون اتخاذ قرار.

كان رئيس الحكومة مقتنعا بضرورة العمل في لبنان. فبعد بضعة ايام من جلسة الحكومة في منزله، علم انه حدث في سفينة يونانية كانت في طريقها الى ميناء حيفا، انفجار تسبب في خسائر في الارواح. دعا بيغن شارون ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية اللواء يهوشواع ساغي، وطلب منهما ان ينفذا في اقرب وقت «الخطة الكبرى» في لبنان. واخذ شارون وساغي يحملق كل منهما في وجه الآخر، وكأنهما لا يصدقان ما سمعته اذناهما. اعتقد شارون انه ينبغي الانتظار لتوقيت اكثر ملاءمة وبسرعة اتضح ان الانفجار في السفينة اليونانية ناتج عن عطل داخلي ولا علاقة له بمنظمات المخربين. وتأجلت العملية.

استمر «الحنق» بين الولايات المتحدة واسرائيل وقتا قصيرا. فعلى الرغم من مسلك اسرائيل ادركت الادارة ان «هذا هو الموجود». وبحثت الولايات المتحدة عن سبيل لتحريك عجلات المسار السياسي في المنطقة، والتي توقفت عن السير، ولم تكن لألكسندر هيغ سوى اسباب قليلة ليكون راضيا. ففي المحادثات التي اجراها في شهر ايلول (سبتمبر) خلال جنازة رئيس مصر انور السادات، مع رئيس الحكومة مناحم بيغن والرئيس المصري الجديد مبارك، ادرك هيغ ان مسار كامب ديفيد سيتوقف. وبدىء في وزارة الخارجية الاميركية ومجلس الامن إعداد مقترحات جديدة لمسار السلام. وتحدثت فكرة عن الاستناد الى مبادىء اتفاق كامب ديفيد والتوجه الى الاردن ليتولى المسؤولية السلطوية عما يجري في المناطق التي تحتفظ بها اسرائيل خلال مرحلة الادارة الذاتية لعرب هذه المناطق. وهكذا ينشأ ما يشبه الكونفدرالية الاردنية - الفلسطينية. وبحسب هذه المقاربة، كانت منظمة التحرير الفلسطينية تشكل العقبة، إلا اذا قبلت سلطة الاردن.

فمنذ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨١ توصل هيغ، كما يبدو، الى ان اي ضرر لن يلحق بالمسار السياسي اذا وجهت اسرائيل ضربة اخرى الى منظمة التحرير، وبذلك ينهار ادعاء المنظمة بأنها الهيئة الوحيدة الممثلة للفلسطينيين. غير ان هيغ اعتقد ان الضربة التي يجب ان توجه الى منظمة التحرير يجب ان تكون محصورة في اطار اقليمي وفي اطار عسكري من دون ان تورط الولايات المتحدة في ازمة دولية مع الاتحاد السوفياتي نتيجة اجتياح اسرائيلي للبنان، الامر الذي سيؤدي الى تورط مباشر مع السوريين هناك. وادرك هيغ ايضا، في ضوء التقارير التي تلقاها من القدس، انه ليس في قدرة الولايات المتحدة منع اسرائيل من العمل في لبنان. وما تبقى بالتالي هو بذل جهود من اجل حصر نطاق الحرب التي ستنشب بين اسرائيل ومنظمات المخربين في لبنان. ولم يكن لهيغ شركاء بالإدارة الاميركية في هذا المفهوم، فبقي معزولا بين زمرته.

على خلفية العلاقات المتضعضعة بين اسرائيل والولايات المتحدة والعودة الى سبيل التفاهم، أرسل دافيد كمحي مدير عام وزارة الخارجية الى واشنطن سرا في اواخر السنة، في ٢٨ كانون الاول (ديسمبر). وحرصت الدولتان على المحافظة على سرية الزيارة، لكن التسريب كان في القدس. سلم كمحي هيغ رسالة من نظيره الاسرائيلي يتسحاق شمير، واستهل اللقاء بإبلاغه كلام صداقة ومصالحة مع رئيس الحكومة ووزير الخارجية. وشرح مدير عام وزارة الخارجية خلفية قرار ضم مرتفعات الجولان: «اخذ الجو في البلد قبيل الجلاء عن سيناء يتحول الى جو كئيب» - ابلغ مضيفيه. «ان اخلاء المنطقة من سكانها انما هو عمل مفجع. ويبدي الاسرائيليون شكوكا إزاء نوايا مصر بعد الانسحاب. وكان قانون الجولان سيحظى بالموافقة

لأن عضو الكنيست من «هتحيا»، غيئولا كوهين، كانت ستطرحه للتصويت في الكنيست، وكانت الحكومة قد قررت منذ فترة انها ستمرر القانون في الفرصة الملائمة. وما كان ينبغي للولايات المتحدة ان تفاجأ بذلك».

لقد ادرك كمحي ان تقرير فيليب حبيب بشأن محادثاته مع شارون، التي عرض وزير الدفاع خلالها خطة اجتياح لبنان والوصول الى بيروت، قد وصل الى هيغ. «المقصود هو سيناريو محتمل» - حاول كمحي تفسير ما كشف عنه شارون - «وهذه ليست بالضرورة خطة عمل». وكرر كمحي الوعد الذي ابلغه رئيس الحكومة الى حبيب، ان اسرائيل لن تهاجم إلا اذا هوجمت. واضاف: «على الولايات المتحدة ان تعمل من اجل تشجيعنا، وان تحول دون إقدامنا على عمل يائس».

أكد هيغ في رده كلاما كان معروفا منذ وقت قصير: «الادارة الاميركية فوجئت وتضررت كثيرا من قانون الجولان، بمن في ذلك الرئيس وانا، مع انه ربما كان علينا ان نتوقع خطوتكم سلفا. ووقعت سلسلة من الاحداث» - تابع هيغ يقول - «وليس ذنب احد، في انها تسببت بسوء تفاهم وراكمت العراقيل في طريق مسار السلام». وكشف وزير الخارجية الاميركي النقاب عن انه كان يرغب في تحديد امور واضحة ازاء الشرق الاوسط وعملية السلام خلال ثلاثة اشهر منذ توليه منصبه، غير ان الحرب العراقية - الايرانية، والازمة في لبنان، واغتيال الرئيس السادات، والخلاف بشأن بيع طائرات الـ «ايواكس» الى العربية السعودية، والآن قانون الجولان، كلها امور منعته من القيام بذلك.

«كان عليكم ابداء التفهم للطريقة التي اعربنا فيها عن ردة فعلنا تجاه قانون الجولان» - قال هيغ محتجا امام كمحي - «كان عليكم ان تتفهموا انه مورست ضغوطات كبيرة للرد بصورة جوهرية، بما في ذلك اقتراح بوقف جميع المساعدات العسكرية الى اسرائيل. واضطررت الى التحرك بسرعة لأمنع الآخرين في الادارة من الاقدام على عمل غير معقول، ولأحول دون اي عمل تشريعي ضد اسرائيل. وقد نجحت في الحؤول دون هذه الاعمال، واستطعت ان احصر المعالجة في وزارة الخارجية، ولهذا اهمية كبيرة. ان خطواتنا ضدكم انما هي بمثابة ضربة اخرى على يدكم، من دون ان تكون لها اية دلالة عملية».

لاحظ موشيه آرنس سفير اسرائيل في واشنطن، الذي حضر اللقاء الى جانب كمحي، انه اذا كان الامر كذلك فإن هيغ يجب ان يكون شاكرا لاسرائيل لأنها هاجمت اعماله بصورة متطرفة جدا. وابتسم هيغ قائلا: «هذا ينطوي على شيءمن الصواب. ومع ذلك فإن البيانات الشديدة التي ادلى بها رئيس الحكومة ووزير الدفاع اساءت الى الرئيس اكثر من عمل تطبيق القانون» [قانون الجولان - المترجم]. وقال هيغ كلاما قاسياً جدا ضد وزير الدفاع كاسبار واينبرغر: «ان تحركي السريع، وموقفي المتشدد ظاهريا، هما اللذان منعا واينبرغر من المطالبة بالقيام باعمال فعلية ضدكم. وهكذا نشأت بيني وبين واينبرغر جبهة مشتركة، وربما هذا لن يتكرر على الاطلاق».

قال ألكسندر هيغ انه آن الاوان لتهدئة الخواطر، واضاف: «وهذا رأي الرئيس ايضا». ان وزير الخارجية الذي كان يدرك مخاوف اسرائيل من امكان قيام الولايات المتحدة بإجراء اتصالات بمنظمة التحرير الفلسطينية حاول ان يطمئن: «ينبغي الا تقلقوا، سنحاول

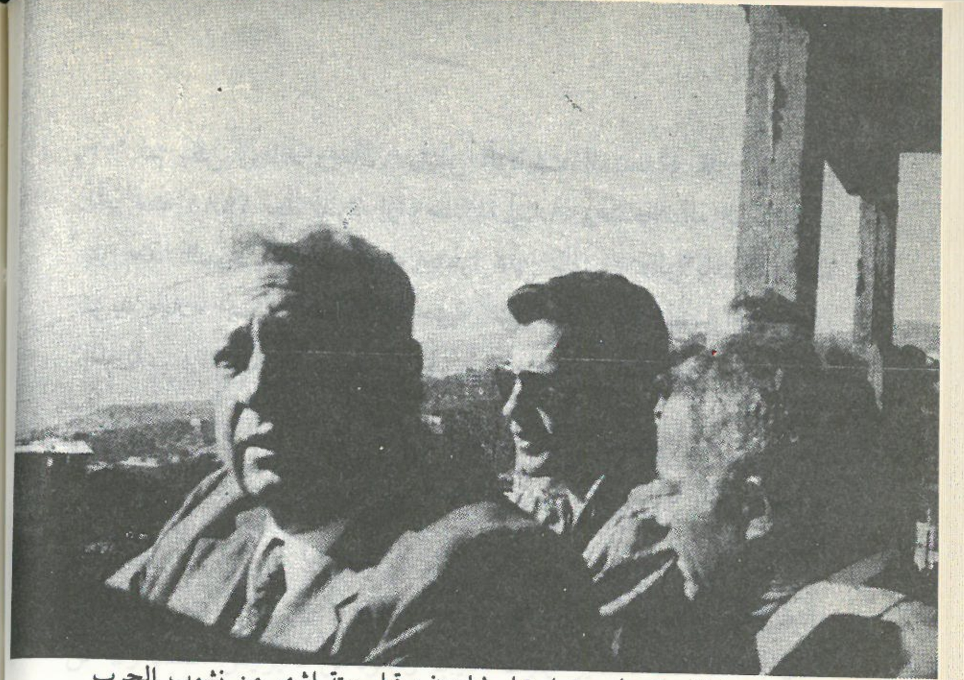
توسيع مسار كامب ديفيد والحاق العربية السعودية والاردن به، الامر الذي كان ينبغي انجازه في كامب ديفيد ّنذاك. اما بالنسبة الى السوريين، فيستحيل الاعتماد عليهم، ولا حاجة الى اخذهم في الحسبان زيادة عن اللزوم، لأنهم تابعون للاتحاد السوفياتي».

حملَ دافيد كمحي الى القدس رسالة موضوعها لبنان.

اخذ الضوء الاخضر يتلألأ في واشنطن، غامزا صانعي السياسة في القدس. واعتقد بيغن وشارون انه يمكن انهاء اية قضية مع هيغ، اذ ان تقرير كمحي عزز هذا الرأي. غير انه سيطرت على وزارة الخارجية الاميركية مدرسة كانت متعارضة مع مدرسة الوزير المسؤول عنها. لقد اعتبر السفير فيليب حبيب ونيقولاس فاليوتيس المسؤول عن شؤون الشرق الاوسط، منظمة التحرير الفلسطينية انها الجهة الممثلة للفلسطينيين والتي يمكن ادخالها الى مسار السلام والتفاهم في المنطقة. وعمل حبيب للمحافظة على وقف اطلاق النار، كي يطرح خيار منظمة التحرير السياسي. ويبدو ان هيغ توصل خلال تلك الفترة الى انه لا يمكن الحؤول دون الاجتياح الاسرائيلي للبنان، وكانت هناك براهين قوية على ان حكومة بيغن لا تأبه للولايات المتحدة عندما تقرر العمل ضد موقفها. ولذا، قرر هيغ اخراج الهواء من رئتي بيغن وشارون المنتفختين في محاولة للتلميح الى اسرائيل بأن واشنطن قادرة على التعايش مع عملية محدودة في لبنان في نطاق اربعين كيلومترا عن حدود اسرائيل الشمالية. واعتقد وزير الخارجية [الاميركي] ان لا سبيل الى منع العملية، وينبغي على الاقل محاولة التحكم في حجومها، والتقليل من ضررها، واستغلال نتائجها والوضع الجديد الذي سينشأ بعدها من اجل دفع المسار السياسي الذي كان غارقا في جمود عميق.

لم يكن رونالد ريغان، رئيس الولايات المتحدة، قد شكل في آخر سنة ١٩٨١ بعد نظرته إزاء مشكلة لبنان. وعندما سأله الصحافيون عن هذا الموضوع كان جوابه جاهزا على شفتيه: «الولايات المتحدة تؤيد جلاء جميع القوات الاجنبية عن لبنان، ووحدة اراضي هذه الدولة، وضمان الامن لاسرائيل في حدودها الشمالية».

واعتقد صانعو السياسة في القدس ان ألكسندر هيغ يعبر عن الموقف الاميركي. وهذه الفرضية عززت التقويمات التي سبقت الحرب الوشيكة.



في بيروت «اوثقت ارجلهم»: اريئيل شارون، قبل ستة اشهر من نشوب الحرب في لبنان، اجتمع هنا مع رؤساء الكتائب. يظهر الى جانبه مساعده لشؤون الامن القومي، اللواء ابراهام (ابراشاه) شمير.

رحلة سرية الى بيروت في ١٢ - ١٣ كانون الثاني ١٩٨٢: اللواء موشيه ليفي، بشير الجميل، اللواء يهوشواع ساغي، اللواء ابراهام طمير، وخلفهم مدينة بيروت.

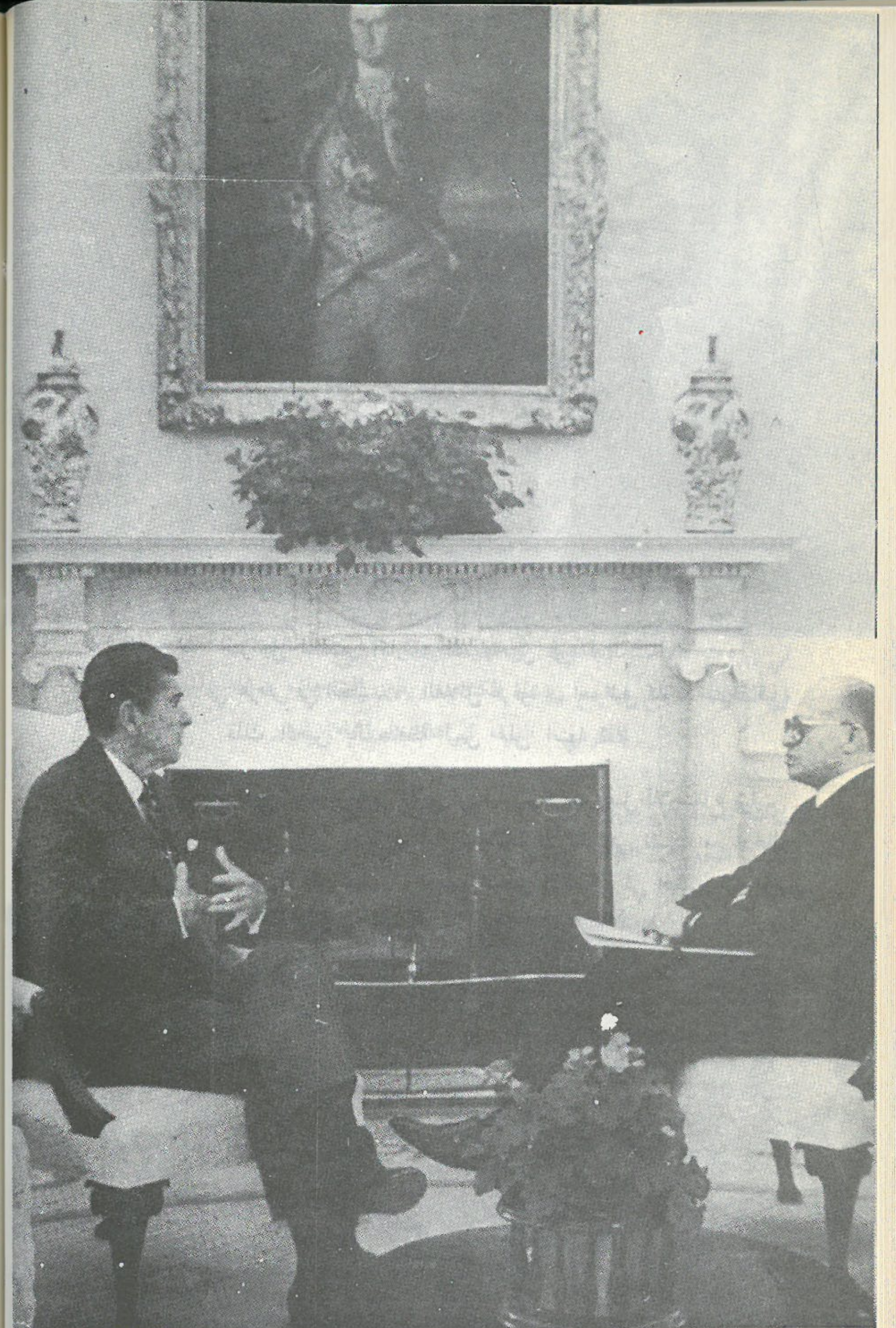




اسرائيل ستمنع «كارثة» للمسيحيين في لبنان:
مناحم بيغن، في عرض في الكنيست. القلائل عرفوا ان اسرائيل كانت ملتزمة قبل ذلك الحين بالمحافظة ليس على امنها فقط.

من سيخرج الصواريخ؟ الدبلوماسي الاميركي فيليب حبيب يصل للاجتماع برئيس الحكومة، مناحم بيغن، في مهمة وساطة لمعالجة الازمة التي نشبت مع ادخال صواريخ ارض - جو سورية الى لبنان. وخلفهم السفير الاميركي في البلد، سام لويس.





اجتماع مع «الرئيس الذي كان اكثر صداقة لاسرائيل»:
رئيس الحكومة، مناحم بيغن، يلتقي اول مرة، رونالد ريغن في البيت الابيض، في ايلول ١٩٨١.



عندما بدأ كل شيء، كانوا لا يزالون اصدقاء

في ٦ حزيران ١٩٨٢، بنشوب الحرب: اريئيل شارون، رفائيل ايتان، يونا افرات وامير دروري يدرسون خرائط المعركة.

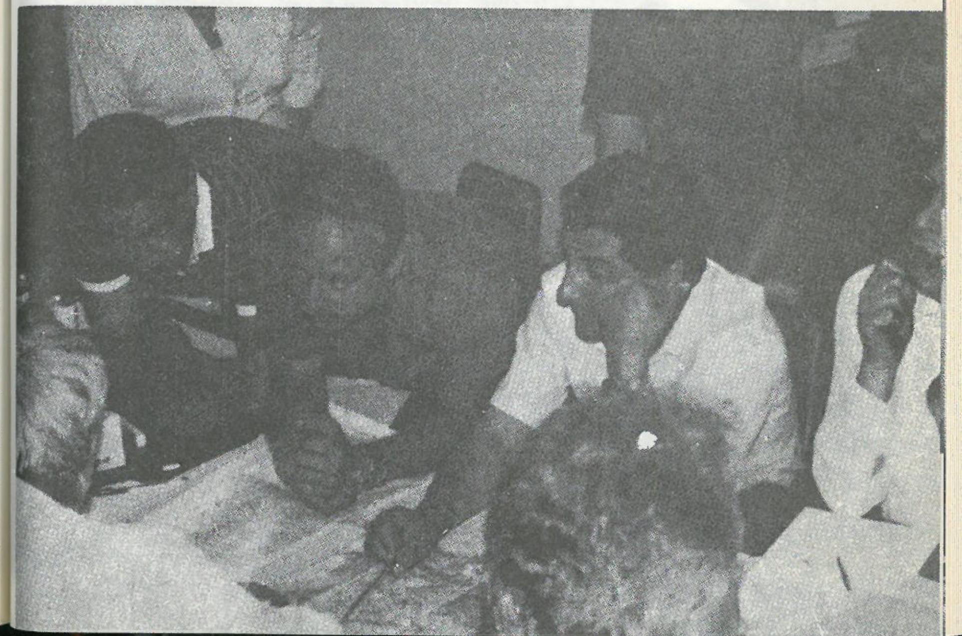
صورة رسمية: قوات من الجيش الاسرائيلي تتحرك داخل الأراضي اللبنانية، ٦ حزيران ١٩٨٢، اريئيل شارون يلوح بيده، لقد لوى اذرع اولئك الذين حاولوا من الداخل منع هذه اللحظة.

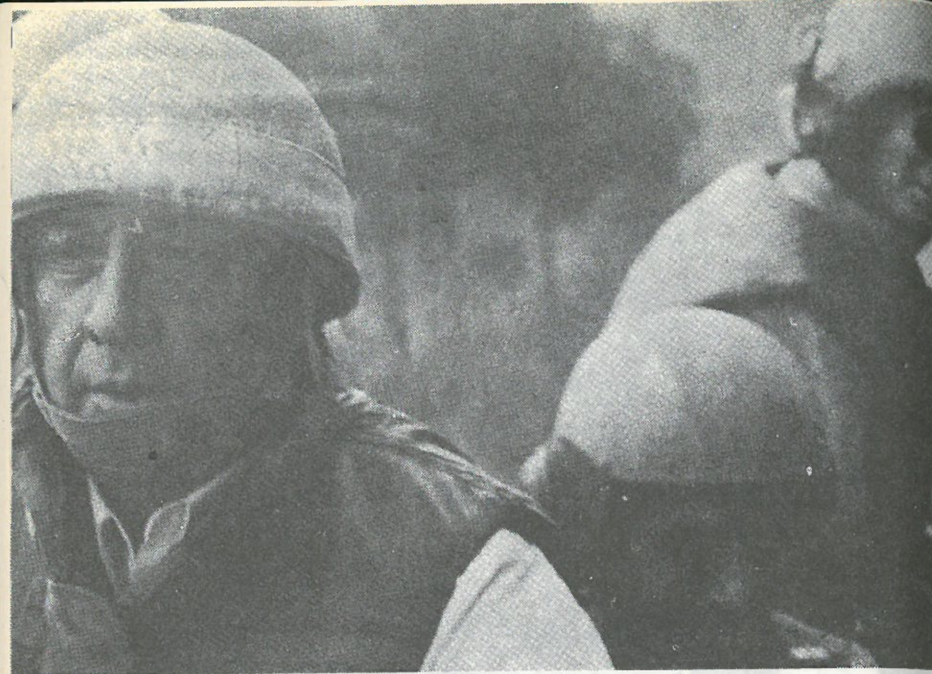




زيارة منتصرين: رئيس الحكومة، مناحم بيغن، يزور قلعة الشقيف بعد احتلالها في ٧ حزيران ١٩٨٢.

الالتحام: اريئيل شارون وبشير الجميل اثناء جلسة بشأن الخطة المشتركة للاقتحام
ين الجيش الاسرائيلي وقوات الكتائب، في الاسبوع الثاني من الحرب. الى جانب بشير الجميل مستشاره جوزيف ابو خليل ورئيس اركان الكتائب فادي فرام. ويقف وراءهم اللواء ابراهام طمير.





دخول منتصرين: اريئيل شارون في ناقلة جنود مصفحة، وخلفه رئيس فرع المخابرات، اللواء يهوشواع ساغي، يهرولان الى داخل بيروت في الاسبوع الثاني من الحرب.

ينظرون باتجاه السوريين: اريئيل شارون ورفائيل ايتان يعاينون المواقع السورية في البقاع اللبناني. ٣٠ تموز ١٩٨٢

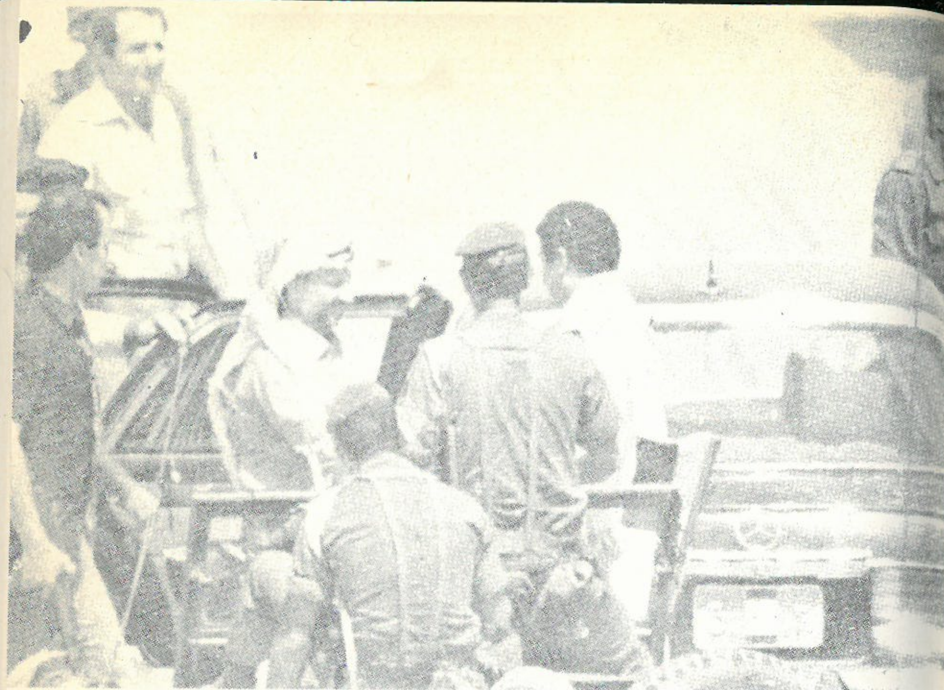




مجموعة القيادة المتقدمة في احتلال عاليه ٢٥ حزيران ١٩٨٢ : وزير الدفاع، اريئيل شارون، يتلقى تقريراً والى جانبه رئيس اركان الكتائب، فادي فرام، اللواء موشيه ليفي وسكرتيره العسكري الرائد عوديد شمير.

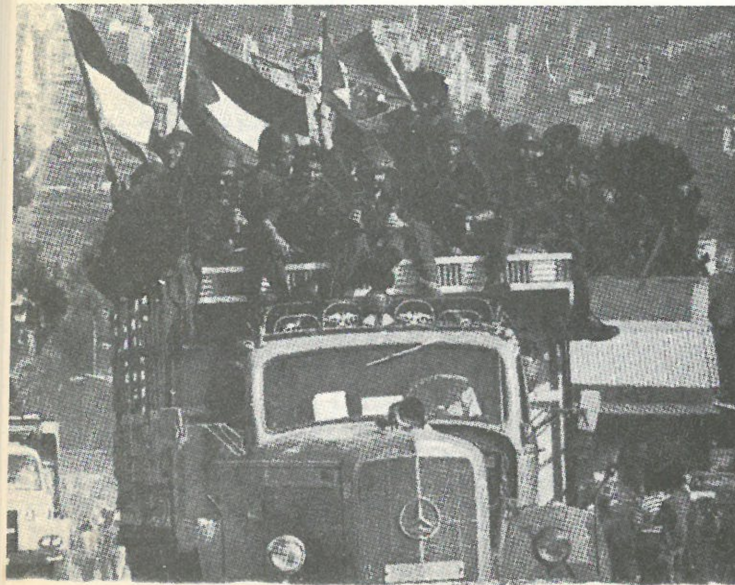
تطهير بيروت الغربية : رفائيل ايتان وبشير الجميل (من اليمين)، فادي فرام (من اليسار، يخططون لدخول الكتائب لـ«تنظيف» بيروت الغربية من المخربين. تموز ١٩٨٢





عندما كان ياسر عرفات في مرمى القناص: رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يغادر بيروت في نهاية آب ١٩٨٢.

مغادرة المخربين لبيروت: جنود جيش التحرير الفلسطيني يخرجون من بيروت على طريق بيروت ـ دمشق.



الفصل السادس : تطهير المنطقة

في بداية سنة ١٩٨٢ قال الفلكيون بنشوب حرب هذه السنة بين اسرائيل وسورية. احد الفلكيين من اصدقاء وزير الدفاع اريئيل شارون قال له بأنه سيصل في هذه السنة الى ذروة قوته، لكن حذره بأن النجوم تشير الى وجود مخاطر على طريقه قبيل نهاية السنة، كما انه سيواجه مأزقاً كبيراً.

حتى اوساط المخابرات الاسرائيلية توقعت تدهوراً في العلاقات السورية ـ الاسرائيلية. فقد ذكرت هذه الاوساط ان سنة ١٩٨٢ ستكون السنة التي ستستكمل فيها سورية قدرتها، وستبلغ ما سماه الناطق «التوازن الاستراتيجي» مع اسرائيل. واستناداً الى رأي رؤساء شعبة الاستخبارات في الجيش الاسرائيلي، فإن ثمة احتمالا كبيراً بوقوع اعمال عدوانية.

الدلائل على الأرض لم تكن مشجعة. ففي اعقاب تطبيق قانون ضم الجولان، اعلنت سورية حالة الاستنفار وحشدت قوات كبيرة في مرتفعات الجولان ولبنان. رفضت حكومة اسرائيل ان تأخذ على عاتقها اية مخاطر. فهي لم تنس بعد كآبة حرب يوم الغفران. وهكذا ظلت

قوات الجيش الاسرائيلي في مرتفعات الجولان في حالة استنفار لمدة اشهر طويلة. وانتقلت اسرائيل من التطرف في ايهام الناس بأن شيئاً لن يحدث، الى تطرف آخر من التخويف بأن الحرب على الأبواب. ولم يقبل صانعو القرار بالتقدير القائل ان السوريين يخلقون جواً من الاعداد للحرب فقط من اجل التسبب بضغط دولي على اسرائيل كي تعود عن قرارها بضم هضبة الجولان.

لقد خدم التوتر الامني وجهتي نظر شارون ورفول. ومن اجل التوصل الى اقناع الوزراء بالقيام بعمل ضد لبنان، ادعى الرجلان انه اذا فرض على اسرائيل ان تقوم بعمل ضد السوريين، كما قدروا في شعبة المخابرات العسكرية، فمن الافضل ان يكون ذلك في «الساحة اللبنانية» لا في مرتفعات الجولان. وعلى كل، لا يمكن القبول بوضع تكون فيه اسرائيل في حالة استنفار على جبهتين: لبنان ومرتفعات الجولان، وان تقبل بالتالي بتضييق الخناق عليها من جانب السوريين والمخربين معاً، فقط لأن المجتمع الدولي يعارض اية عملية عسكرية اسرائيلية تكون عملياً خرقاً لاتفاق وقف اطلاق النار.

بيد ان وطأة الاحداث اخذت تشتد على المعارضين لعملية عسكرية في لبنان. ففي ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢، تسللت مجموعة مؤلفة من ستة مخربين من الأردن الى محولة، وهي اول ييشوف اقيم في وادي الأردن بعد حرب الايام الستة. وقد قتل ثلاثة عناصر من المجموعة، وفر ثلاثة آخرون. عندها اصدر وزير الدفاع امراً طلب فيه من رئيس الاركان ان يعقد فوراً مؤتمراً صحافياً يدعو اليه الصحافة المحلية والاجنبية، ليعرض مدى الخطورة التي تنظر من خلالها اسرائيل الى مثل هذا الحادث. سجلت محاولة تسلل المخربين هذه في اللوائح التي اعدتها شعبة الاستخبارات: خرق آخر

لاتفاق وقف اطلاق النار. اجتمع شارون مع رئيس الحكومة، وقرر الاثنين الرد على محاولة الاعتداء عن طريق قيام سلاح الجو بقصف اهداف للمخربين. قُدِّم الاقتراح في جلسة الحكومة، عارض اغلبية الوزراء، لأنهم فهموا ان القصد هو جر المخربين الى الرد بالقصف المدفعي لمستوطنات الشمال، ومن بعدها تنفيذ مخطط دخول لبنان و«تنظيف المنطقة» من المخربين. في تلك الاثناء اعلنت السلطات الاردنية بواسطة واشنطن، ان محاولة التسلل في غور الاردن ليست دليلا على تغيير في موقفها. وشدد الاردنيون على مواصلتهم التقيد بمنع المخربين من التحرك عبر اراضيهم.

خرج سيمحا ارليخ، نائب رئيس الحكومة، من جلسة الحكومة راضياً. فلقد كان من بين الوزراء الذين نجحوا في منع العملية. بعد ذلك بعدة ايام جمع ارليخ مجموعة صحافيين وتباهى امامهم بعمله. لقد قيل هذا الكلام في حديث خاص، غير ان صحافياً لم يشارك في اللقاء، وإنما وصلته تفاصيل الموضوع، ما لبث ان قام بنشر هذا الامر الذي احدث ضجة كبيرة في الحكومة. فأريئيل شارون لم يكن راضياً عن التأجيل. ولقد انزعج بصورة خاصة من قرار إرسال رئيس شعبة الاستخبارات اللواء يهوشواع ساغي، الى واشنطن بشكل سري. ولقد كان هذا بمثابة حل وسط، إتخذته اللجنة الوزارية لشؤون الدفاع بعد مناقشة حادة في اعقاب محاولة التسلل في محولة. عارض شارون ارسال ساغي الى الولايات المتحدة. لقد ادرك ان ذلك سيؤدي الى تأجيل العملية في لبنان مرة اخرى. وفي رأيه ان بيغن قد اصيب بضعف مفاجىء، فأرسل ساغي لأنه اراد ان يسمع معارضة اميركية للعملية الاسرائيلية المزمع القيام بها. وفي واشنطن التقى ساغي وزير الخارجية هيغ، واوضح له ان اسرائيل تنظر بخطورة الى محاولة تسلل

المخربين من الأردن، وانها ترى في ذلك خرقاً آخر لاتفاق وقف اطلاق النار. وعرض رئيس المخابرات معطيات عن تحصينات المخربين وانتشارهم الجديد في الجنوب اللبناني. وحذر باسم رئيس الحكومة ووزير الدفاع، انه في حال حدوث خرق جديد لوقف اطلاق النار من جانب المخربين فإن اسرائيل سترد. لكن تنفيذ هذا التهديد تأخر، في الواقع، عدة اشهر اخرى

عدد قليل من الوزراء عرف بأمر الزيارة السرية التي قام بها شارون لبيروت في شهر كانون الثاني (يناير)، وبالمخطط الذي رسمه مع زعماء الكتائب (انظر الفصل الاول). مرة اخرى علق بشير الجميل آمالاً. ستقع عملية عسكرية اسرائيلية تؤمن له الفرصة للسيطرة على الدولة الممزقة. كان بشير واثقاً من ان اسرائيل ستنجر الى حرب مع السوريين. وبدأ المسيحيون بالاستعدادات العسكرية والسياسية، استعداداً للعملية الاسرائيلية المتوقعة. وخلال الليل، كانت البواخر تصل من اسرائيل الى جونية. وكان اللواء رفول ويكوتيئيل آدام وضباط آخرون وممثلون عن «الموساد» يروحون ويجيئون لتنسيق الخطوات. كانت كلمة السر «الالتحام» (قتال منسق مسبقاً حتى يتم الاتصال بين قوات الجيش الاسرائيلي وقوات الكتائب على ارض لبنان). إن بشير الجميل، الذي حاول المشاركة خلال الاشهر الاخيرة في مصالحة وطنية في لبنان بإيحاء من السوريين، بدأ مجدداً باتصالات مستقلة بأطراف مختلفة في لبنان من بينها اطراف غير مسيحية، لانشاء جبهة موحدة بزعامته، وكان ينتظر حلول الساعة التي ستقدم اليه اسرائيل الدولة على طبق من فضة.

وفي القدس استمر الارتباك بشأن المسائل المتعلقة بكيفية تنفيذ العملية الاسرائيلية ضد المخربين في لبنان، وتوقيتها وطابعها. وقام

شارون بعد زيارته لبيروت بعرض الخطتين على الوزراء: «الكبرى» و«الصغرى». ومع بدء النقاش اتضح ان الوزراء لم «ينضجوا» حتى الآن لهضم الامور. وبناءً على اقتراح وزير الخارجية يتسحاق شمير، تقرر العمل مجدداً على «الخطة الكبرى» مع الأخذ في الاعتبار الملاحظات التي ابداها الوزراء، وطرحها على الحكومة للمصادقة عليها. ولقد طرحت في اثناء النقاش اعتراضات حول الحكمة السياسية من وراء العملية الكبيرة. وبرزت علامات استفهام عن المنطق في استخدام الجيش الاسرائيلي من اجل اهداف لا تدخل في نطاق القضايا الامنية الصرفة. وعلى الرغم من ان شارون شرح انه لا توجد نية لاقامة «نظام جديد» في لبنان ومحاربة السوريين، وأن الهدف من وراء كل ذلك هو فقط إزالة التهديد الإرهابي عن اسرائيل، كان من الصعب على المراقب الموضوعي الاقتناع بأنه اذا ما نفذت «خطة اورانيم»(«الكبرى») فلن يؤدي الامر الى توريط اسرائيل في حرب مع السوريين، والى تدخلات ستكون لها انعكاسات سياسية من الصعب التصدي لها مثل: الحاجة الملحة الى حل «المشكلة الفلسطينية»؛ تعميق تدخل الاتحاد السوفياتي في النزاع؛ والغرق في الصراع الطائفي المستمر في لبنان.

لم تكن الخطتان اللتان عرضتا على الحكومة سوى عبوات ناسفة. اما الفرق بين «الخطة الصغرى» و«الخطة الكبرى» فهو ان «الكبرى» كانت تهدف الى اتصال الجيش الاسرائيلي بالمسيحيين حول بيروت؛ ومحاصرة المدينة؛ والسيطرة على طريق بيروت - دمشق؛ وأما «الصغرى» فكانت تستهدف ايصال الجيش الاسرائيلي الى خط يبعد ٤٥ كلم عن الحدود الشمالية. لقد بنيت «الخطة الكبرى» على ثلاثة محاور في جبهة عريضة تمتد من جبل الشيخ حتى البحر الابيض

المتوسط. كذلك بنيت ايضا «الخطة الصغرى» على المحاور نفسها من جبل الشيخ حتى البحر المتوسط، بفارق واحد: المدى. وكما ان «الخطة الكبرى» كانت تستلزم تورطا في القتال مع السوريين بعد جهد مركزي في القطاع الشرقي حيث يتطلب تحقيق الاهداف هناك اقتلاع تشكيلات سورية، كذلك كانت «الخطة الصغرى» ايضا تستوجب قتالاً مع السوريين.

اكثر من ذلك «الخطة الكبرى» افترضت وضعاً من السيطرة على الأراضي، من شأنه ان يؤجج مشاعر عدائية في جبال الشوف، كما انها ستزيد من آمال المسيحيين بالعودة الى السيطرة على الشوف عن طريق الجيش الاسرائيلي وستغرق اسرائيل بسرعة في الوحل في مهمات الحفاظ على الأمن في لبنان. لكن كان هناك ايضا مجال للتقدير ان «الخطةالصغرى» ستنزلق الى ماوراء خط ٤٠ -٤٥ كلم، بعدالتدخل السوري، واستغاثات المسيحيين، وذلك من اجل القيام بمناورات تخفف من الضغط العسكري السوري، وفي نهاية الامر يبلغ الجيش الاسرائيلي اهداف «الخطة الكبرى» مع المشكلات نفسها، لكن بخسائر اكبر كثيرا. والفارق العسكري بين الخطتين هو انه في «الكبرى» ينبغي لقوات الجيش الاسرائيلي السيطرة على مفاصل رئيسية بواسطة قوات مجوقلة، قبل ان تتمركز فيها قوات سورية، اما الانتقال من «الصغرى» الى «الكبرى» فيستلزم اذا تم بعد التمركز السوري في نقاط التقاطع الاساسية، دفع القوات الاسرائيلية المدرعة في محاور جبلية ضيقة ومتعرجة، عبر قتال مرير وخسائر فادحة.

يبدو ان الحكومة، برغبتها في معارضة مخططات شارون، اعتقدت انها اذا ما نجحت في الغاء «الخطة الكبرى» وتفضيل

«الصغرى» فإن ذلك سيجعلها تتجنب النتائج الكارثية للحرب. غير ان الواقع كان مختلفاً.

في شهر شباط (فبراير)، كادت الحرب تقع. الوضع في الشمال كان على حافة الانفجار. وعلناً شقت ارتال الدبابات وناقلات الجند، والشاحنات، طريقها الى الشمال في اتجاه نقاط التمركز. في وسائل الاعلام سُمعت تصريحات بيغن وشارون ورفول: لا يمكن للمخربين الاعتداء علينا تحت ستار اتفاق وقف اطلاق النار. في الثاني عشر من شباط (فبراير)، اتصل السفير الاميركي صموئيل لويس بنائب مدير وزارة الخارجية الاسرائيلية، حانان بار ـ أون، وابلغه ان لديه معلومات ودلائل تشير الى ان الجيش الاسرائيلي يخطط لعملية عسكرية في الشمال خلال الساعات القادمة، او على ابعد تقدير في الايام القادمة، وذلك على الرغم من حقيقة انه خلال الاسابيع الاخيرة جرت محادثات مع فيليب حبيب في محاولة لتخفيف التوتر، وحل المشكلات التي نشأت على الأرض وايجاد صيغة انقاذ يمكن في اعقابها تقرير اسلوب للعمل. واعرب السفير الاميركي عن امله بأن تكون معلوماته «خاطئة من اساسها»، وبغير ذلك لن يكون ثمة شك في انه «ستنشب ازمة بالغةالحدة في علاقات اسرائيل ـ الولايات المتحدة». سارع بار ـ اون الى ابلاغ رئيس الحكومة بالموقف الواضح الذي سمعه. كان رد بيغن على السفير موجزاً: «لا اساس للمعلومات. ونطلب منكم عدم استخدام هذه اللهجة المتوعدة معنا. وفي المستقبل علينا مواصلة التحدث بطريقة منطقية».

كان بيغن مقتنعاً بأن الخطوات التي اتخذتها اسرائيل من اجل ضمان امنها صحيحة ومحقة. وعندما يعتقد بيغن انه على حق، لا تنفع معه كل ادعاءات الطرف المضاد. من هذه الناحية كان بيغن

وشارون ثنائيا عمل بتنسيق كامل. كانّ شارون حينها في ذروة قوته الشعبية. ولعل رئيس الحكومة هو الذي هيأه لذلك. فلقد شارك شارون في المحادثات العديدة التي اجراها بيغن مع ممثلين من الولايات المتحدة، وتحدث امامهم مطولا وبصراحة.

لم يكن اللقاء الذي جرى بين السيناتور جون غلين رائد الفضاء الاول الذي وصل الى الكونغرس، والسيناتور وليم كاهن من جهة، وبين رئيس الحكومة ووزير الدفاع من جهة اخرى ناجحاً. ان غلين الذي قيل عنه انه سيرشح نفسه عن الحزب الديمقراطي لانتخابات رئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة الاميركية، جاء الى اسرائيل ليدرس عن كثب المشكلات، وحمل معه من واشنطن الاتجاهات في العاصمة الاميركية إزاء اسرائيل.

بدأ غلين محادثاته مع رئيس الحكومة قائلا: «ثمة تغير طرأ على الموقف منكم في الولايات المتحدة. لقد فاجأتمونا في الأشهر الاخيرة بقصف بيروت، وبتدمير المفاعل الذري العراقي، وحاليا انتم في صدد الإعداد لمفاجأة في لبنان».

رد بيغن بشدة. «الولايات المتحدة هي التي فاجأت اسرائيل مؤخراً بنيتها بيع الاردن طائرات إف ـ ١٦ وصواريخ ارض ـ جو من طراز هوك المتطور. لقد كتبت الى الرئيس ريغان، اقول له انه منذ قيام دولتنا لم يكن هناك خطر اكبر على اسرائيل من خطر الصفقة مع الأردن». اما بشأن المفاجآت التي فاجأت بها اسرائيل الولايات المتحدة، فردّ بيغن بإسهاب: «صحيح أننا دمرنا المفاعل «اوزيريس» القريب من بغداد. لقد عرفنا بما يحدث هناك. وبذل رجالنا جهداً

كبيراً للحصول على المعلومات المطلوبة. علمنا بأن صدام حسين يحضّر ثلاث قنابل من طراز قنبلة هيروشيما، التي يمكنها ان تقضي على ٦٠٠ الف شخص، بينهم ١٠٠ الف طفل. تلقينا معلومات بأن المفاعل سيكون جاهزاً في شهر تموز (يوليو) او ايلول (سبتمبر) المقبل. لو انتظرنا لما كان في امكاننا ان نعمل، لأن الاشعاعات كانت ستقتل اطفالا عراقيين. لقد قمنا بعملنا مثل حدّ الشفرة. وكان هذا بالنسبة الينا عملية انقاذ. ومن هو العراق بصورة عامة؟ انه بلد عدواني، متطرف، سوفياتي. فما الذي كان ينبغي لنا ان نفعله؟».

غلين: «لقد كانت لدينا تقديرات مختلفة بالنسبة الى وقت الخطر. لقد قدّر علماؤنا انه ستنقضي سنتان ونصف السنة قبل ان يمتلك العراقيون ما يكفي من المواد. وحتى لو جرى قصف المفاعل في وقت متأخر، فإن كمية الاشعاعات التي كانت تصل الى بغداد لم تكن اكثر من الاشعة الموجودة في صورة صدر».

بيغن: «جائز ان يكون هناك فوارق في التقدير بين العلماء واجهزة المخابرات لديكم ولدينا. يا ليتكم استمعتم الى تحذيرات رجالنا بالنسبة الى الشاه في ايران».

غلين: «بحسب تقديرنا، كان لديكم الوقت الكافي، وكان في امكانكم القيام بالعملية في وقت اكثر تأخراً».

أما السيناتور كاهن، الذي شارك في الاجتماع، فقد كان رأيه مختلفاً، وذكر، بصورة شخصية، وغير علنية، بأن هناك تأييدا في الولايات المتحدة لخطوة اسرائيل.

غلين: «ثمة طرق اخرى لتدمير المُفاعل غير طريقة الجو».

بيغن: «اذا كانت لديك افكار، فأني ارحب بالبحث فيها».

غلين: «عندما تزودكم الولايات المتحدة بمعدات، فهي طبعاً ملك لكم، لكننا نتحمل مسؤولية معينة إزاء طريقة استخدامها».

بيغن: «العراق كان عملية دفاعية. لم نهاجم جيشه».

«غلين: «لماذا العمليات الدفاعية بالنسبة اليكم (تأخذ هذا المظهر الكبير جدا)*» «Looms very large».

كان الحديث صعباً، وتمسك الطرفان بمواقفهما. ولقد برر رئيس الحكومة القصف العنيف لبيروت الذي سبق وقف اطلاق النار في صيف سنة ١٩٨١ بأنه «عمل دفاع عن النفس». اما بالنسبة الى قانون الجولان، فما كان للولايات المتحدة ان تفاجأ؛ «فطوال السنين التي سيطر فيها السوريون على الجولان، كان سفك الدماء مستمراً. لقد ربينا جيلاً كاملاً من الاطفال في الملاجىء. وثمة إجماع عام في البلد على اننا لن نسمح للسوريين بالعودة الى الجولان. هذا ما قاله ايضاً جيمي كارتر عندما كان حاكماً لولاية جورجيا وقام بزيارة اسرائيل. كما يوافق على هذا الرأي ريتشارد نيكسون. لقد عرضنا موقفنا بوضوح في الخطوط الاساسية للحكومة، وبالتالي لم تكن هناك اية مفاجأة في خطوتنا هذه» ـ قال بيغن بحدة.

غلين: «ان احداً لا يشكك في اهمية الجولان، ولكنه جزء من المناطق التي احتلت. وهذا احد موضوعات المفاوضات في اطار الحكم الذاتي».

بيغن: «لا صلة اطلاقاً بين الجولان والحكم الذاتي الذي يتعلق

* الجملة الواردة بين قوسين وردت في الاصل العبري باللغة الانكليزية (المترجم)

بيهودا والسامرة وقطاع غزة. إن إلحاق الجولان بإسرائيل ليس ضماً. ان ارض اسرائيل تشمل الجولان».

غلين: «ان تعريفك لفلسطين يشمل ايضاً الضفة الشرقية للأردن؟»

بيغن: «ربما اكثر من ذلك، لكني اؤكد لك اننا لن نخوض حرباً من اجل احتلال شرق الاردن. إنني احلم في المستقبل بكونفدرالية مع الأردن، تمنحه طريقاً الى ميناءي حيفا واشدود، وكل شيء سيتم بموافقة الطرفين طبعا».

طلب الضيوف القادمون من الولايات المتحدة ان يعرفوا بصدق ما اذا كانت اسرائيل تنوي مهاجمة لبنان. سارع وزير الدفاع الى الرد: «لم تكن لدينا قط النية لمهاجمة لبنان، لدينا خطط طبعا لقد اوضحنا لهيغ وحبيب ولويس اننا لن نسمح بعمليات للمخربين في اي مكان. وإننا نعتبر اية عملية من هذا النوع خرقاً لوقف اطلاق النار».

غلين: «إننا نتخوف من امكان ان يجر اي استفزاز صغير هجوماً اسرائيلياً كبيراً يسفر عن آلاف الضحايا».

شارون: «ان موقفنا واضح تماماً».

غلين: «هل كل عملية تسلل هي استفزاز؟»

شارون: «ان عدداً صغيراً من المخربين تسلل الى الطريق الساحلي بالقرب من تل ابيب، وقتل اكثر من اربعين شخصاً من ركاب الباص. ان الاستفزاز لا يقاس بالعدد، بل بالنتيجة. اننا نواجه وضعاً صعباً. وسنواصل الاحتفاظ بقواتنا في الشمال، وسنكون في حالة استنفار دائم، لأن المخربين قادرون على العمل في كل لحظة. لديهم

٣٠٠ مدفع و٣٠٠ راجمة وقاذفة صواريخ، وهذا يشكل نصف كمية السلاح التي نملكها».

. بيغن: «بالنسبة الى وقف اعمال العداء اسمحوا لي بأن اتلو عليكم الخطوط التي اتفقنا عليها مع فيليب حبيب. يتضمن وقف الأعمال العدائية التالية:

١ ـ كل نشاط عسكري معاد في الجو والبر والبحر ضد أهداف في اسرائيل، ولا يقتصر هذا طبعاً على اعمال التسلل من حدود لبنان فقط.

٢ـ كل عمل موجه ضد لبنان.

٣ ـ كل نشاط موجه ضد منطقة حداد او منها، وهذا البند يخرقه المخربون باستمرار.

٤ ـ يعلن رئيس الحكومة امام الولايات المتحدة، بواسطة حبيب، ان اسرائيل ترى في كل عمل تخريبي موجه ضد اسرائيليين او يهود في اي مكان في العالم خرقا للاتفاق الذي تم. وهذا البند خرقته العمليات التي جرت في فيينا وأثينا وروما وبرلين».

غلين: «في حال حدوث عمل تخريبي في اوروبا، هل ستدخلون لبنان؟»

بيغن: «سيدي، انا لا اجلس هنا على كرسي الاتهام. حدثت عمليات تخريب في اوروبا لم نرد عليها. قبل عدة ايام اوقفنا تسللاً للمخربين كان من الممكن ان يؤدي الى دمار شديد. ولم نرد. أود ان اقرأ لك رسالة اخرى من حبيب يجزم فيها بأن الطلعات الجوية الاستطلاعية الاسرائيلية في الاجواء اللبنانية غير مدرجة في خانة

الاعمال العدائية وستواصل اسرائيل هذه الطلعات، ولقد تم إعلام الحكومات الاخرى بالأمر. بعد مرور فترة من الزمن، تلقيت رسالة من الرئيس ريغان يقول فيها انه قد سُرّ عندما علم ان اسرائيل لن تقوم بعمل ضد لبنان الا في حال(تعرضها للاعتداء على مستوى واسع النطاق)* Unless attacked on a signifcant scale لم اقل قط شيئاً كهذا. بعدها اتى وزير الخارجية هيغ الى اسرائيل، واقترحت عليه الصيغة التي مفادها ان اسرائيل لن تهاجم إلا رداً على استفزاز صريح. فاقترح هيغ صيغة اخرى: استفزاز صريح معترف به دوليا. وفي ردّي على رسالة الرئيس ريغان، حددت له ماذا اقصد بالإستفزاز الصريح. واعطيته امثلة: ففي وسط مدينة بتاح تكفا، القيت قنبلتان، إحداهما انفجرت والثانية ادت الى اصابة شخص بجروح بسيطة. لم نرد على ذلك. لكن لو قتل خمسة وجرح عشرون، لكنّا دخلنا لبنان من اجل تدمير بنية المخربين التحتية. نموذج آخر: «اكتشفت قنبلة في سوبر ماركت في القدس، وجرى تعطيلها. فلو قتل اربعة او عشرة اشخاص لكنّا تحركنا فوراً. واعتقد من خلال هذه الامثلة بات واضحاً جداً ماذا نقصد». واضاف بيغن: «ثمة ضعف في موقفنا. فنحن ننتظر الى ان نتضرر ويقتل رجالنا قبل ان نتحرك. اننا نكره الحرب».

لقد مرت لحظات حرجة في اللقاء بين السيناتور غلين ورئيس الحكومة. ومن الامور التي رواها بيغن ان الرئيس العراقي صدام حسين «الطاغية الديكتاتور» من شدة خوفه على حياته، يضع مسدسه تحت وسادته عندما ينام. وعلّق بيغن على ذلك: هكذا يتصرف الطغاة. عندما اخذ السيناتور الاميركي يقلب الاوراق الموجودة على مكتب رئيس الحكومة، فسأله بيغن: «ماذا تفعل؟» فرد غلين وهو

* الجملة بين القوسين وردت في النص العبري بالانكليزية. (المترجم)

يضحك: «ابحث عن المسدس». لكن بيغن لم تعجبه النكتة بالطبع.

في شهر آذار (مارس)، كادت الحرب تنشب. ففي الخامس والعشرين من هذا الشهر، القيت قنبلتان يدويتان على سيارة تابعة للجيش الاسرائيلي في اثناء مرورها في الشارع الرئيسي بغزة. فقتل جندي وجرح ثلاثة آخرون، كما اصيب ثلاثة من السكان. في اليوم نفسه، طلب رئيس الحكومة عقد جلسة للجنة الوزارية لشؤون الدفاع. واقترح وزير الدفاع على الوزراء ان يقوم سلاح الجو بقصف اهداف للمخربين في لبنان. واعتقد بعض الوزراء ان رداً من هذا النوع سوف يؤدي الى اندلاع القتال على نطاق واسع. ولدى التصويت وافق على الاقتراح سبعة وزراء وعارضه سبعة آخرون، ففشل واسقط. لا تخاض الحرب في ظل ميزان قوى من هذا النوع. لكن التحليل الذي قامت به الادارة الاميركية جعلها تستنتج ان اسرائيل ستغزو لبنان. اما اهداف الغزو فستكون وفق هذا التقويم: إنشاء منطقة عازلة بين مستوطنات الشمال والمنطقة الواقعة تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية، بحيث يصبح قصف المستوطنات الاسرائيلية غير ممكن،وتدمير، او إنزال ضربة شديدة ببنية منظمة التحرير الفلسطينية العسكرية في الجنوب اللبناني، على الاقل. ولقد علم الاميركيون من حديث اريئيل شارون مع فليب حبيب بأن اسرائيل معنية ايضا بالقضاء على القيادة الفلسطينية. وذكر مصدر في الإدارة الاميركية امام موظف اسرائيلي في واشنطن، ان من المحتمل ان تكون المقابلة التلفزيونية التي اجراها عرفات في واشنطن في تلك الفترة هي الاخيرة.

وكان ثمة إجماع في الرأي، داخل الإدارة الاميركية، على ان اسرائيل ستدفع ثمناً من الخسائر البشرية اكبر مما تتوقع. إذ طرأ تحسن على وضع منظمة التحرير والقتال في منطقة مبنية وتعج بالمسلحين

سيكون مكلفاً جداً. اما اذا ما حاولت اسرائيل تطهير اوكار المخربين في بيروت، فإن الثمن سيكون اكثر فيما لو توقفت العملية قبل العاصمة اللبنانية. ولقد وجدت الإدارة الاميركية صعوبة في تقويم موقف الميليشيات المسيحية. ان كل شيء سيكون في رأي الاطراف المختلفة المسؤولة عن التقويم في الإدارة مرتبطاً بنطاق العملية الإسرائيلية، وبمدى تمسك اسرائيل بتحقيق اهدافها، وبالوقت الذي سيكون متاحاً لها قبل ان تتدخل عناصر خارجية من اجل إيقاف المعارك. فالمسيحيون لن يتحركوا في البداية خوفاً من كشف تعاونهم مع اسرائيل، الامر الذي سيؤدي الى عزلهم، ويجعلهم هدفاً للضغوط العسكرية العربية (سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية). وإذا ما ظهر ان العملية الاسرائيلية ناضجة، وتسير كما يجب، فثمة امل بأن يتعاون المسيحيون مع اسرائيل. ولقد شككت المخابرات الاميركية في مدى الفائدة التي قد تحققها إسرائيل من دخولها لبنان. فالولايات المتحدة قد تساهم في الضغوطات الخارجية التي قد تمارس على اسرائيل. والمساعدة الاميركية قد تستخدم هراوة لتأديب «الابن العاق».

كانت تقديرات وزير الدفاع بشأن النتائج المتوقعة للعملية الاسرائيلية، اكثر تفاؤلا من تقديرات الاميركيين. كما ان رئيس الحكومة اظهر اهتماماً دائماً بالمسيحيين في الوقت الذي كان يتحضر فيه للحرب في لبنان. فلقد نصح كلًا من الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران في اثناء الزيارة التي قام بها لاسرائيل، فيليب حبيب بعد ذلك، بضرورة التنبه الى خطر تصفية الاقلية المسيحية في لبنان. وفي محاولة يائسة لوقف التدهور، اقترح فيليب حبيب إقامة هيئة مشتركة بين اسرائيل والولايات المتحدة تجتمع للتداول في الاوضاع الطارئة. وكانت الادارة الاميركية تنوي تعيين ثلاثة او اربعة موظفين من وزارة

الخارجية والبيت الابيض ووزارة الدفاع، والـ«سي آي. إي». ولقد وافق بيغن على تعيين مندوبين اسرائيليين مماثلين. غير ان هذه الهيئة لم تجتمع قط.

في شهر نيسان (ابريل)، كادت الحرب تقع. في الثالث من هذا الشهر، قتل في باريس الموظف في السفارة الاسرائيلية يعقوب بارسيمان - طوف. فجمع رئيس الحكومة الوزراء للتشاور. فاقترح وزير الدفاع ورئيس الاركان، بتأييد كبير من جانب بيغن، الرد بقصف جوي. اما الوزير أليعيزر شوستاك... فلقد سأل الذين يقترحون الرد على المخربين، لماذا لا يعينون اولا لجنة للبحث في ظروف حادثة القتل في باريس. وسأل شوستاك: «وما شأن الترتيبات الامنية في باريس؟» وفي نهاية الجلسة، اتخذ قرار بتعيين ستة وزراء في لجنة تقرر توقيت موعد للرد، في حال قيام المخربين بعملية جديدة. وكانت اللجنة مؤلفة من: مناحم بيغن، اريئيل شارون، يتسحاق شمير، يوسف بورغ، سيمحا آرليخ، اليعيزر شوستاك.

استمر إعداد الرأي العام. وعلى الرغم من ان معظم وسائل الاعلام هاجمت بشدة وبدون شفقة النية للقيام بعمل ضد لبنان. غير أن أصداء هذه المقالات كانت تتلاشى ما ان تبلغ جدران مكتب رئيس الحكومة ووزارة الدفاع. اراد بيغن محاولة التوصل الى اتفاق مع المعراخ، فدعا زعماء هذا الحزب الى اجتماع معه ومع شارون. في الاجتماع قال شارون: «لا يجوز إزاء كل ما نراه من حشودات المدفعية والتحصينات، ومن استمرار الاعتداءات، الا تكون اسرائيل قادرة على الردّ. ثمة قرار للحكومة يقول لن نسمح بأي حال من الأحوال بحدوث اعتداء من دون الرد عليه». وهكذا احب شارون ان يستشهد بقرارات الحكومة ليثبت تمسكه بها وكونها نبراسا في نظره وهو الذي كان يعتبر طوال سنين اول

من يخرق هذه القرارات ويتصرف على هواه، الى حد ان هناك من كان يتهمه بأن قرارات الحكومة لا تعدو ان تكون بالنسبة اليه ممسحة لاقدامه. وعلى كل حال، فزعماء المعراخ لم يقتنعوا بالإيضاحات التي اغرقهم بها شارون وبيغن. لكن في الوقت نفسه، كان من الصعب عليهم تجاهل عدد من الحقائق. لقد استمر نشاط المخربين، ولو بصورة انتقائية، والتقارير الموثوق بها لشعبة الاستخبارات ترسم صورة قاتمة لعملية اعادة تنظيم وتسليح ضخمة. وكان رئيس حزب العمل، شمعون بيريس، يعلم بأن العديد من ناخبيه يسكن في الكيبوتسات والمستوطنات الواقعة شمالي البلد. وسيقال في المستقبل: «ماذا في وسعي ان افعل، فالمخربون قصفوا المستوطنات في الشمال، وليس مهما سواء اكانت القذائف التي اطلقت جاءت رداً على استفزازات من اشخاص في الحكومة، ام جاءت بمبادرة من المخربين. فالقصف يصيب من دون تفسير».

كان عدد كبير من اعضاء لجنة الخارجية والامن مقتنعين بأن شارون يدفع الحكومة الى اتخاذ قرار واحد: القيام بعملية واسعة النطاق في لبنان. فكل ادعاءاته وتكذيباته لم تنفع. إذ قال داني روزليو، وهو عضو كنيست من المعراخ ويقيم في إحدى مستوطنات الشمال، في ١٣ نيسان (ابريل): «لا استطيع كإنسان يعيش في المنطقة، ليس اعمى ولا اطرش، إلا أن اعبر عن مخاوفي من ضخامة القوة التي تحشد في المنطقة. لقد شاهدت بعض الحشودات وهذا انطباع إنسان عادي. ولنفترض انه نشأ وضع تقرر الحكومة في ضوئه القيام بعملية، فما هي اهداف عملية كهذه؟ وهل بُحث في الوسائل البديلة؟».

انكر وزير الدفاع وجود قرار بالقيام بعملية. وقال ان الحكومة

بكامل هيئتها هي التي ستقرر ذلك عندما يحين الوقت. وثمة بدائل عديدة. واوضح شارون ان حشد القوات في الشمال إنما هو ردّ على استنفار الجيش السوري. وقال: «ان السوريين يحضرون للحرب منذ عدة اشهر، وليس لهذا اية علاقة بأي شيء سيحدث. فالعملية بدأت قبل تطبيق القانون الاسرائيلي في هضبة الجولان. والمقصود هو تعزيزات اضافية من دبابات تي - ٧٢، ومجموعة كاملة من التدريبات والاستنفارات التي جرت مؤخراً. فالجيش السوري في حالة استنفار قصوى. وتقديرنا اليوم أنه في حال حدوث اي شيء فثمة استعداد سوري له. ومع الوقت فإن هذا الاستعداد سيزداد لأن ظروف المنطقة والطقس ستصبح اكثر ملاءمة. ونحن نرى امكان تدخل سوري في اية عملية لنا في لبنان. سواء اكانت كبيرة ام صغيرة. وفي رأيي علينا الا نخوض أية مجازفة في اي مجال».

ولقد استمع اعضاء لجنة الخارجية والدفاع الى الكلام عن استمرار المخربين في اعمال التحصين، وهي اعمال «لا سابق لها» كما وصفها وزير الدفاع، وتشمل حفر انفاق وأقبية وخنادق. والمقصود تحصينات عميقة، يستنتج ذلك من كمية التراب المتراكم حولها. وهي معدة لمواراة المدافع والكاتيوشات».

غير ان السؤال الذي الح اعضاء الكنيست في طرحه على شارون كان: «لماذا هناك إنطباع بأن اسرائيل في كل الاحوال تستعد للرد بطريقة واحدة، وهدفها تغيير النظام في لبنان؟». اجاب شارون: «لا يوجد اليوم اي قرار بشأن النشاط الذي نقرأ عنه في الصحف التي تصور الوضع، كما لو ان اسرائيل على وشك غزو لبنان في اية لحظة. إن لدولة اسرائيل خططاً موجودة منذ قيامها. في الاركان العامة خطط لمواجهة مختلف الاحتمالات». واضاف: ان التسريبات التي تجري

لجلسات الحكومة ولجنة الخارجية والتسريبات التي تجري من جانب الاميركيين، هدفها التهدئة غير انها هي التي ادت الى الاجواء التي اشاعتها وسائل الاعلام.

في ٢١ نيسان (ابريل)، اتخذ قرار بالرد. وفي اليوم نفسه مرت سيارة ضابط اسرائيلي على لغم في الجنوب اللبناني، مما ادى الى مصرعه. فجرت عملية تبادل آراء هاتفية سريعة بين افراد «لجنة التوقيت» الحكومية. ومن بين الوزراء الستة كان هناك وزير واحد عارض العملية، هو يوسف بورغ. فأمر بيغن بالقيام بقصف جوي لأهداف المخربين في لبنان. وهكذا هاجمت طائرات سلاح الجو ثلاث قواعد. وتدخل السوريون في اثناء الهجوم، غير ان طائرتي الميغ ـ ٢٣ اللتين ارسلتا لاعتراض الطائرات الاسرائيلية، ما لبثتا ان اسقطتا. اما منظمات المخربين، فلم تستدرج وضبطت نفسها. اذ حذرتها الولايات المتحدة مسبقاً بأن اي رد من جهتها سيؤدي الى اجتياح الجيش الاسرائيلي للبنان. وحتى الولايات المتحدة ردت على الهجوم بضبط النفس. فإسرائيل كانت في ذروة الانسحاب من سيناء. وعلى الأرض كانت المشاهد قاسية. فالمستوطنون بمساعدة آلاف المؤيدين رفضوا اخلاءهم. اما تصرف وزير الدفاع قبيل إعادة المنطقة الى مصر، فكان مصدر تعليقات عدة. فالمستوطنون وزعماء غوش ايمونيم الذين وقفوا معهم، كانوا على صلة دائمة بوزير الدفاع، ولقد حاولوا التأثير عليه لتغيير قرار الحكومة. وكان شارون متنازعاً بين صلته بالمجموعات التي وقفت في وجه الجيش في قطاع يميت وبين واجبه كوزير للدفاع، ومتأرجحا بين إدراكه بأن هؤلاء الذين سيقوم بإجلائهم هم مصدر قوته السياسية وبين تطلعاته السياسية المستقبلية، لا سيما رغبته في القيام «بالمعالجة الجذرية» في لبنان بعد إخلاء سيناء.

اما الولايات المتحدة فكانت تراقب ما يجري بقلق. فلقد ارسلت الادارة الاميركية على جناح السرعة، وعشية إخلاء سيناء، نائب وزير الخارجية لورنس شتاسل. وذلك بعد ان تبين ان شارون قد اكتشف فجأة إخلال مصر بالبند العسكري لاتفاق السلام. وقدم رئيس شعبة الاستخبارات، اللواء يهوشواع ساغي، المعطيات حول اعمال الخرق، بحيث بدا للحظة ان مصر قررت الانتحار، وذلك بقيامها بأعمال تحول دون استرجاعها لسيناء. وكان رئيس الحكومة بحاجة الى بذل جهود جبارة كي يفي بقرارة القاطع بالمحافظة على اتفاق السلام مع مصر، وذلك إزاء محاولات شارون ايجاد طريقة لتأخير الانسحاب عدة اسابيع. وكان واضحاً لكل مراقب يعرف بيغن انه لن يترك زمام الامر يفلت من يديه في كل ما يتعلق بالاتفاق مع مصر. فسيناء ستعاد الى مصر في ٢٦ نيسان (ابريل)، كما نص على ذلك إتفاق السلام. وعلى الرغم من ان وزير الدفاع ورئيس شعبة الاستخبارات كانا يؤكدان بقرائن لا تقبل الشك، انه بعد مرور يوم واحد على استرجاع مصر لأرضها، سيأمر الرئيس المصري جيشه بالهجوم على اسرائيل. اما بيغن فلقد تمسك باتفاق السلام، واصر على كلمته وتوقيعه. انه مع ذلك لم يمنع شارون من تنفيذ قراره بتدمير مدينة يميت من اساسها، وتدمير كل المستوطنات الاسرائيلية الموجودة في شمال سيناء. فلقد كان هذا بمثابة متنفس لحنق شارون. على الجلاء الذي نجح.

بعد الرد الاسرائيلي في لبنان، التقى مساعد وزير الخارجية شتاسيل ووزير الدفاع. وكانت هذه مناسبة للبحث بصورة مباشرة، فيما اذا كان هجوم طائرات سلاح الجو ينبىء بتغيير في السياسة، او انه يقرب من ساعة الصفر لغزو لبنان.

سأل السفير لويس الذي كان حاضرا الاجتماع شارون هل ان

اسرائيل تعتبر «الموضوع منتهياً» بعد هجوم طائرات سلاح الجو.

شارون: «من جهتنا نحن انتهينا، ولم نتكبد خسائر».

شتاسل: «الم تنشطوا في بيروت؟»

شارون: «كلا».

لويس: «هل الطرف الثاني سيرد ام لا؟»

شارون: «ما سنفعله سيكون مرتبطاً بما سيفعلونه. لا نية لدينا في القيام بأي عمل. منذ بداية كانون الثاني (يناير)، وقعت ٨١ عملية ارهابية، وسقط لنا ١٣ قتيلا و٦٦ جريحا. سيد لويس، لقد بلغنا المرحلة التي تحدثنا عنها عدة مرات. لم يعد في امكاننا ضبط انفسنا اكثر من ذلك. نحن لا نريد ان نغزو لا سورية ولا لبنان. لكن اذا وقعت عملية تخريبية فسنرد عليها. طبعا لدينا خطط عملياتية مختلفة، وبالتأكيد لدى البنتاغون خطط ايضاً. لكن على الرغم من كل المقالات التي صدرت في الصحف، والجو الذي اوجدته المعارضة لدينا في وسائل الاعلام الدولية فلقد قمنا بعملية محدودة. وفي حال استمرار الهجمات، فإننا سنرد. واذا لم يتدخل السوريون فلن نقوم بأي عمل ضدهم».

شتاسل: «ما الخطوات التي يقوم بها السوريون؟»

شارون: «السوريون يحضرون للحرب، وهم يقومون بعمليات مختلفة».

لويس: «نحن نأمل بألا تؤدي عمليتكم في الشمال الى عملية

مضادة. من جهتنا سنعمل لمنع حدوث تدهور».

شارون: «نحن ايضا لا نريد تدهوراً، لذلك لم نتحرك طوال الاشهر الثمانية الاخيرة».

شتاسل: «نحن نقدّر ذلك، لكن هناك مزايا لوضع يستتب فيه وقف اطلاق النار...».

شارون: «سيدي الوزير، الوضع هو عدم احترام وقف اطلاق النار. لقد بات واضحاً، خلال الايام الاخيرة، ان شيئاً ما ممكن ان يحدث فلماذا انتم عصبيون لهذه الدرجة؟ إن رجالكم في جنرال ديناميكس سعيدون لما حققته طائرات إف ـ ١٦ التي اسقطت طائرات ميغ ـ ٢٣. إن طائراتك تسقط طائرات سوفياتية».

موريس درايبر: «من يعلم الى اين سيقود كل هذا؟»

شتاسل: «اذا قاموا بالهجوم على المستوطنات، فسيؤدي هذا الى الكثير من التعقيدات».

شارون: «لو كانت لي صلة بالمخربين لنصحتهم بعدم المخاطرة».

درايبر: «هذا ما سنفعله».

* * *

طوال ثمانية اشهر، عكف شارون على العمل من اجل تغيير موقف الحكومة من سياسة الاحجام عن التحرك الى أخذ زمام المبادرة من جديد. قال: «لقد عرفت كيف اقنعهم في النهاية». اما اعضاء لجنة الخارجية والامن الذين اجتمعوا بعد هجوم طائرات سلاح الجو

فقد قال لهم: «لقد عدنا الى الوضع الذي لم نعد نرى فيه انفسنا مقيدين، الصعوبة كانت الخروج اول مرة من هذه الحلقة. وسيكون التوجه هو نحو العمليات المحدودة، والبقاء في حالة تأهب. اما اذا ما استجد وضع يتطلب عملية اكبر، فعندها يطرح الموضوع امام الحكومة».

لم يصدق معظم اعضاء لجنة الخارجية والأمن كلمة واحدة مما تفوه به شارون، فلقد ارتابوا به. وظهور احد الرؤساء المسؤولين عن التقدير القومي في اللجنة قد زاد في شكوكهم. ولقد استمع اعضاء اللجنة مندهشين الى ان السوريين اجروا مؤخراً تغييرات ضئيلة جدا في انتشارهم وفي مدى استنفارهم. فسأل رئيس اللجنة إلياهو بين أليسار، من الليكود، الوزير: «ألم يحدث هذا التغيير في الوضع عندما كان الجيش الاسرائيلي في حالة قصوى من الاستنفار، وكذلك في اعقاب العملية الاخيرة؟»

شارون: «صحيح».

داني روزليو من كتلة المعراخ وعضو في اللجنة: «آسف ان اقول ان اللجنة قد كوّنت انطباعاً مخالفاً، إنطلاقاً من التقارير التي قدّمت اليها»...

بن أليسار: «انا ايضاً اعتقد ذلك، فهي لم تكوّن انطباعاً فقط، وإنما حصلت على معلومات مختلفة. أو أن جو المعلومات كان مخالفاً، ما انطباعك يا عضو الكنيست غور؟».

موتي غور، عضو كنيست في المعراخ وسابقاً رئيس للأركان: «لقد كذبوا عن سابق اصرار وتعمد. هذا هو احد التفسيرات لسبب الاحتفاظ بهذا العدد الضخم من القوات العسكرية في الشمال. أنا

أطلب أن يدخل هذا في المحضر».

بن أليسار: «لسنا ملزمين باستخدام كلمات غير برلمانية».

وعلى كل الاحوال، فالتقدير العام للمخابرات الاسرائيلية لم يتغير. فسورية ستكون حاضرة للقيام بعمل ضد اسرائيل خلال اشهر الصيف، حتى لو تحركت لوحدها. والسبب الاساسي لذلك رغبتها في منع المسار السياسي للتوصل الى تسويات بين اسرائيل وجاراتها، في الوقت الذي تجد سورية نفسها فيه معزولة ولا تشارك في هذا المسار.

* * *

في شهر ايار (مايو)، كادت الحرب تقع. ففي يوم الاحد التاسع من الشهر الجاري، ظهر سلاح الجو مجدداً في سماء لبنان. وأُعلن ان هذا هو رد على ٢٣ عملية ارهابية حدثت مؤخراً. وردّ المخربون بقصف كريات شمونة واصبع الجليل والجليل الغربي. كانت الاضرار بسيطة، ولم تقع إصابات وزعم الخبراء ان المخربين قد اخطأوا عن سابق تصميم وتعمد، ولم تكن العملية سوى تعبير عن رفع العتب.

في ١٣ ايار (مايو)، جمع رئيس الحكومة لجنة الخارجية والدفاع. ولم يكن رئيس الحكومة في صحة جيدة، فمنذ حادث انزلاقه في الحمام عانى آلاماً شديدة. ولقد اعترف امام اعضاء اللجنة: «في غرفتي اعمل واكتب الرسائل مستلقيا. اذا اتاني زائر غريب اجلس، اما اذا اتى صديق فأظل مستلقياً». وطلب رئيس الحكومة تقصير الجلسة. فتحدث لمدة ساعة ووافق على البقاء نصف ساعة اخرى. وقال لأعضاء اللجنة: «إني أتألم، غير اني سأكون قادراً على الاجتماع معكم في الأسبوع القادم». من بين رجاله المقربين اثنان فقط التقيا به

في هذه الفترة، هما شارون ورفول. فلقد وجدا لدى بيغن اذناً صاغية. وقبل انتهاء الجلسة قال رئيس الحكومة: «لقد اعلنت ان اتفاق وقف اطلاق النار يكون ساري المفعول إذا كان له تفسير واحد. لا يمكن ان يكون هناك اتفاق له ثلاثة تفسيرات. فعندها لا وجود لهذا الاتفاق. فإذا قالت منظمة التحرير الفلسطينية ان من المسموح لها بأن تقصف يهودا والسامرة وغزة وتل ابيب واشكلون فإن معنى هذا إلغاء الاتفاق». لم يجر الحديث في الجلسة عن نوايا الحكومة. فمناحم بيغن كان تعباً ومريضا.

يوم الأحد في ١٦ ايار (مايو)، اجتمعت الحكومة، وجرى الحديث مجدداً عن «الخطة الكبرى». ولقد اعرب الوزراء عن الكثير من الشكوك، بيد ان شارون نجح في التوصل الى قرار يقول: في حال حدوث خرق جديد لوقف اطلاق النار، يتخذ قرار سريع للقيام بـ«العملية الكبرى». ولقد تم إعلام الولايات المتحدة بهذا القرار وذلك في الرد على الرسالة التي ارسلها وزير الخارجية هيغ الى بيغن. ولقد اكد رئيس الحكومة في ردّه انه في حال تعرض يهودي واحد لعملية ارهابية حتى خارج اسرائيل، واذا ما تم الاعتداء على اي هدف اسرائيلي او يهودي فإن اسرائيل سترد. واذا ما قصف المخربون مرة اخرى الجليل فإن الجيش الاسرائيلي سيدخل لبنان للقضاء على قواعد المخربين مرة واحدة والى الابد.

في ١٩ ايار (مايو)، ذهب اريئيل شارون الى الولايات المتحدة مسلحاً بهذا القرار. في الاساس كانت الزيارة خاصة، وذلك للظهور في لجنة الجباية اليهودية الموحدة في واشنطن، وللاشتراك في مسيرة التضامن مع اسرائيل، التي تجري في كل سنة في نيويورك. ولقد كان من عادة زعماء الدولة الاسرائيلية انهم كانوا في كل مرة يطلبون

التحادث مع زعماء الإدارة الاميركية، يرتبون لانفسهم الدعوات للظهور امام تنظيمات يهودية. ولقد قبلت الادارة الاميركية بصورة عامة مبادىء هذه اللعبة، وبالتالي فإن وزراء الخارجية والدفاع الاسرائيليين كانوا دائماً ضيوفاً مرغوباً فيهم في واشنطن. غير ان دعوة شارون تأخرت هذه المرة لسبب ما. فوزير الدفاع كان غاضباً من الاميركيين. ولقد عبر عن غضبه في المرات التي ظهر فيها علنا. اذ اغضبته العقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة على اسرائيل في اعقاب ضمها للجولان. كما اغضبه عدم دخول مذكرة التفاهم حيز التنفيذ، ولقد بدا كما لو انه وقّع وثيقة لا قيمة لها. واغضبه طبعا نجاح الاميركيين في تأخير دخول الجيش الاسرائيلي الى لبنان. ولقد طلب مكتب وزير الدفاع من سفارة اسرائيل في واشنطن، عدم المبادرة والطلب من رؤساء الإدارة الاميركية تعيين مواعيد لاجتماعات رسمية. ووصلت الدعوة في ٩ ايار (مايو)، في اليوم الذي قصفت فيه طائرات سلاح الجو لبنان. «لا مجال للاختيار. ينبغي التحدث مع صاحب البيت». هذا ما استنتجه بأنفسهم المستشارون في واشنطن في هذا اليوم بالذات. فكتب ألكسندر هيغ الى رئيس الحكومة يقول انه هو وزميله وزير الدفاع غاسبار واينبرغر مهتمان بالاجتماع الى وزير الدفاع من اجل الحديث عن «إعادة الحوار الاستراتيجي بيننا وتعميق النقاش بشأن اعادة كتابة لمذكرة التفاهم وللتجارة الدفاعية» والتي جرى تجميدها ردا على قانون الجولان.

لم يكن واينبرغر يكن مودّة خاصة لنظيره الاسرائيلي. واللقاء بين الرجلين كان فاترا، وجامداً، وغريباً. فلقد اعلن شارون امام واينبرغر قرار اسرائيل بالقيام بعملية في لبنان. وفي الوقت الذي كان يعرض فيه التعليلات المعروفة، كان تقريباً قد وضع الاصبع على الزناد قبل يوم

من ذلك. ذكر شارون ان رئيس الحكومة قد اتصل به وابلغه بمقتل اسرائيليين في باريس. وبعد عدة ساعات، اتصل بيغن مجددا واعلم شارون بأن الاثنين قتلا في غابة بولونيا، والامر لا يعدو كونه جريمة عادية. «لو اتضح ان منظمة التحرير الفلسطينية مسؤولة عن هذا العمل، لكنا تحركنا للقضاء على بنية المخربين التحتية في لبنان» - قال شارون لنظيره - «لا نستطيع تحمل المزيد من العمليات الارهابية كما لا نستطيع ان نعيش في ظل تهديد المخربين الدائم. واذا ما حدث اي شيء، فسوف نتحرك. إن اهدافنا محدودة ونحن لا نريد حرباً مع سورية. فلا تتفاجأوا».

كان جواب واينبرغر مفاجئا: «إن هذه الامور تقع خارج صلاحياتي ويجب ان تتحدث عنها مع وزير الخارجية. اما فيما يختص بالمشكلات العملية للمساعدة، ففي الامكان البحث في مستويات العمل، وبصورة خاصة في موضوع طائرة «ليفي»، وفي الحاجات الاخرى. كما نستطيع مواصلة البحث عند زيارتي لاسرائيل. هذه الموضوعات هي ضمن صلاحياتي. لقد كان مفيداً الاستماع الى المشكلات التي طرحتها. ولكني لا استطيع الحديث إلّا بما فهمته. لكن بما انك تقول ان لا خيار امامكم، فإن هذا المجال ينبغي البحث فيه مع رئيس الجمهورية ووزير الخارجية».

ولقد وافق واينبرغر على القيام بزيارة لاسرائيل خلال شهر آب (اغسطس)، وعلى ابعد تقدير في ايلول (سبتمبر). واضاف شارون بصورة عابرة: «لكن ينبغي انهاء كل شيء حينئذٍ».

اما واينبرغر الذي اراد عدم المشاركة ولو بصورة عابرة عن طريق السمع، فأجاب بشكل خاطف: (آه يا الهي)(*). ولقد انتهى الاجتماع

* الجملة بين قوسين وردت في النص العبري بالانكليزية (المترجم)

بين وزير الدفاع الاميركي ووزير الدفاع الاسرائيلي بشكل غريب.

فلقد وجد الاثنان صعوبة في التوصل الى صيغة بيان مشترك يعطى لوسائل الاعلام. فاقترح واينبرغر ان يقال انه جرى البحث في الموضوعات المتعلقة بحاجات السلاح وشرائه وبيعه لاسرائيل، وان المحادثات ستتواصل، كما جرى الحديث عن تفاصيل الزيارة المرتقبة لواينبرغر الى اسرائيل. غير ان شارون رفض القبول بهذه الصيغة. «لم نتحدث عن السلاح. لقد قدمت وجهة نظرنا بالنسبة الى موضوع العقوبات التي فرضتموها علينا، والتي ننظر اليها بخطورة».

واينبرغر: «ينبغي عدم إدخال موضوع العقوبات».

شارون: «لقد دار البحث حول الاخطار في الشرق الاوسط نتيجة تزويد الاردن خصوصا بسلاح متطور، وحول الخطر على السلام من جانب المخربين، وحول مشكلة العراق وايران».

واينبرغر: «لقد سررت بلقائك، يسعدني ان اراك ثانية سواء هنا او في اسرائيل».

* * *

لقد كان بين وزير الخارجية هيغ وشارون انسجام من نوع خاص. فلقد كان الاثنان جنرالين متقاعدين، اتاح لهما القدر تبوء مناصب حساسة ومهمة على الصعيد القومي في دولتيهما. ولقد اخذ شارون الحق في الكلام ليعرض وجهات نظره بشأن الوضع الدولي، والمشكلات المطروحة امام الدول الاوروبية، وبشأن سبل حل هذه المشكلات. فلقد اعتقد ان الجنرالات الاميركيين الذي التقاهم لا يفهمون شيئاً، «متى حاربوا آخر مرة؟ إن لأي قائد كتيبة لدينا خبرة اكبر من تلك التي لهؤلاء الجنرالات مجتمعين».

ولقد بدا لمستشاري وزير الدفاع ان هيغ معجب به. ولقد كانت هناك دلائل على ذلك من مصادر اخرى، ليست في مجال نفوذ شارون.

شمل الحديث بين شارون وهيغ موضوعات شاملة. بيد ان الموضوع الاساسي كان طبعا لبنان. وبصراحة، اعلم شارون هيغ بأن اسرائيل قررت القيام بعملية في لبنان: «لم نعد نرى طريقة اخرى غير الدخول وتطهير المنطقة. سنطهر لبنان من بنية منظمة التحرير التحتية العسكرية والسياسية، الأمر الذي يريحنا منهم لسنوات عديدة. ليس هدفنا اقامة نظام لبناني مستقل، ولا إخراج السوريين، لكن من الممكن ان يكون ذلك من النتائج الجانبية»...

وظلت اصداء جواب هيغ تتردد اياماً عدة لدى شارون وبيغن: «نحن نتفهم اهدافكم» - قال وزير الخارجية الاميركي. «لقدكانت لي نقاشات طويلة مع رئيس الحكومة ولدى العرب الكثير من الخبث. لذا فإني اشعر بأن ثمة تغييراً ما فيما يتعلق بموضوع الاستفزاز، وكحلفاء لا نستطيع ان نقول لكم انه يجب عدم الدفاع عن مصالحكم. لكن هناك وجهتا نظر يجب اخذهما بعين الاعتبار: الحقيقةوالنسبية. بالنسبة اليكم قتيل واحد هو مبرر كافٍ. لكن عندما يبدأ الامر يصبح مثل لعبة البولينغ. كل ما استطيع ان اقوله اننا نفهم مشكلتكم. وآمل بأن تفهموا الناحية الدولية من الامر وتتحسسونها. وليكن معلوما ان الاستفزاز هنا هو المهم وليس اسلوب المعاملة بالمثل. يجب إيجاد السبيل لحل هذه المشكلة وإيجاد ظروف جديدة. نحن نريد وربما اكثر منكم، ان نرى السوريين خارج لبنان، وان نرى حكومة لبنانية قوية وصديقة لاسرائيل. ونحن نريد ان تتراجع منظمة التحرير الفلسطينية الى الوراء».

وبات شارون مستعداً للعودة الى البلد، ولما كان هو الذي اراد وقرر القيام بعملية كبيرة في لبنان، فلقد حصل بحسب رأيه على الضوء الاخضر من الولايات المتحدة الاميركية. ولقد حاول فيليب حبيب، الذي كان حاضرا اللقاء بين شارون وهيغ، ان يضع حداً للتدهور، فقال انه ينوي الحضور الى المنطقة خلال وقت قصير لمعالجة الوضع المعقد. غير ان شارون كان نافذ الصبر: «متى ستأتي؟ إذا قتل احد غداً، فنحن سنتحرك».

لقد اهتم هيغ لمعرفة النطاق الذي سيعمل من خلاله الجيش الاسرائيلي في لبنان. وقال انه خرج سابقاً بانطباع مع رئيس الحكومة، بأنه في حال حدوث عملية فإنها ستكون «خطوة مهمة» Substantial move. لكنه شعر بعد فترة من الزمن بأن ثمة تغيرا طرأ على نهج اسرائيل، والقصد هو Major retalation «الرد بضربة رئيسية» وهنا يتشكل انطباع بأن اسرائيل تخطط لخطوة جوهرية.

وأجاب شارون بأن لاسرائيل حكومة ديمقراطية، وهي التي تقرر. غير ان هيغ عاد فألح وطلب معرفة نطاق العملية.

شارون: «انا افهم قلقكم. لا اعتقد انها ستكون عملية واسعة جداً. نحن نريد تجنب الحرب. سنبذل جهدنا لجعل ذلك ضمن نطاق محدود، لكن ناجع بقدر الامكان». بعد ذلك اجتمع شارون على انفراد مع هيغ، وجرت بينهما احاديث كتلك التي جرت بين هيغ وبيغن. فهل حصل شارون على اشارات جديدة بشأن موافقةهيغ على غزو لبنان؟ هذا ما لا يمكن معرفته. فالصندوق الاسود الذي سجل الحديث ما لبث ان تحطم.

في اثناء زيارة شارون للولايات المتحدة، حدثت مشكلة. فلقد

سرّبت الادارة الاميركية الى وسائل الاعلام نبأ قيام اسرائيل بشراء سلاح لايران، وفي ضوء شعور الاحباط والجفاء الذي كان يطبع موقف الولايات المتحدة من نظام الخميني. وكان من السهل التوقع ان مثل هذه الاخبار لا يربك اسرائيل. وفي الواقع اكد شارون الوقائع، لكنه إدّعى ان المقصود هو تزويد إيران بكميات قليلة ومحدودة من السلاح.

* * *

في شهر حزيران (يونيو)، وقعت الحرب. ففي ليل يوم الخميس في ٣ حزيران (يونيو)، اطلق مخرب النار على رأس السفير الاسرائيلي في بريطانيا، شلومو آرغوف. وحدث ذلك لدى خروج السفير من استقبال في فندق دورتشستر في لندن. ولقد علم بيغن بالاعتداء في ساعة متقدمة من الفجر. وكان مضطرباً جدا. فلقد كان آرغوف احد الدبلوماسيين اللامعين في جهاز الخارجية الاسرائيلية. وكان بيغن يحبه كثيراً. وفي النهار نفسه، طلب دعوة الوزراء للاجتماع في جلسة خاصة. والجميع كانوا يعلمون انه ليس في امكانهم ان يرفضوا طلب رئيس الحكومة. وبعد مرور عدة اشهر يذكر احد الوزراء انه وزملاؤه كانوا ضائعين، وعلاوة على ذلك فقد حدث الشيء الذي كنا ملزمين بالرد عليه» ولا أحد يدري ما إذا كان غياب وزير الدفاع بالذات عن الجلسة، قد ساعد في اتخاذ القرار. فلقد كان شارون في تلك الفترة في رحلة سرية خارج البلد برفقة زوجته وابنيه، ومستشاريه المقربين.

اقترح رئيس الاركان على الوزراء الموافقة على قصف تسعة اهداف في بيروت، وسبعة اهداف في الجنوب اللبناني. وكان هناك بعض الوزراء الذين طلبوا عدم قصف بيروت كي لا يصاب المدنيون. وفي النهاية، تم الاتفاق على قصف ثلاثة اهداف في الجنوب اللبناني

وهدفين في بيروت هما: المدينة الرياضية التي تحولت الى مخزن للسلاح الثقيل لمنظمة التحرير، ومركز للتدريب في مداخل المدينة. ولقد تمت الموافقة على الاقتراح بالاجماع، وعلم الوزراء بوضوح ان هذا القرار من شأنه ان يؤدي الى الحرب الشاملة. ولقد سمح رئيس الحكومة باستخدام سلاح الجو يوم السبت، اذا ما رد المخربون بقصف مستوطنات الشمال..

وهذا ما حدث، فلقد تساقطت على مستوطنات الشمال آلاف القذائف. ولقد ردّت طائرات سلاح الجو على ذلك بالحرب.

قرر شارون انهاء زيارته السرية لأوروبا. وفي كل الاحوال، لم تكن لوزير الدفاع اجتماعات عمل عديدة. فلقد صرف شارون برفقة عائلته ومستشاريه المقربين وقته في النزهات ودعوات الطعام السخية. لكنه عقد اجتماعي عمل قصيرين. وكان واضحاً بالنسبة الى مضيفيه انه ينبغي الا تكون هناك نتائج عملية للزيارة. ولقد انتظرته الطائرة لتقله هو وعائلته الى اسرائيل. وعلق سفير اسرائيل في تلك الدولة الاوروبية على زيارة شارون بكلمة واحدة: «فضيحة».

وفي اسرائيل بدأت تعبئة الاحتياطيين، وباتت حركة القوات في اتجاه الشمال منتظمة. لقد اصبحت الاستنفارات في الاشهر الاخيرة بمثابة عادة، لكن بفارق واحد: هذه المرة استنفار حقيقي. فالحرب التي كثر الحديث عنها تكاد تقع بعد ساعات معدودة.

الفصل السابع : حرب بكل معنى الكلمة

«يمكن معرفة كيف تبدأ الحرب، لكن لا يمكن معرفة متى تنتهي وكيف»؛ هذه الكلمات التي قالها رئيس الحكومة مناحم بيغن في بداية الحرب بلبنان سرعان ما تحققت. في نهاية الاسبوع الاول للحرب، يوم الجمعة ١١ حزيران (يونيو) ١٩٨٢، اعلنت اسرائيل وقفاً لإطلاق النار من جانب واحد صمد ساعتين تقريبا. ومساء يوم السبت تم الاتفاق على وقف ثان لاطلاق النار، كما انه خلال الاشهر التالية اعلن عدد غير محدود لوقف اطلاق النار.

شن مناحم بيغن الحرب عن طريق اقناع عميق بصحة عمله. وعندما جمع الوزراء ليلة السبت في ٥ حزيران (يونيو)، في مقره الرسمي بالقدس، لم يكن امام الوزراء إلا ان يرفعوا ايديهم ويشاركوه في الرأي: «انتم تعرفون ماذا فعلتُ وفعلنا لنمنع الحرب والثكل. لكن قدرنا في ارض ـ اسرائيل، ان لا مفر امامنا من القتال بتفان. وإلا فالبديل اوشفيتس*. وقرارنا الواضح هو ألا يكون هناك بعد اليوم اوشفيتس جديد. وهذه هي اللحظة التي ينبغي اختيارها بدقة. وعلى

* اسم احد معسكرات الاعتقال اقامه النازيون على الحدود بين بولونيا وألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

الاشرار (هكذا درج بيغن على تسمية المخربين) وعلى العالم ان يعرفوا ان للشعب اليهودي الحق في الدفاع عن نفسه كأي شعب آخر.

خلال الجلسة جرت عدة محاولات لتأجيل الحرب، لكن وزيرا واحدا فقط صوت ضدها، هو يتسحاق بيرمن. كان الجيش الاسرائيلي قد اوشك على دخول لبنان عبر ثلاثة محاور اساسية: محور الساحل في اتجاه صور وجسور القاسمية وصيدا؛ ومحور الوسط، من منطقة كيبوتس المنارة ومسغاف عام نحو جسر القعقعية (جسر قائم وسط المنطقة على نهر الليطاني)، ومن هناك لشن هجوم على المنطقة الواقعة وراء مرتفعات النبطية وعلى منطقة الشقيف، ومن ثم التوجه نحو صيدا ونهر الزهراني حتى الوصول الى مدى ٤٠ كيلومترا؛ ومحور ثالث شرقي، عن طريق جبل الشيخ. وكان على القوات ان تصل الى مدى ٤٠ كيلومترا جنوبي المواقع السورية الامامية. كان المخربون يحتفظون في هذه المواقع بمدافع وراجمات ثقيلة. وتقرر تجنب الاحتكاك بالسوريين، وانما تهديد ميمنتهم وميسرتهم فقط.

حدد البيان الذي اذاعته الحكومة على الملأ اهداف العملية وغاياتها: «قررت حكومة اسرائيل تكليف الجيش الاسرائيلي مهمة اخراج مستوطنات الجليل من مدى نار الارهابيين المتمركزين هم وقياداتهم وقواعدهم في لبنان. اسم العملية: «سلامة الجليل». وفي اثناء تنفيذ هذا القرار، لن نهاجم الجيش السوري إلا اذا هاجم قواتنا. وتواصل دولة اسرائيل التطلع الى توقيع اتفاق سلام مع لبنان المستقل، وذلك من خلال المحافظة على سلامة اراضيه».

اصدر رئيس الحكومة الى رئيس الاركان تعليمات بأن يدون في كل وثيقة وخريطة تتعلق بخطة العملية اسم «سلامة الجليل»، ويحذف اسم الشيفرة الذي وضعته هيئة الاركان العامة للعملية، وهو «أورانيم».

وغاية بيغن من ذلك ان يعرف كل جندي اسم العملية والسبب الذي من اجله يحارب. لكن بعد مرور عدة ايام، كان لهذه التعليمات نتائج مدمرة. اذ ان بيغن سبّب بكلامه في تسريع عملية زوال الثقة التي كانت قد بدأت تتغلغل في اوساط الجنود تجاه القيادة التي ارسلتهم الى الحرب في لبنان. اذ عندما حاصر جنود الجيش الاسرائيلي بيروت الغربية، سمعوا من رئيس الاركان رفائيل ايتان، شخصيا، تفسيرا آخر لصوابية الحرب. ففي لحظة من الصدق وبلغة بسيطة كشف رفول لجنوده النقاب عن احد الاهداف الحقيقية والبعيدة المدى لعملية «سلامة الجليل»: «إننا نخوض معركة ارض ـ اسرائيل»، هذا ما اعلنه الرجل المعروف بتأييده للسيطرة الاسرائيلية على كل ارض ـ اسرائيل. ان «سلامة الجليل» لا تنتهي اذن بإزالة التهديدات العسكرية المباشرة لأمن مستوطنات الشمال، وانما تنتهي بالمعالجة الجذرية لمسألة وجود القيادة الفلسطينية في بيروت. وهكذا قدم رئيس الحكومة ووزير الدفاع ورئيس الاركان خلال القتال في لبنان، اكثر من التلميح الى النية الحقيقية التي من اجلها شنوا الحرب. وعندما يتضح لأريئيل شارون ان الحرب على وشك الانتهاء بعد خروج المخربين من بيروت، سيعلن ضرورة الشروع في اجراء اتصالات بعرب المناطق من اجل الحكم الذاتي ـ مشروع للحكم الذاتي لم يقبله احد سوى الحكومة.

كان من المفروض ان تنتهي العملية، الى ابعد حد، بعد ثماني واربعين ساعة من بدئها، كما اكد المخططون لها. وبهذا اليقين خرج الوزراء من جلسة الحكومة يوم الاحد في ٦ حزيران (يونيو). وخرج شلومو لورانس عضو الكنيست ـ اغودات يسرائيل ـ من اجتماعه الى رئيس الحكومة ليعلن امام الميكروفونات التي وجهها اليه عشرات الصحافيين الذين كانوا هناك: «قال لنا رئيس الحكومة ان المقصود هو

عملية محدودة، تستمر ٤٨ ساعة».

عندما سئل وزير الدفاع في جلسة الحكومة، في اليوم الاول للحرب، الى اي مدى سيتوغل الجيش الاسرائيلي في لبنان، اجاب زملاءه الوزراء، كما اجاب اعضاء لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست، فيما بعد، بأن النية هي التوقف عند مسافة ٤٠ كيلومترا من حدود اسرائيل الشمالية. وقد بدا مناحم بيغن، في العلن على الاقل، كمن آمن بذلك. فعندما مثل امام الكنيست في الاسبوع الاول للحرب قال: «اذا ما حققنا خط الـ ٤٠ كيلومترا وراء حدودنا الشمالية نكون قد انجزنا المهمة ويتوقف القتال تماما». وفي الرسالة التي بعث بها خلال الاسبوع نفسه الى رئيس الولايات المتحدة، اوضح ان القصد هو تطهير المنطقة من المخربين في قطاع يمتد ٤٠ كيلومترا من حدود اسرائيل الشمالية.

بعد نشوب المعارك، توقفت المواجهات بين الحكومة وأكبر كتلة في المعارضة. فقال شمعون بيريس رئيس حزب العمل وعضو الكنيست، خلال جلسة لجنة الخارجية والامن التي عقدت يوم الاحد، ان «على الجميع الوقوف يدا واحدة وراء هذه العملية. وليس سرا انه كانت هناك عشية العملية خلافات في الرأي، وسوف ينشب مثلها في المستقبل، لكننا جميعا وطنيون. انني اقترح ألا يخطر ببال احد رأي مخالف ما دامت العملية مستمرة. وينبغي ان يكون الاعتبار الاول بالنسبة الينا جميعا، مؤيدين ومعارضين، هو سلامة الجنود وسلامة المستوطنات... ففي اللحظة التي بدأت فيها الحرب نتضرع ونصلي كلنا مع الجيش من اجل سلامة جنودنا».

قلائل هم الذين سمحوا للحقائق التي كان يمكن الاشارة اليها منذ بداية الحرب، بأن تزعزع وحدة الصف. فقد دخل الجيش الاسرائيلي

لبنان عبر ثلاثة رؤوس. في اليوم الاول للحرب كانت مئات الدبابات قد اصبحت في لبنان. علاوة على ذلك، ومن اجل الحؤول دون حدوث مفاجآت تمت تعبئة قوات جديدة ارسلت الى هضبة الجولان. وفي اليوم الثاني من الحرب اصبح في هضبة الجولان اكثر من بضع مئات من الدبابات شكلت قوة هائلة قياسا بالقوة التي كانت عشية حرب يوم الغفران (١٩٧٣)، عندما كانت في المنطقة آنذاك نحو مائتي دبابة. ان الحكومة لم تقر تنفيذ «الخطة الكبرى»، وانما انزلقت اليها. فالذي اصدر الاوامر الى اوغدوت* الجيش الاسرائيلي بالدخول الى البقاع اللبناني، في المحورين الاوسط والغربي، كان يعلم ان هذه القوات لم تكن مكرسة لمحاربة المنظمات الفلسطينية في لبنان، وإنما «لمعالجة» التدخل السوري مما يعني نشوب حرب شاملة ضد السوريين في لبنان.

في اليوم الثاني من الحرب، قررت الحكومة توسيع توغل قوات الجيش الاسرائيلي في عمق لبنان لتهديد جناح الجيش السوري، فيلجأ السوريون، كما افتُرض، الى اخراج المخربين الموجودين في قطاعهم. بيد ان السوريين اعتبروا هذه الخطوة الاسرائيلية تهديدا لصميم الوجود السوري في لبنان. ولم يكن السوريون مستعدين للمخاطرة والرد بالحرب، اذ انهم يتذكرون المفاجآت التي داهمتهم بها اسرائيل في الماضي، علاوة على ان تدمير المفاعل النووي في العراق كان لا يزال ماثلا في اذهانهم.

كان قادة الجيش الاسرائيلي يعلمون بأنهم سيصلون الى بيروت. فقد ادركوا ان عملية مخططا لها ان تنتهي في غضون ثماني واربعين ساعة، لا تتطلب ادخال قوات بهذا الحجم الكبير. ان جنود الجيش

* اوغدوت ومفردها اوغداه اي ما يوازي فرقة. (المترجم)

الاسرائيلي خرجوا الى الحرب نتيجة قرار المرتبة السياسية بدخول لبنان؛ أما الباقي فتكفلّه لهم وزير الدفاع ورئيس الاركان اللذان استعانا بعاملين: مجريات الاحداث على الارض، وغبار المعارك. وقد ساعدت مثل هذه المعطيات في حروب سابقة قادة الجيش على استصدار قرارات واذونات بمواصلة المعارك والتقدم ميدانيا نحو اهداف جديدة لم تكن امامهم من قبل. ومنذ مثول وزير الدفاع اول مرة امام لجنة الخارجية والامن، لمّح شارون الى التطورات المستقبلية. اذ قال لأعضاء اللجنة: «قررت الحكومة ابعاد مستوطنات الشمال عن مدى صواريخ المخربين ومدفعيتهم، غير ان المخربين يحتفظون بوسائل قتالية في عمق المنطقة السورية. ولذا ظهرت معضلة صعبة. ومن الجائز الا نقدم على شيء بسبب السوريين، ويبقى المخربون على مسافة كيلومترات معدودة. وهذا من اكثر الامور خطورة التي من شأنها ان تحدث. فبعد ان قمنا بهذه العملية، ستبدأ القذائف تتساقط على اصبع الجليل، وعندها ماذا سيقال لنا: خرجتم الى الحرب ولم تحلوا المشكلة التي من اجلها خرجتم»...

إن جو الوحدة الذي سعى شمعون بيريس لاضفائه لم يستمر وقتا طويلا. فقد ساد اسبوعا واحدا، وهو الاسبوع الاول من الحرب، ومن ثم أستمرت دورة الحياة في البلد كما لو ان شيئا لم يحدث. ففي حين كان جنود الجيش الاسرائيلي يحاربون في لبنان كانت الشواطىء تعج بالمستحمين، وكانت المقاهي وسط البلد تضج بالناس. وعائلات المقاتلين وحدها كانت مشدودة الى اجهزة الراديو التي كانت تبشر تارة بوقف اطلاق النار وباستئنافه ردا على نيران المخربين وتارة اخرى بتقدم قوات الجيش الاسرائيلي شمالا. اما الاجماع الوطني، هذا اذا كان قائما فعلا، فقد اخذ ينحسر كلما كانت تتسرب أصداء المناقشات

في الحكومة بشأن الانحرافات والعمليات غير المصادق عليها، وكلما كانت تصل الانباء من الميدان.

ونظرا الى عدم وجود مجلس للأمن القومي تابع لدائرة رئيس الحكومة، او مستشار يقدم للحكومة توصيات موضوعية، فقد كان الوزراء يستمدون معلوماتهم من الاخبار والتقويمات التي يزودهم بها الجيش واجهزة الاستخبارات. فعلى سبيل المثال، لو ان قرار شن الحرب بحث فيه وفقا للتقويمات التي تبلورت لدى الجهات المسؤولة عن التقويم في شعبة الاستخبارات التابعة للجيش الاسرائيلي، لما كانت هناك قط ضمانة بأن هذا القرار سيدخل حيز التنفيذ. فقد تبين من الوثيقة التي وزعتها تلك الجهات على الوزراء، ان من المستحيل تقريبا تحقيق نتائج بعيدة المدى من الحرب في لبنان. وكان التقويم السائد هو ان الوقت الذي تحتاج اليه اسرائيل لاحداث تغيير سياسي جوهري في لبنان، انما هو طويل نسبيا ومن شأنه ان يختصر نتيجة ضغوطات خارجية من اجل انسحاب فوري. وكان في تقدير شعبة الاستخبارات العسكرية ان اسرائيل ستطالب بحزم بالجلاء عن المنطقة التي ميطر عليها الجيش الاسرائيلي، وستهدِّد بإنزال عقوبات بها اذا لم تفعل، وذلك من دون الاخذ بمطلبها ملء الفراغ الذي سينشأ في اعقاب انسحابها، بقوات تحظى برضاها. وبعد الانسحاب سيجري الحوار الداخلي في لبنان في ظل الوجود السوري في البقاع والشمال، وبالتالي فإن فرص نجاحه ستكون ضئيلة. ولن يكون في قدرة المسيحيين الاستمرار في السيطرة على المناطق التي احتلتها اسرائيل. ومن شأن صورة الحكم المركزي، بعد انسحاب الجيش الاسرائيلي، ان تكون اقل قبولا لدى اسرائيل.

لم يدرج الوزراء على الاخذ بالتقويمات التي كان يدلي بها رئيس

شعبة الاستخبارات. وكان بعضهم يرتاب به بأنه رجل شارون. فلم يتحقق الكثير من تقويماته، التي كانت على جانب كبير من التشاؤم. ان الوثائق التي قدمتها شعبة الاستخبارات للوزراء عشية نشوب الحرب عرضت الاحتمالات كافة، وتجنبت الجزم الواضح والمبين بشأن اي من الاحتمالات تعتبره قابلا للتحقيق اكثر من غيره. اذ ان المسؤولين عن الاستخبارات كانوا عشية حرب لبنان لا يزالون تحت تأثير صدمة حرب يوم الغفران التي ادت الى تنحية الاشخاص الذين كانوا يترأسون هذه الشعبة.

خيّب بشير الجميل الآمال منذ اليوم الثالث للحرب. لذلك تقرر عدم ابلاغ المسيحيين ببدء المعارك، خوفا من ان يتسرب السر من صفوفهم الى السوريين. وفي ليلة اليوم الثالث من الحرب، احضر بشير للاجتماع الى صديقه المقرب، رئيس هيئة الاركان رفائيل ايتان. والتقى كلاهما بالقرب من موقع القيادة بغية اطلاع بشير على آخر تحركات الحرب والنوايا المستقبلية. وطرحت ايضا مسألة كيفية انخراط المسيحيين في الحرب. وروى بشير في احد لقاءاته مع شارون، انه اعد سرايا للدفاع الاقليمي في القرى المسيحية التي يسيطر عليها. وطرحت نية امكان قيام هذه القوات بمساعدة الجيش الاسرائيلي في القطاع الاوسط بعد احتلال هذه المنطقة. ولم يعهد الى المسيحيين اي دور آخر في تلك المرحلة. لكن رفول اعد لبشير مفاجأة صغيرة. ففي غرفة مجاورة كان ينتظر ضيف آخر، الرائد سعد حداد الذي حضر مرتديا زيه العسكري الانيق. واراد رفول ان يجعل هذين الرجلين اللبنانيين يصافحان بعضهما بعضا. وأخيرا حانت لهما الفرصة السانحة اذ ان اسرائيل ستقدم لهما بعض اقسام الوطن ليسيطرا عليها. وربما كان هذا بالذات هو السبب الاساسي الذي حدا

بشيرا على عدم مصافحة حداد. «ربما في مرة اخرى» ـ قال لرفول ـ «انني لا استطيع ان اسمح لنفسي بالاجتماع اليه الآن». وكان حداد يعتبر في نظر الكتائب منافسا ومسببا في تشتت الجهد المسيحي. كما ان من شأن مصالحته ان تضر بفرص بشير في الوصول الى كرسي الرئاسة. اذ لا مكان في لبنان لبطلين. وهكذا لم يتم «اللقاء التاريخي». ووجد رئيس الحكومة صعوبة لفهم هذه المسألة كلها.

ولقد خيّب بشير الآمال ايضا وقت «الاتصال» [المقصود الاتصال بين قوات اسرائيل والكتائب]. فلقد عرض الجميل على رئيس الاركان وقادة الجيش الاسرائيلي، في ليل ١٢ حزيران (يونيو)، الطريق الملتوية التي لم تكن مرسومة على الخريطة للاتصال بالاحياء المسيحية في بيروت الشرقية. كان الجيش الاسرائيلي يقف على ابواب بيروت، وبالتالي بات وعد شارون لقادة المسيحيين بوصول الجيش الاسرائيلي على وشك ان يتحقق. غير ان الاشخاص الاسرائيليين الذين حضروا الاجتماع التوجيهي مع بشير، لم يروا دلائل الفرح على وجهه. اذ بدا قلقاً ومهموماً. هل سيستكمل الجيش الاسرائيلي إنجاز «المهمة»؟ فبالنسبة اليه اقترب الوقت الذي سيضطر فيه المسيحيون تحت قيادته الى دفع ثمن حصتهم في الصفقة.

اصدر وزير الدفاع تعليمات الى رئيس الاركان بعدم دخول بيروت ليلة «الاتصال» بالمسيحيين. اراد شارون الاحتفاظ بهذه التجربة لنفسه. وكقيصر روماني يدخل عاصمة محتلة، ظهرت في اليوم التالي صور شارون معتمراً الخوذة، وبوجه جامد يقف على ناقلة جند تدخل ببطء بيروت الشرقية.

استجاب رئيس الاركان الذي بقي في المؤخرة عن طيبة خاطر،

لدعوة بشير الى السفر معه الى جونية، مكان اللقاء التقليدي والدائم منذ عدة سنوات مع الكتائب، وذلك لكي يستحم ويتناول الطعام، ومن ثم يتابع المهمات الموكولة اليه. وهكذا انطلقت القافلة تتقدمها سيارة من طراز اميركي فخم يقودها بشير بنفسه، ومعه رئيس الاركان ومرافقه العسكري. اما في المقعد الخلفي «للتاكسي»، وهي التسمية التي اطلقها القادة العسكريون على سيارة بشير، فكان يجلس قائد المنطقة الشمالية امير دروري، ومستشار وزير الدفاع لشؤون الامن القومي اللواء ابراهام تمير، والعميد عاموس يارون الذي كان قائداً لقوات الجيش الاسرائيلي في بيروت. أما في السيارة الثانية التي كانت من طراز اميركي ايضا وانيقة جدا فجلس بعض مستشاري بشير وحراسه المسلحين. وفي المؤخرة سارت سيارة رئيس الاركان. كانت الطريق الى جونية مروراً ببيروت مزروعة بالدبابات والمركبات السورية المحترقة. ولم تكن المعركة على مشارف بيروت الشرقية قد انتهت. فالقوات السورية كانت تضرب وتدافع. وأبطأت القافلة من سيرها كي يستطيع ركابها ان يروا على جوانب الطرقات العشرات من الجثث المحترقة للجنود السوريين والفلسطينيين.

فجأة اطلقت النار في اتجاه السيارات الثلاث. فأدار بشير مقود السيارة نحو اليسار واوقفها، وقفز بذعر الى الخارج باحثاً عن مخبأ وراء جدار من الحجارة قريب. وتوقفت القافلة. اما مستشارو بشير فقد قفزوا وراءه وانتشر حراسه حول المكان وهم يوجهون بنادقهم في كل اتجاه.

اما الاسرائيليون، رئيس الاركان واللواءان، فقد ظلوا في السيارة، وخوفهم الوحيد لم يكن من السوريين، لكن من لجوء حراس بشير الى اطلاق النار. وبعد مضي فترة من الزمن عاد بشير الى السيارة شاحبا

كالجص، اعتذر وضغط على دعسة البنزين، وانطلقت القافلة الى جونية.

* * *

كان رئيس الولايات المتحدة رونالد ريغان، خلال الاسبوع الاول للحرب، في اوروبا. ان التلميحات والبيانات التي صدرت عن الادارة الاميركية لم تقلق حكومة اسرائيل. ولدى نشوب المعارك، أرسل فيليب حبيب الى المنطقة وبعد المحادثات التي اجراها مع رئيس الحكومة ووزير الدفاع، ذكرت مصادر حكومية ان حبيب لم يكشف عن معارضة شديدة للخطوة الاسرائيلية. ولقد ذكر شارون امام لجنة الخارجية والأمن ان حبيب قد سأله فقط متى تنتهي المعركة. وقيل للاميركيين، خلال الاسبوع الاول للمعارك، ان المسألة هي «مسألة ايام».

أتى التدخل الاميركي بعد ان تم تشغيل «الخط الاحمر» بين الرئيس ريغان وزعيم الاتحاد السوفياتي ليونيد بريجنيف. ففي الساعة الثانية فجراً من اليوم الخامس للحرب، اجتمع سفير الولايات المتحدة في اسرائيل الى رئيس الحكومة. طلب سام لويس باسم الرئيس ايقاف المعارك في الساعة السادسة صباحاً، لأن بريجنيف قد لمح لريغان الى ان استمرار نشاط اسرائيل العسكري في لبنان قد يؤدي الى تدهور الوضع نحو مواجهة شاملة بين الكتلتين في مناطق اخرى. اما بيغن الذي استقبل السفير الاميركي وهو يرتدي بذلة وربطة عنق (ولقد روى من بعدها للوزراء، كيف ان رئيس الحكومة المتوفى ليفي اشكول، استقبل مرة السفير السوفياتي في البلد في ساعة متأخرة من الليل وهو يرتدي لباس النوم، لكنه هو الرجل الانيق لم يسمح لنفسه بتصرف كهذا). فقد تعهد له بأن يعطيه جواب اسرائيل بشكل سريع.

دعيت الحكومة الى الاجتماع في الساعة الرابعة فجرا، وفي نهاية الجلسة ردت على الطلب الاميركي بصورة سلبية، لكن بصيغة دبلوماسية ايجابية. وقال وزير الدفاع ورئيس الاركان للوزراء انهما مضطران الى القتال يومين آخرين ايضا.

اما في واشنطن فقد اختلفت الآراء بشأن كيفية الرد على الغزو الاسرائيلي للبنان. فالمستشارون المقربون من الرئيس، امثال جيمس أ. بيكر، وأدوين ميس، ومايكل ك. ديوار، الذين كان هيغ يطلق عليهم «المسخ ذا الرؤوس الثلاثة»، وكذلك وزير الدفاع واينبرغر، ومستشار الامن القومي القاضي جيمس كلارك، اوصوا الرئيس بانتهاج سياسة حازمة، او اي طريقة اخرى ملائمة لذلك.

كان وزير الخارجية ألكسندر هيغ وحيدا في تأييده الذي يكاد يكون غير محدود لمناحم بيغن وحكومته. وكان ينوي زيارة اسرائيل في نهاية الاسبوع الاول للمعارك، غير ان البيت الابيض منعه من ذلك. كانت حاشية الرئيس في ذلك الوقت في بون، فاتصل هيغ في ساعة مبكرة من الصباح بكلارك ليخبره بأن رئيس الحكومة بيغن يطلب منه الحضور الى اسرائيل فورا. غير ان كلارك اجاب بأن الموضوع يبدو له خطراً، وهو لا يعرف ما هي دوافع بيغن. ولقد ايد الرئيس ريغان هذا الموقف. وهكذا لم تدخل الزيارة حيز التنفيذ.

كانت اسرائيل قد اصبحت على ابواب بيروت عندما سافر رئيس الحكومة برفقة مساعديه ورئيس شعبة الاستخبارات في الجيش الاسرائيلي في ١٥ حزيران (يونيو) الى الولايات المتحدة. لقد جرى التخطيط لهذه الزيارة قبل الحرب، إلا أن الاحداث زادت في ضرورة التفاهم بين الدولتين.

أراد ألكسندر هيغ الاجتماع الى بيغن قبل وصوله الى واشنطن، اذ كان هناك عدد من الموضوعات بحاجة الى توضيح. كان من المفضل ان يتم ذلك على انفراد، من دون ان يعلم به اشخاص آخرون في الادارة. وكان هناك طلب من شأن عدم الاستجابة له ان يعرض منصب هيغ كوزير للخارجية للخطر. ولقد جرى اللقاء في نيويورك في فندق ولدورف ـ استوريا الفخم، الذي كان يستهوي رئيس الحكومة، حيث اتى هيغ لتناول الافطار مع بيغن. وطلب هيغ تمكين ممثل الرئيس، فيليب حبيب، الذي كان في المنطقة منذ نشوب المعارك، من محاولة التوصل الى اتفاق يضمن خروج المخربين من بيروت، من دون ان يلحق بهم اي سوء. ولقد طُلب من اسرائيل إيقاف إطلاق النار لمدة ثماني واربعين ساعة. فلم يكن هناك اي شيء يثير التخوف في نظر الادارة الاميركية اكثر من امكان دخول اسرائيل بيروت. وأوصى مناحم بيغن بقبول الطلب الاميركي، وتوقف اطلاق النار لمدة ٤٨ ساعة.

في اللقاء المنفرد الذي تم بين بيغن وهيغ، اتفق الاثنان على العمل الذي يجب القيام به مستقبلا في لبنان. ولقد حرص رئيس الحكومة على نقل مضمون الحديث الى القدس، ليعرف الوزراء ان اسرائيل ليست معزولة. قال هيغ لبيغن انه مقتنع بأن على اسرائيل انهاء المهمة والقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت الغربية، لكن من المحبذ ان تقوم القوات اللبنانية بذلك. وابدى بيغن ملاحظة بقوله انه من المحتمل ان تحتاج القوات اللبنانية الى مساعدة اسرائيلية. فأجاب هيغ بأنه يدرك ذلك، لكن من الافضل ان يتم ذلك بأسرع وقت ممكن. وطلب وزير الخارجية عدم اقتباس كلامه، لأن هناك خلافات حادة في الآراء وبصورة متطرفة بشأن موضوع الحرب في لبنان. واسرّ هيغ الى بيغن بأن الرئيس قرر عدم مقابلته في اثناء

زيارته للولايات المتحدة. والادهى من ذلك، ان هيغ نفسه مُنع من الاجتماع اليه. وبذل جهدا مضنيا لتغيير قرار الرئيس هذا.

في اعقاب الحديث مع هيغ، اصدر بيغن التعليمات «بالاعداد لمرحلة القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت بواسطة القوات اللبنانية ومساعدتنا، وذلك في اقصر وقت ممكن».

ومن اسرائيل واصل شارون «قصف» بيغن بالبرقيات والاخبار عن التطورات على الجبهة. وفي احد الاجتماعات بين رئيس الحكومة وهيغ، أُدخلت الى بيغن برقية وصلت للتو من وزير الدفاع بشأن تمركز مئات المخربين من بنغلادش وايران في منطقة عاليه. وكانت دلالة ذلك، كما شرحها اللواء يهوشواع ساغي، هي احتمال القيام بخطوات مشابهة وراء خطوط المسيحيين، وذلك لاعادة الاتصال بين المخربين المحاصرين في بيروت وبين الجيش السوري في البقاع. وكان ذلك كفيلا بجعل بيغن وهيغ يدركان ان تطورات من هذا النوع ستعرض الانجازات على الارض للخطر، ولذا يجب مواصلة دك تجمعات المخربين في بيروت وضواحيها.

مضت الساعات الثماني والاربعون من دون ان ينجح حبيب في التوصل الى اتفاق. وعاد هيغ ليطلب من اسرائيل، عن طريق السفير موشيه آرنس، مواصلة ضبط النفس لانجاح الجهود السياسية.

لم يخف الرئيس ريغان ميله الى الفريق من مستشاريه الذي يؤيده. فالصور التي اخذت من اجتماعه في البيت الابيض الى رئيس الحكومة قد روت القصة كلها. اذ جلس الرئيس متجهم الوجه ومطبق الفم ومقطب الجبين امام بيغن الذي جاء ليحاول اقناعه بأن العمل الذي اقدمت عليه اسرائيل هو بمثابة دفاع مشروع عن النفس وفق

القانون الدولي، وان الولايات المتحدة ستكون وحدها الرابحة من العملية العسكرية التي تهدف الى القضاء على الارهاب العربي الذي يحركه الاتحاد السوفياتي في لبنان. وليعزز بيغن كلامه هذا، عرض خلال الاجتماع وثائق دلت على العلاقة الوثيقة بين منظمة التحرير الفلسطينية والاتحاد السوفياتي. لكن ريغان لم يكن راغبا في هذا كله، لأن الاسرائيليين ورطوه، وعرضوا مكانة الولايات المتحدة في العالم العربي للخطر، وسببوا في وصول علاقات واشنطن بموسكو الى حافة الازمة تقريبا. لقد كان هيغ وحيدا بين صانعي القرارات في الادارة الاميركية. وكانت فترة ولايته ذات الاشهر السبعة عشر على وشك الانتهاء باستقالته خلال وقت قصير. كما انه كان قد طلب من اسرائيل قبل ذلك التوقف ثماني واربعين ساعة عن قصفها الجوي والمدفعي لاحياء بيروت الغربية.

في مساء يوم ٢٤ حزيران (يونيو)، سارع سفير اسرائيل موشيه آرنس، يرافقه الوزير المفوض يعقوب نحوشتان، للاجتماع الى هيغ في الطبقة السابعة من مبنى وزارة الخارجية الاميركية. وبعد انتظار قصير في القاعة التي تحمل اسم وزير الخارجية سابقا، جورج مارشال، دخل آرنس ونحوشتان مكتب هيغ المكسو بالخشب اللمّاع، حيث وجداه في حالة من الهيجان، لأن مستقبله اصبح الآن متوقفا على خطوات اسرائيل. وما ان بدأ الاجتماع حتى قاطعته سكرتيرة هيغ، اذ كان على الطرف الآخر من الهاتف كلود شيسون وزير خارجية فرنسا. وخرج هيغ ليحادثه، ولدى عودته قال ان شيسون في حالة ذعر وباريس تغلي، واذا دخلت اسرائيل بيروت فستكون هذه هي النهاية. فالفرنسيون مقتنعون بأنكم مزمعون على دخول بيروت الغربية. لقد طلبوا من منظمة التحرير ان تظهر ليناً في مواقفها. وحسناً تم

التهديدات لمنظمة التحرير لم تختف. والواقع انه حتى رئيس لجنة الخارجية في مجلس الشيوخ تشارلز بيرسي كان يضغط على الرئيس ليطلب من بيغن عدم الاقدام على دخول بيروت الغربية. فربما تقتنع منظمة التحرير بأن اسرائيل جادة في نواياها. وفي نهاية الاجتماع، طلب هيغ الانفراد بآرنس.

قال هيغ للسفير: «لقد كان لي اليوم لقاء صعب جداً مع الرئيس. ففي الادارة الاميركية وفي مجلس الشيوخ اشخاص يمارسون ضغوطاً شديدة على الرئيس من اجل تغيير السياسة الخاصة بموضوع لبنان. ينبغي لك ان تعلم انه اذا ما دخل الجيش الاسرائيلي بيروت الغربية، فإنه سيكون لذلك نتائج مدمرة في الولايات المتحدة، الامر الذي سيؤدي الى اقالتي.

اصغى السفير الى هذا الكلام، وأرسل تقريراً به الى رئيس الحكومة. ولم يكن آرنس يعلم ما اذا كان قد اتخذ في البلد قرار بدخول بيروت الغربية ام لا. وطلب هيغ في نهاية الحديث: «اعلموني قبل العملية».

بعد مضي بضع ساعات، قدّم وزير الخارجية استقالته الى الرئيس ريغان التي قبلها فوراً «بأسف شديد». واعلن البيت الابيض في وقت قصير تعيين جورج شولتز مكان هيغ. وهكذا فقدت اسرائيل صديقاً لها في الادارة الاميركية. وهو الرجل الذي ساعد على تنفيذ قرارات الحكومة في حرب لبنان. وبذهابه وضع حد لنظرة الادارة الى خطوات اسرائيل. وكان هيغ قد ابلغ بيغن باستقالته المتوقعة، قبل ان يصدر بشأنها البيان الرسمي في واشنطن. وروى هيغ في حديث له مع شخصية اسرائيلية، بعد استقالته مباشرة، انه قد نجح في احباط توصية

رفعها فيليب حبيب، بأن يوجه الرئيس رسالة شديدة اللهجة الى رئيس الحكومة الاسرائيلية، تتضمن تهديداً بإنزال عقوبات. وتعليقاً على خلفية استقالته، قال بمرارة أن مستشاري الرئيس هم الذين عملوا على تفشيله. «لقد خربوا باستمرار قدرتي على ادارة السياسة الخارجية. وهذا كله انطلاقاً من اعتبارات سياسية داخلية».

لقد دفع البيت الابيض هيغ الى الاستقالة من منصبه بسبب دوره في حرب لبنان. وذكر المقربون منه انه لم تكن لهيغ اي سلطة على المعلومات والتوجيهات التي كانت تبلغ للرئيس. كان هيغ معزولاً حتى في وزارته. وفي مذكرات اعدت في وزارة الخارجية جرى تصوير العملية في لبنان بألوان قاتمة. وجاء في إحداها ان ما يجري انما هو «مأساة». طلب هيغ حذف هذا الوصف، وقال ليس هذا مأساة وإنما «هذه هي احدى ساعات بيغن الكبرى».

خلال شهري حزيران (يونيو) وتموز (يوليو)، طُلب من اسرائيل ان توقف القصف والضغط العسكري على بيروت لمدة ثماني واربعين ساعة، ولثماني واربعين ساعة اخرى، وكانت الحيثيات التي سمعت بهذا الشأن تحذيرا لمستقبل العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة، إن لم تتصرف اسرائيل بشكل آخر.

إستجاب رئيس الحكومة لطلبات ألكسندر هيغ التي وصفها بأنها طلبات «شخصية» لكن قبيل نهاية شهر حزيران (يونيو)، ابلغ بيغن هيغ بأنه في نهاية الثماني والاربعين ساعة «سيبدأ المسيحيون، بقرار منهم، المعركة لتحرير عاصمتهم من الاحتلال الغريب، وان اسرائيل ستساعدهم».

إمتنع الكتائب عن دخول بيروت الغربية التي تتعرض للنار، والمحصّنة جيداً، والتي تحاصرها قوات كبيرة من الجيش الاسرائيلي، وذلك: «من اجل تحرير عاصمتهم من نير المحتل الغريب»، على حد قول رئيس الحكومة في رده على طلب هيغ. فالذي كان يشغل بال المسيحيين هو ظواهر اخرى، كما كانت لهم اهداف مختلفة لم يخفوها عن الشخصيات الاسرائيلية التي كانوا يلتقونها. «عليكم مواصلة حصار بيروت الغربية، والضغط العسكري على المدينة، من اجل المساهمة في ايجاد الحل السياسي المنشود»، هكذا حث بشير الجميل، وشخصية رسمية لبنانية رفيعة المستوى من اصل مسيحي رئيس الاركان وآخرين: «عليكم مواصلة القصف الجوي للمدينة، اذ ان القصف المدفعي لم يعد يؤثر، لأن الناس قد اعتادت عليه».

إن مشكلة لبنان الكبرى، بحسب رأي بشير ورجاله، هي المشكلة الفلسطينية. وذكرت شخصية رسمية في حديث لها مع رئيس الاركان في بيروت خلال شهر تموز (يوليو): «علينا ايجاد الطريقة للانتهاء من المشكلة الفلسطينية في بيروت الغربية. ولا يجوز لاسرائيل ان تنسحب قبل انسحاب السوريين جميعا من لبنان، وقبل قيام حكومة قوية وجيش قوي». ولقد سعى بشير وتلك الشخصية للتفاهم مع رئيس الاركان: «من الصعب على الجيش اللبناني فرض النظام في مخيمات اللاجئين، فهناك عدد كبير من المسلمين في الجيش، ٧٠٪ تقريباً. في استطاعة الجيش اللبناني المساعدة في السيطرة على الطرق الرئيسية المؤدية الى المخيمات، بحيث يصبح الفلسطينيون محاصرين سياسياً وعسكرياً».

وسأل رئيس الاركان عن الوقت المطلوب لتحقيق كل هذه

المراحل التي عرضها بشير ورجاله، وجزم قائلا: «سأكون مستعدا لتخفيف القوات حول بيروت بناء على طلبكم، اذا ما كان هذا يخدم مصالحكم».

وعد بشير خلال لقاء آخر، جرى بينه وبين عدد من الاسرائيليين، بأنه عندما يحين الوقت الملائم سيحول مخيمات اللاجئين القائمة حول بيروت الى «حديقة حيوانات واحدة كبيرة»، بحسب تعبيره. وفي كل حال، فإن هذا الموضوع كان يقض مضاجعه باستمرار. ففي حديث أجراه مع وزير الدفاع في بيروت، وذلك قبل بضعة ايام من انتخابه رئيسا للبنان، سأل بشير شارون عما اذا كانت اسرائيل تعارض ادخال الجرافات الى مخيمات اللاجئين الواقعة جنوبي بيروت، وذلك من اجل تسوية الارض، فأجاب وزير الدفاع: «هذا ليس من شأننا، نحن لا نريد التدخل في شؤون لبنان الداخلية».

كقاعدة، كان المحاورون الاسرائيليون لزعماء الكتائب يميزون بين ناحيتين للمشكلة الفلسطينية في لبنان: الاولى، المخربون؛ والثانية، اللاجئون الذين يقيمون في لبنان منذ سنوات طويلة. وزعم بشير ان عدد الفلسطينيين في بلده يبلغ نحو ٤٠٠ الف، في حين ان الاسرائيليين جزموا بأن عددهم لا يتجاوز ٢٠٠ الف.

بالنسبة الى حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، تردد انه ستبدأ بعد انتهاء الحرب مفاوضات شاملة، اذ من المحتمل ان ينضم الاردن الى المسار الذي ثبتت دعائمه في كامب ديفيد.

لم تُنَر الاضواء الحمر عند رؤساء «الموساد». فالأحاديث والوقائع والمشاهدات بالعين المجردة لم تغير من التقويمات التي كتبت والتي

جزمت بأن «الفظائع والمذابح قد اصبحت من الماضي، وبأن قوات الكتائب بلغت مستوى من التبلور السياسي والعسكري يضمن عدم تكرار مثل هذه الاعمال». ان هذا التقويم الذي كتب عشية الحرب، استند الى معرفة شخصية بقيادة الكتائب، ونجم ايضا عن التقدير بأن مصلحة الكتائب تقضي بالزعامة على لبنان بأسره. وينبغي ألا ننسى ان اكثر من نصف سكان الدولة هم من المسلمين الذين لن يصفحوا عن اية معاملة مهينة لاخوانهم الفلسطينيين.

وفي الحقيقة ان قيادة الكتائب لم تخف نواياها الحقيقية. فقد وجد زعماؤها متنفسا لهم للتعبير عن الاحباط الذي يحسون به بسبب الواقع الذي يهددهم، والذي مفاده ان اللاجئين الفلسطينيين المسلمين غيروا الواقع الديموغرافي في لبنان الى حد كبير، وبالتالي عرضوا للخطر الهيمنة المسيحية، التي باتت على وشك اقصائها عن مراكز السلطة والنفوذ. ثمة تعبير تصويري لوضع قادة الكتائب المحبط، ذكره احدهم امام الاسرائيليين بقوله: «ان لبنان كالبيت الذي استولى عليه عدد من الغزاة: الفلسطينيون على غرفة النوم، والولايات المتحدة «عرابة» الجميع استولت على قاعة الاستقبال، والاسرائيليون على المطبخ، ولم يتركوا لنا سوى المرحاض».

إزداد الضغط في الحكومة من اجل مطالبة الكتائب بالمساهمة في نصيبهم في الحرب. وعلى الرغم من القرارات التي اتخذت والاحاديث والوعود، رفض المسيحيون دخول بيروت الغربية. وفور عودة رئيس الحكومة من الولايات المتحدة اصدر التعليمات بالاتصال ببشير الجميل. وبدا ان الشكوك اخذت تساوره هو ايضا.

كانت قدمه تؤلمه جدا، وكان الوقت متأخرا. جلس رئيس

الحكومة في مقعد وثير وُضع بالقرب من مدخل غرفة الضيوف في منزله. اما قدمه المصابة فكانت مغطاة.

ووصل الى المنزل تباعا: وزير الخارجية يتسحاق شمير، الذي حرص دائما على الوصول في الموعد المحدد؛ وزير الدفاع ارييل شارون؛ رئيس الاركان رفائيل ايتان؛ رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية؛ رؤساء «الموساد». ثم وصل بشير الجميل ورجاله.

دار الحديث منذ البداية حول حالة رئيس الحكومة الصحية، ومن ثم حول رفض الكتائب دخول بيروت. ولقد وجد بيغن صعوبة في فهم دوافع بشير، فقال مؤكداً: «انها فرصة تاريخية لتحرير بلدكم واحتلال العاصمة وانتزاعها من ايدي الغرباء. ينبغي للمسيحيين البدء فقط بتحرير بيروت، وسنساعدهم بكل ما لدينا سنساعدهم بكل قوتنا». واقترح بشير الجميل اسلوباً آخر للعمل، هو ان يبدأ الجيش الاسرائيلي بعملية قضم للأحياء المحيطة بالعاصمة، في منطقة المطار الدولي، وفي مناطق اخرى، ثم يدخل الكتائب وسط المدينة وشطرها الغربي.

طرح المشاركون افكاراً اخرى من اجل العملية المشتركة بين الجيش الاسرائيلي والمسيحيين، حتى انه وضعت كلمة سر لعملية احتلال بيروت. وحُدد يوم ٢٨ حزيران (يونيو) موعداً للتنفيذ.

وعلى الرغم من الجو الجيد الذي ساد الحديث، فقد لاحظ اللبنانيون ان الاسرائيليين بدأوا يظهرون تجاههم نفاد الصبر. بطبيعة الحال، اعتقدوا ان من الأفضل ان ينقلوا مجموعة توقعاتهم من التعاون في المجال العسكري الى الفائدة السياسية التي ستنتج عن الحرب.

كان رئيس الحكومة لا يزال مقتنعاً بأن الحرب في لبنان ستسفر

عن اتفاق جديد للسلام، بالاضافة الى الاتفاق الذي وقعته اسرائيل مع مصر، ويهدأ البلد اربعين عاما. ولقد عبر عن اعتقاده هذا في تلك الايام بصورة علنية.

وبعد مضي يوم واحد على المناقشات في القدس، طلب بشير الجميل في حديث مع وزير الدفاع تأجيل تنفيذ العملية مدة اسبوعين او ثلاثة اسابيع.

* * *

في شهر تموز (يوليو)، احكمت اسرائيل الحصار على بيروت. واستقدمت قوات الى المدينة، وتم تعبئة الوية من الاحتياط» وذلك لاعدادها لدخول العاصمة. وكانت ثمة قناعة في البلد والعالم بأن الجيش الاسرائيلي سيقتحم الاحياء المكتظة بالسكان في بيروت الغربية. وتمَّ تضييق الحصار عن طريق قطع الماء والكهرباء عن السكان، لاثارة الاضطرابات التي ستؤدي الى ضغوطات على منظمة التحرير الفلسطينية كي تترك المدينة. واستمرت طائرات سلاح الجو في قصف الأهداف. وزعمت اسرائيل ان الطيارين يصيبون اهدافهم بدقة، وان القصف يدمر فقط الابنية التي يوجد فيها المخربون. لكن اتضح أن بيوتاً اصيبت ايضاً لم يكن سكانها جميعا مع المخربين.

على الرغم من المحاولات المستمرة لضرب زعماء المخربين وقتلهم خلال الحرب، الا ان اسرائيل لم تنجح في هذه المهمة. وفي وقت لاحق فقط سنحت الفرصة لضرب ياسر عرفات، لكن في آخر لحظة طلب رئيس الحكومة إلغاء العملية لاعتبارات سياسية.

في تلك الأثناء، وصلت انباء بشأن تصرف جنود الكتائب في المنطقة تجاه الفلسطينيين والدروز، وما نشر حول ذلك في البلد مشكلة لوزير الدفاع. فلم يعد سراً ان المسيحيين نفذوا اعمال قتل ضد بعض السكان الدروز في جبال الشوف. اما عند الحواجز التي اقامتها وحدات تابعة لرئيس المخابرات في حزب الكتائب ايلي حبيقة، في مناطق مختلفة من لبنان، فقد جرى تصفية ٥٠٠ فلسطيني خلال الاشهر الأولى للحرب. كان هدف هذه الحواجز التي اقيمت وفقا لتعليمات من الجيش الاسرائيلي كشف هوية المخربين من بين آلاف الفلسطينيين الذين تركوا بيروت. كان الادعاء الاسرائيلي ان رجال الكتائب مدربون وقادرون على التعرف على المخربين اكثر من جنود الجيش الاسرائيلي. في إحدى جلسات لجنة الخارجية والامن سأل عضو الكنيست يوسي ساريد من المعراخ وزير الدفاع بأي شيء يتفوق تدريب المسيحيين على تدريب جنود الجيش الاسرائيلي، وكيف يمكن تمييز إرهابي فلسطيني من مدرس فلسطيني، وهل هناك فرقا في لهجة الاثنين...

ارغم ما نشر عما يحدث والاصداء العامة عليه، وزير الدفاع على اتخاذ قرار بطرح الموضوع للمناقشة مع بشير الجميل. ففي بداية شهر تموز (يوليو) طلب شارون وقف اعمال القتل والاغتصاب والسلب التي نفذها جنود الكتائب. وقال بشير: «انتم لا تفهمون رجالنا، ان جنود الجيش الاسرائيلي يأتون من بيئة مختلفة. وكل ما يرونه ولا يعجبهم ينقلونه مباشرة الى البلد. يجب ان نكون حذرين لأن من شأن مثل هذه الامور ان يؤثر بشكل سلبي على الرأي العام عندنا، وعلى القوى الموجودة على الأرض».

وبدا بشير الجميل كما لو طُعن في اعماقه، وردّ التهمة بأن جنود

الجيش الاسرائيلي قد دخلوا إحدى المدارس الموجودة في المنطقة التي احتلوها، واخذوا من هناك آلات حاسبة صغيرة، واجهزة فيديو. فوعد شارون بإعادة هذه الممتلكات اذا ما اتضح انها سرقت فعلاً.

على خلفية الانتقادات التي تصاعدت في البلد منذ استمرار الحرب، حثّ شارون الجميل على دخول بيروت الغربية. وطالب الوزراء في الحكومة بأن يقوم المسيحيون بدورهم في الحرب في لبنان. وكانت التقديرات فيما يتعلق بعدد الاصابات التي سيتكبدها الجيش الاسرائيلي نتيجة دخوله بيروت الغربية، تتراوح بين بضع مئات من القتلى واكثر من الف قتيل. لم يعط بشير جواباً مباشراً فقد اراد ان يربح مزيداً من الوقت ليقطف المزيد من الانجازات. في تلك الاثناء الحّ على شارون وعلى الاسرائيليين الذي التقاهم من اجل حل مشكلة بيروت بالقوة. وفي احد احاديثه مع ممثل إسرائيلي رفيع المستوى، قال بشير ان الوضع في بيروت يذكره بسيناريو احد الافلام الحربية الايطالية، «فالمخربون يناورون علينا وعلى الاميركيين بمهارة كبيرة. إن حلّ مشكلة بيروت بات الآن ضرورة. لقد كانت لنا تجارب كثيرة مع الفلسطينيين على صعيد وقف اطلاق النار. وهذا ليس هو الحل».

وقدّم بشير ايضا حيثيات لأهمية دخول الجيش الاسرائيلي الى منطقة جنوب غرب بيروت، «فإذا ما تم تدمير مخيمات اللاجئين في هذا الجزء من المدينة، فلن يثير هذا اسفاً كبيراً لدى المسلمين المحليين الذين يسكنون في الجزء الشمالي الغربي للمدينة، حتى ان قسما منهم سيتعاون معنا». وفي كل الاحوال، اعرب الجميل عن استعداده «لتطهير» بيروت الغربية من المخربين، اذا ساعدته اسرائيل على «تطهير» جبال الشوف من العناصر الدرزية التي يحركها

السوريون، وبهذه الطريقة يوسع المنطقة التي يسيطر عليها المسيحيون في اسرائيل تقرر مساعدة الحليف، ناهيك بأنه اخذ يتمتم امام شارون بأن في الطائفة المسيحية من يقول له: «إنني اخطأت باعتمادي على اسرائيل. فلا شعور لدينا بأن المناطق قد حزرت، وان الدولة تتوحد». ولقد اراد رئيس الاركان ان يعزز لدى بشير إحساسه بأن اسرائيل لن تخيب امله. فوافق على إدخال ٣٠٠ جندي من رجاله الى ثكنة بيت الدين العسكرية. وبيت الدين هي العاصمة القديمة للبنان، حيث عاش امير جبل لبنان، وكان يحكم رعاياه. وكان في المنطقة تجمع درزي كبير بزعامة وليد جنبلاط. وكانت الثكنة في يد كتيبة من الجيش اللبناني، اغلب جنودها من الدروز، فطردت الكتيبة وجردت من سلاحها. واقترح رئيس الاركان على بشير ان يضع جنوده في الجنوب اللبناني ايضا الى جانب قوات سعد حداد. غير ان بشيراً عمل وفقاً لخطة شاملة. ولقد توصل الى قناعة مفادها انه ما دام الجيش الاسرائيلي يعمل في لبنان فيجب بذل كل الجهود من اجل توسيع مناطق سيطرته. وبحسب تقديره، سيأتي اليوم الذي سيقع فيه الجنوب اللبناني ثمرة ناضجة بين يديه. ولذا اقترح على قائد الجيش الاسرائيلي السماح له بوضع وتدريب جنوده في منطقة اخرى، كانت حيوية في نظره، ومن شأنها ان تتحول في المستقبل الى محور للاشتباكات مع الدروز، وهي منطقة عاليه. ولقد بذل ضباط الجيش الاسرائيلي في هذه المنطقة محاولات متواصلة لفض الخلافات بين الكتائب والدروز، وكانوا [الضباط] في بعض الاحيان يظهرون عجزاً تاماً. فكان جنود الجيش الاسرائيلي يجردون مطلقي النار من سلاحهم وخصوصاً المسيحيين، الذين كانوا يستردونه في الخفاء.

سخر بشير من اعمال الجنود الاسرائيليين في منطقة عاليه امام

كبار الضباط قائلا: «إذا جردتم رجالي من سلاحهم في عاليه، فسنستعيده من رفول عن طريق حاملات الدبابات في جونية او عن طريق آخر». وزعم رؤساء الكتائب انه يجب عدم مساعدة الدروز الذين يتعاونون مع السوريين ومع منظمات الارهاب الفلسطينية. وواصل الجميل توسيع سيطرته على منطقة جبل لبنان، في ظل حراب الجيش الاسرائيلي.

واصل بشير ورفول، بموجب الاتفاق الذي تم التوصل اليه في لقاء مع رئيس الحكومة، التخطيط لدخول بيروت الغربية. قال رئيس الاركان لبشير ان الجيش الاسرائيلي سيقدم كل المساعدة المطلوبة للكتائب في المجال الجوي والمدفعي «كما لو ان الكتائب وحدات نظامية في الجيش الاسرائيلي». وطلب الجميل من رئيس الاركان تزويد بألف كلاشينكوف مع مشطين من الذخيرة لكل واحد منها. ووضع خمس شاحنات من نوع «ريو» تابعة للجيش الاسرائيلي في تصرف رجاله، الى جانب مركبات اخرى، واجهزة لاسلكية. ولقد استجاب رئيس الاركان للطلب بقوله ان اسرائيل لا تطلب دفع ثمنها. وختم رفول حديثه بالقول: «المحاسبة نجريها بعد الحرب».

كان المخربون في بيروت الغربية على وشك الاستسلام. فلقد استخدموا عامل الزمن بشكل جيد. وفي مواجهة قوة اسرائيل العسكرية، استغل المخربون العلاقات المتشعبة والوثيقة التي اقاموها مع عدد من دول العالم وزعمائه. وقد طلب عرفات من الرئيس الروماني ان يستخدم نفوذه لدى مناحم بيغن لحل ازمة بيروت بالطريقة السياسية. ورفض رئيس الحكومة الاستجابة لطلب تشاوشيسكو. كما توجه عرفات ايضاً عن طريق ممثليه الى مصر. وكان التفاهم بين منظمة التحرير الفلسطينية وقادة مصر وثيقاً، اتقنت القاهرة تسخير هذه

الورقة لمحاولاتها الرامية الى استعادة مكانتها المهيمنة في العالم العربي. لقد هبطت الحرب في لبنان على مصر كهبة من السماء. وبعد مرور وقت قصير على استعادتها سيناء من اسرائيل، كان على مصر ان تعطي مضموناً لاتفاقات التطبيع التي وقعتها فتحولت الحرب الى ذريعة ممتازة للتهرب من تنفيذ الاتفاقات. فمصر لم تفاجأ ببدء الحرب في لبنان. اذ انه خلال الزيارات التي قام بها الوزيران شارون وشمير للقاهرة خلال النصف الاول من سنة ١٩٨٢، ذكرا ان لا مفر من الدخول الى لبنان، وضرب تجمعات المخربين. وعلى الرغم من ذلك، فقد صعق المصريون من ضخامة حجم القوة التي استخدمتها اسرائيل في لبنان.

في لقاء جرى في بداية شهر حزيران (يونيو) مع السفير موشيه شاسون في القاهرة، طلب نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية المصري كمال حسن علي من اسرائيل السماح للمخربين بمغادرة بيروت بكرامة. ومما قاله «ثمة مبدأ عسكري يقول لا تدفع بعدوك الى وضع يكون فيه محشوراً وظهره الى الحائط. إن وضعهم ميؤوس منه. إن منظمة التحرير لن تموت، بل أن الناس يموتون وسيتحولون الى رمز شعب صاحب مبادىء. إن هذه الاحاسيس هي التي تدفع بالناس الى الرغبة في الانتقام. لا تحولوا بيروت الى مسادا «الفلسطينية» على حد قوله. وضم علي صوت مصر الى صوت المطالبة الدولية «بمنع اسرائيل من دخول بيروت الغربية والسيطرة عليها: «إذا دخلتم بيروت فسيكون هذا خطأ تاريخياً».

إنطلاقاً من هذا السياق كان تصرف مصر خلال الحرب. فالرئيس مبارك امر سفيره في تل ابيب بالعودة الى القاهرة. وتحول السلام مع

مصر الى سلام بارد. ورفض زعماء مصر الاجتماع الى مسؤولي الحكم في اسرائيل.

تذكر كمال حسن علي الكلام الذي قاله لأريئيل شارون في لقاء منفرد بينهما، وروى ذلك لاصدقاء من اسرائيل قائلا «قلت له: أريك، لا تدخل لبنان بعملية واسعة. فتاريخ هذه الدولة يدل على ان كل من دخل اراضيها غرق في المستنقع المحلي، واصبح جزءاً من الحيوانات المتصارعة داخله»

وقد نقل موقف وزير الخارجية الاميركية السابق د. هنري كيسنجر الى القدس. فقد جاء في رسالة نقلها السفير آرنس ان كيسنجر قال له: «عليكم إما إخراج منظمة التحرير الفلسطينية، وإما القضاء عليها قبل ان تخرج من الهزيمة منتصرة وربما ستحظى ايضا باعتراف الولايات المتحدة» واقترح كيسنجر التحرك خلال وقت قصير، او ربما «خلال فترات زمنية معقولة».

ولقد نقل آرنس بأمانة الى القدس الاحاديث والاجواء التي سادت فيه واشنطن خلال اشهر الحرب. وبحسب رأي بعض الموظفين الكبار في سفارة اسرائيل بواشنطن، عارض آرنس توسيع الحرب الى ما وراء الأربعين كيلومتراً، غير انه شخصياً لم يعبر عن موقفه علناً. ودافع عن مسار الحرب، وعن الخطوات التي اتخذت في محاولة التوصل الى إخراج المخربين من بيروت. ورأى آرنس نفسه يشارك في اتخاذ القرارات السياسية، وليس فقط «ساعي بريد» ينقل المواقف. ولقد وصلت الامور الى حد انه في إحدى الحالات، في منتصف شهر تموز (يوليو) أنّب رئيس الحكومة آرنس، بعد أن اتضح أنه طرح في أحد أحاديثه مع مساعد وزير الخارجية الاميركية لورانس إيغلبرغر، افكاراً

بشأن الاسراع في التوصل الى ترتيبات لاجلاء المخربين. ولقد ورد في برقية ارسلت اليه: «نرجو ان تنقل الينا افكارك قبل ان تبلغها لمحاوريك، ليتسنى لنا الاطلاع عليها. ونطلب منك في اقرب فرصة ان تطلب من إيغلبرغر ان يتناسى مقترحاتك».

في ١٢ تموز (يوليو) اتخذ القرار: على الجيش الاسرائيلي ان يحتل بيروت الغربية خلال يومين. «من الافضل القيام بعمل دفعة واحدة بدلا من مواصلة الحصار» - هذا ما قاله مناحم بيغن في الاجتماع المغلق الذي تقرر فيه اقتحام عاصمة لبنان. وقال رئيس الاركان بعد ان عرض الخطة، انها ستنتهي بعد ٤٨ ساعة من القتال. ورفض رئيس الاركان ان يقدر خسائر الجيش الاسرائيلي المتوقعة. وقال وزير الدفاع انه موافق على خطة رئيس الاركان. واحتار بيغن كيف «يبيع» الخطة الى الحكومة، اذ كان بعض الوزراء قد بدأ يتكتل ضد دخول بيروت الغربية. قال بيغن: «اخذت بالخطة التي عرضها رفول». وكان بيغن في تلك الايام قد بدأ يعمل بلهفة للتوصل الى حسم الحرب. وكان اكثر طلاقة في كلامه في الاجتماعات المغلقة منه في جلسات الحكومة. وكانت تعليلاته في تأييد الخطة متنوعة. فاستمرار حصار بيروت الغربية، بما في ذلك الوسائل المستخدمة لتضييق الحصار، امر مستحيل: «لا نستطيع ان نتحمل مغبة ذلك لوقت طويل»، فالرأي العام العالمي ثائر: «ثمة صرخة عالية تطلق الآن، ولا سيما مسألة هؤلاء الذين تلين قلوبهم على حساب الشعب اليهودي. ما هذا، تحرمون سكانا مدنيين من المياه؟ حتى ان بعض اليهود يشارك في هذه الصرخات. الحصار يتطلب وقتا، مثل اي حصار. في القتال يمكن حسم المعركة احيانا خلال ٢٤ ساعة. أما الحصار فمسألة طويلة جدا».

اعتقد بيغن انه اذا استمرت الحرب بلا حسم، فالجمهور في البلد لن يتحمل ذلك. «نحن شعب فريد في نوعه. وهذا هو ثمن الديمقراطية. فللجميع الحق في الكلام. حتى ان الجيش ليس مبنيا على حرب الخنادق الدفاعية التي تسمى دبابات وناقلات جند مجنزرة، وتلقي النيران على الرؤوس ببطء - فهذا ما لا يقبله عقل».

كان رئيس الحكومة مستعدا لاصدار تعليماته بدخول بيروت الغربية على الرغم من نبأ اعلان الولايات المتحدة ان من شأن هذه الخطوة ان تؤدي الى نتائج خطرة في العلاقات بين الدولتين.

كان رئيس الحكومة يشارك وزير الدفاع ورئيس الاركان ورئيس شعبة الاستخبارات رأيهم في ان فيليب حبيب لن ينجح في إخراج المخربين من بيروت بواسطة اتفاق. «ليس في الامكان ان يستمر هذا الامر عدة اسابيع» - قال بيغن وهو يتحدث عن الوضع على الارض. واضاف: «ليس هناك اي وقف لاطلاق النار. وفي الحقيقة فإن حبيب هذا يبلبل الافكار حقا، انه رجل مريض، وعصبي، ويسيطر عليه الذعر، ويحرض علينا».

ان الدليل القاطع الذي عرض في تلك الجلسة المغلقة لاثبات صوابية النهج الذي اختاره بيغن وزملاؤه كان كالتالي: «ان النبوءات جميعا التي تنبأت بإخراج اسرائيل من لبنان خلال وقت قصير بعد دخولها اياه، قد تبددت. «ثمة من تنبأ بأننا سنبقى هناك اربعة ايام، وكبار المتفائلين قالوا اسبوعا او اسبوعا ونصف الاسبوع. وها نحن موجودون هناك للأسبوع الخامس، ولا احد يتكلم عن الخروج من لبنان - اننا نتحدث مع انفسنا، لكن لا احد يضغط علينا» - قال شارون.

بيغن: «لأننا خضنا معركة سياسية، لا عسكرية فقط ـ هذا هو السبب».

رئيس الاركان: «لذا لدينا متسع من الوقت».

وكان من المفروض دعوة الوزراء الى جلسة للحكومة بتبليغ قبل وقت قصير من موعد انعقادها في ساعة متأخرة من المساء. وقبل دخول بيروت الغربية بليلة واحدة اعتقد بيغن انه سينجح في الحصول على أكثرية لإقرار الخطة. وفي كل الاحوال شدّد على ان الخطة لن تنفذ إلّا إذا اقرتها الحكومة. ولقد قررت مجموعة الوزراء التي عملت طوال تلك الفترة لوقف استمرار التدهور في العمليات العسكرية، التعبير عن معارضة شديدة للخطة الجديدة. وخلال وقت قصير، وجد بيغن ان اقلية فقط تقف الى جانبه. وهكذا تأجل تنفيذ عملية احتلال بيروت الغربية.

واصل فيليب حبيب عمله في بيروت تحت ضغط القصف المدفعي الشديد للجيش الاسرائيلي. وامر شارون بقطع المياه والكهرباء، والوقود، والغذاء عن السكان. وبدأ حبيب يكره وزير الدفاع الاسرائيلي. ان مكوثه الطويل في العاصمة اللبنانية التي تتعرض للقصف، وهو يتقاسم غرفته في مركز السفير الاميركي روبرت ديلون، مع مساعد السفير موريس درايبر، ومشهد النساء تتراكضن مع اطفالهن بحثاً عن ملجأ يقيهن اذى الصواريخ والقذائف ومنظر الشوارع التي امتلأت بالجثث العفنة، كل ذلك جعل حبيب يتحامل على اسرائيل عامة، وعلى شارون خاصة.

وعندما اتضح في واشنطن ان اسرائيل لم توقف ضغطها العسكري على بيروت، على الرغم من تحذيرات الرئيس، تقرر الاسراع في

وتيرة المفاوضات من اجل إجلاء المخربين عن المدينة المحاصرة. وتم التوصل الى القرار الذي بقي بين اخذ وردّ طوال اسابيع عدة. وبشكل سري، وبعد مناقشات طويلة، وبسرية فائقة، وافق الرئيس ريغان على ارسال ٨٠٠ جندي من مشاة البحرية الى بيروت لفترة محدودة لا تتجاوز ١٥ يوماً، وذلك من اجل ضمان خروج المخربين من دون اشكالات. وكانت الادارة الاميركية واثقة من ان هذه الخطوة ستساعد على تقدم المفاوضات، كما ستكون ورقة فعلية في يد فيليب حبيب لضمان امن المخربين الذين يتم اجلاؤهم، وامن الفلسطينيين المدنيين الذين سيتركونهم وراءهم. وكانت مسألة حماية السكان الفلسطينيين احدى العقبات في وجه المفاوضات بشأن اجلاء المخربين.

تم ابلاغ القدس بالقرار الدراماتيكي في برقية سرية وجهت الى رئيس الحكومة فقط، الذي قرر ان يشرك وزيري الخارجية والدفاع في السر. لكن لم تمضِ ساعات معدودة على تلقي البرقية، حتى اذيع مضمونها في نشرة اخبار «كول اسرائيل» (اذاعة اسرائيل بالعبرية). ان مستشاري الرئيس ريغان الذين ارادوا استباق وقوع فضيحة محتملة، لأن القرار لم يكن قد بحث فيه بعد مع زعماء الكونغرس، اضطروا الى ايقاظه من نومه في منتصف الليل، وطلبوا منه الظهور على شاشة التلفزيون الذي يغطي البلاد، لكي يشرح للشعب الاميركي قراره بإرسال المئات من مشاة البحرية الى منطقة تعيش حرباً دامية.

وفي سفارة اسرائيل في واشنطن وجد السفير آرنس نفسه عاجزاً. فلقد اتصل برئيس الحكومة واخبره بأن مساعد وزير الخارجية الاميركي، لورنس ايغلبرغر، اتصل به موجها كلاماً قاسياً الى اسرائيل. كان رئيس الحكومة مقتنعاً بأن هناك من حاول نسف الاقتراح الاميركي

عن طريق تسريبه. فقال في حديث هاتفي غاضب مع المحرر السياسي «لكول اسرائيل» إن اعلان النبأ سيؤدي الى استمرار الحرب اياماً اخرى. «ماذا اقول لميشا (آرنس) الأن؟ انه ينتظر حديثاً مني كيف سيشرح القضية للاميركيين؟».

رأى بيغن ان جوهر قرار الرئيس بحد ذاته مفيد. وفكّر في ان اسرائيل نجحت بذلك في دفع الولايات المتحدة لتنتقل من موقع الوسيط في النزاع في لبنان الى موقع الشريك الكامل. قال رئيس الحكومة في إحدى جلسات الحكومة: «من يدخل لعشرة ايام يستطيع ان يبقى سنيناً طويلة». كان موقف شارون من الخطوة الاميركية مختلطا. فقد خاف ان يبقى المخربون او جزء منهم في بيروت بحماية البحارة الاميركيين! وعندها سيكون من الصعب اخراجهم، خوفاً من الاساءة او الاصطدام بجنود الولايات المتحدة. واراد شارون ان يضمن في الاتفاق خروج المخربين، قبل دخول مشاة البحرية الاميركية لكن لم يكن هناك اي فرصة لتحقيق ذلك. وهكذا تنفس بعض الوزراء الصعداء. فلقد ظنوا ان عمليات دخول بيروت بالقوة سوف تؤجل الآن، او انها لن تنفذ على الاطلاق.

في واشنطن تزايد الغضب من التسريب الذي حدث في اسرائيل. وذكر مساعد وزير الخارجية الاميركي ايغلبرغر للسفير آرنس ان تسريب موضوع مشروع القوة الاميركية هو اخطر مما ظن في البداية، لانه اتضح ان الروس لم يكونوا على علم بأمر الرغبة الاميركية قبل تسريب النبأ في اسرائيل. وقدّر ايغلبرغر ان الروس قد عملوا لتعقيد الامور في دمشق وبيروت.

بحثت الولايات المتحدة عن شركاء لها في القوة المتعددة

الجنسيات، فربطت فرنسا التي كانت مستعدة لارسال قسم من قواتها الى لبنان منذ بداية الحرب بهدف المشاركة في الترتيبات التي ستقود الى وقف اطلاق النار، اشتراكها بقرار ملائم يصدر عن مجلس الامن التابع للامم المتحدة. ولقد اراد الاميركيون منع ذلك، لعلمهم بأن الموافقة على ذلك ستسمح بدخول الاتحاد السوفياتي في صورة الترتيبات.

طلب المسؤولون في وزارة الخارجية الاميركية من اسرائيل عن طريق السفير آرنس وقف العمليات بضعة ايام، والامتناع عن الردود غير المتوازنة على اطلاق النار من قبل المخربين في بيروت، لاتاحة المجال امام فيليب حبيب لانجاز اتفاق الجلاء. وكانت الولايات المتحدة قد ضمنت للمنظمات الفلسطينية في بيروت، بألا يلحق عائلاتهم اي اذى بعد ان يغادروا لبنان.

على شرفة منزل جوني عبده، وهو شخصية لبنانية مسيحية في السلطة في بعبدا، إحدى ضواحي بيروت، وحول طاولات عليها مرطبات ومشروبات وقهوة، جرت المحادثات بين فيليب حبيب واللبنانيين والاسرائيليين كل على حده. في هذا المكان بذل الوسيط جهودا يائسة للتوصل الى اتفاق اجلاء المخربين، وايجاد دول تستقبلهم، وتنظيم طرق الجلاء، وطمأنة المخربين الى ان امنهم سيكون مضموناً لدى خروجهم، وأن دخول القوة المتعددة الجنسيات سيكون منتظماً وسيبدأ لدى خروج المخربين.

توسل حبيب الى اسرائيل وصرخ مطالباً بإيقاف قصفها لبيروت كي تتيح له انجاز مهمته. وكان شارون يشارك في المحادثات التي اجراها مدير عام وزارة الخارجية دافيد كمحي والمستشار ابراهام تمير، كلما بدا له ان وجوده ضروري. ومن الشرفة المطلة على احياء بيروت الفخمة،

كانت تشاهد سحب من الدخان. وكان لدى حبيب إحساس بأن شارون يقرن المحادثات بقصف مدفعي متعمد كي يضغط عليه ويلين موقفه. بيد ان وزير الدفاع لم يصدق قط ان حبيب سينجح في مهمته. وبحسب رأيه، فإن اتفاقات وقف اطلاق النار المتعددة، وتخفيف الضغط العسكري على المخربين قد اوجدا لدى المخربين احساساً بالأمل بأن يتم التوصل الى التسوية من دون جلاء.

في ١٩ تموز (يوليو)، التقى شارون حبيب مجدداً على شرفة الفيلا المطلة على بيروت. وصل وزير الدفاع حزيناً ومضطرباً. فلقد ازداد الضغط العام ضد الحرب التي لا تنتهي. وكانت الاتهامات موجهة ضده بصورة خاصة.

وحتى في الجيش ظهرت تصدعات. وتغلغل الشك في مستويات القيادة كافة. ولقد عبّرت وحدات الاحتياط عن ذلك بشكل علني. اخذ الوقت ينفد في ساعة شارون الرملية. وربما كانت محادثات ١٩ تموز (يوليو) نقطة تحول في العلاقة بين الادارة الاميركية ووزير الدفاع الاسرائيلي. ومن المحتمل ان هؤلاء الذين اطلعوا على التقرير الذي ارسله حبيب عن محادثاته، قد قرروا الا يكون شارون، بعد اليوم، محاوراً للادارة الاميركية. في تلك الاثناء، تحدث حبيب وشارون، في غرفة الاستقبال بمنزل جوني عبده، عن فرص إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، وعن الترتيبات القادمة، وعن الحصار الاسرائيلي لبيروت.

اوضح شارون ان الترتيبات الامنية على امتداد الحدود الشمالية لاسرائيل سيُبحث فيها ويتفق عليها بين حكومتي اسرائيل ولبنان، وقال: «لسنا في وضع نسعى فيه لترتيبات موقتة كتلك التي جرت بعد

حرب سنة ١٩٧٣. إن سياسة حكومة بيغن هي عدم القبول باتفاقات موقتة وإنما باتفاقات شاملة على غرار اتفاق السلام مع مصر، حيث تنازلنا هناك عن سيناء كلها ونحن مستعدون للتنازلات فقط في سياق سلام ومفاوضات مباشرة».

وافق حبيب نوعا ما على الكلام الذي سمعه، وقال الوسيط الاميركي: «لقد سبق ان قلت للبنانيين انهم عندما سيصلون الى البحث في تسويات امنية مع اسرائيل، فإن المفاوضات ستكون بين الحكومتين، واذا كان في امكان حكومة الولايات المتحدة المساعدة، فسنكون سعداء بالقيام بذلك». وكشف شارون، الذي كان قد تلقى تقريراً عن احد اللقاءات بين حبيب ورئيس حكومة لبنان شفيق الوزان، عن ان هذا الاخير قد انفجر ضاحكاً عندما اقترح عليه حبيب محادثات مباشرة مع الاسرائيليين. وقال وزير الدفاع: «أريد ان اؤكد لك بأنه لن يضحك، وإنما سيبكي. غير اني في الواقع لا اريده ان يبكي. ولكن عليه الا ينظر الى مقترحاتنا على هذا النحو». وفي مقابل ذلك كان حبيب يعتقد ان الوزان لن يجر محادثات مباشرة مع اسرائيل.

اما بالنسبة الى العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة على خلفية الحرب في لبنان، قال شارون ان اسرائيل منحت الولايات المتحدة «فرصة نادرة من اجل تحقيق مكانة مهمة جدا في الشرق الاوسط، انتم بحاجة اليها كثيراً» بيد ان حبيب لم يتأثر بـ «الهدية» التي تلقاها بلده، وطلب من شارون التقيد ببعض ما تم التوصل اليه بشأن ترتيبات إخراج المخربين من بيروت. وكانت النية تتجه الى قيام مراقبين من الامم المتحدة، ومن القوة المتعددة الجنسيات، بالاشراف على إخراج المخربين، الذين طالبت منظماتهم بتوفير الحماية للجالية الفلسطينية في بيروت بعد جلاء جهاز المنظمة العسكري. وطالب

شارون بألا تدخل القوة المتعددة الجنسيات الا بعد ان يغادر آخر اوتوبيس للمخربين بيروت الغربية.

حبيب: «كلا، القوة المتعددة الجنسيات ستدخل عندما تصبح عملية الاجلاء في مرحلة متقدمة».

شارون: «استناداً الى المعلومات المتوافرة لدينا، ينوي المخربون الإبقاء على نواة وبنية تحتية تنظيمية، مستغلين بذلك وجود القوة المتعددة الجنسيات من اجل هذا الغرض».

حبيب: «لا استطيع التراجع عن الكلام الذي ذكرته. فالولايات المتحدة ايضاً، وليس انتم فقط، يجب ان توافق على موعد دخول القوة المتعددة الجنسيات الى المنطقة».

شارون: «إنكم تتدخلون في شؤوننا الداخلية. على سبيل المثال الرائد حداد، فماذا يعني القول انه لا يشكل جزءاً من لبنان؟ نحن لا نتخلى عن اصدقائنا وليس في لبنان حكومة قوية».

حبيب: «في لبنان حكومة شرعية، حتى لو كانت ضعيفة».

شارون: «من دون وجودنا في بحمدون وعاليه وباقي اجزاء لبنان، لما كان في إمكانكم البحث في اقامة حكومة قوية في لبنان».

حبيب: «مشكلة حداد تُحل بينه وبين حكومة لبنان. ومن جهتي فليمنحوه رتبة جنرال، وليجعلوا منه رئيساً للأركان».

شارون: «إنكم تتدخلون في شؤوننا الداخلية والامنية. لماذا تعتقد ان في امكانكم تنبيهنا الى هذا الموضوع؟ من الناحية الخلقية، ليس لكم الحق في ان تفعلوا ذلك».

حبيب: «إنني لست غاضباً على احد. اذا ما جعلتم حداد يسيطر حتى نهـر الاولي، كما تدعون، فإنكم تسيئون الى بشير».

شارون: «عندما قلنا لكم ان ثمة حظا لبشير وهو جدير بالدعم والمساعدة، ضحكتم».

حبيب: «زودناه بالعتاد والذخيرة».

شارون: «ما زال هناك مئات المخربين في جبال الجنوب اللبناني، وحداد يساعد في القاء القبض عليهم وفي توفير الامن. وهو يسيطر الآن على ٤٠٪ من ارض لبنان».

* * *

كانت اهداف شارون في لبنان ابعد كثيرا من اهداف الولايات المتحدة. بينما اعتقد حبيب انه يجب التطلع الى اهداف ممكنة التحقيق.

واشتكى الوسيط الاميركي خلال الحديث من العقبة التي تضعها اسرائيل امام نقل الطحين الى بيروت الغربية المحاصرة. وتظاهر شارون بالبراءة واجاب بأن المسيحيين يدققون في الحمولات التي تدخل بيروت. وذكر حبيب ان جنود الجيش الاسرائيلي لم يسمحوا للقوافل التي نقلت الطحين بدخول المدينة.

شارون: «الكميات التي طلبت تكفي لتموين المخربين حتى شهر تموز (يوليو) من السنة القادمة. لا تشتكي طوال الوقت، لقد تعبت من شكواك».

حبيب: «وأنا تعبت من الشكوى، ولا سيما عندما احصل على تعهد وبعد ذلك لا ينفذ».

شارون: «تعال لزيارة اسرائيل، إنك تجوّع صحافتنا».

حبيب: «انتم الذين تغذونها طوال الوقت. ثمة امر واحد مهم اريد ان اقوله فيما يختص بالسكان المدنيين في بيروت الغربية. انا اعرف موقف رئيس الحكومة من الاطفال والنساء. تحدثت عن الوضع مع ثلاثة اطباء من الضروري السماح بمرور الطحين والزيت والوقود».

وزير الدفاع: «لن يمر اي وقود».

حبيب: «وكيف سيصنعون الخبز؟»

شارون: «لا اعرف، لست خبازاً، لكن هناك حل. لقد حان الوقت لانهاء هذه الحرب. نحن نرفض هذه الشكاوى. لقد آن الاوان لانهاء الحرب».

حبيب: «نحن ننهي الحرب من دون عملية عسكرية».

شارون: «ينبغي الانتهاء من كل هذه المهمة بسرعة كبيرة».

حبيب: «سأرسل اليكم الصليب الاحمر».

شارون: «نرفض هذا التحذير».

بعد هذا الحديث مع اريئيل شارون، شعر فيليب حبيب بالانزعاج، اذ كان قد مرّ قبل عدة سنوات بأزمات قلبية شديدة، واحتاج الى الراحة فلزم الغرفة التي كان يتشارك فيها مع مساعده موريس درايير في منزل السفير الاميركي في بيروت روبرت ديلون. واوشك مساعدو حبيب في لحظة من اللحظات على الاتصال بممثل وزارة الخارجية الاسرائيلية في بيروت، من اجل استدعاء طبيب القلب المشهور ماروين غوتسمان، الذي اشرف على علاج رئيس الحكومة وعرف

حبيب ايضاً، وذلك لمعالجة الوسيط الاميركي. لكن في النهاية لم تكن هناك حاجة الى ذلك.

* * *

قررت واشنطن استدعاء السفير آرنس الى وزارة الخارجية بعدما تلقت التقرير عن محادثات حبيب ـ شارون. لكن آرنس لم يكن موجوداً في المدينة آنذاك. وحل محله للتداول مع نائب وزير الخارجية لورنس ايغلبرغر، الوزير المفوض بنيامين نتنياهو الذي كان قد عيّن في منصبه حديثاً.

استهل ايغلبرغر الحديث بالقول: «ان شارون يتصرف كفيل في حانوت الخزف الصيني». واضاف ايغلبرغر: «نحن نعرف بأن هناك في القدس من يعتقد ان حبيب ربما لا يقوم بمهمته كما يشاؤ ون، لكن عليهم ان يعرفوا بأنه يتمتع بثقة الرئيس ووزير خارجيته الكاملة. وحذار ان يخطئوا في هذا الشأن»...

وفي ٣٠ تموز (يوليو)، توجه وزير الخارجية يتسحاق شمير الى الولايات المتحدة. واتفق شارون مع بشير الجميل على تخفيف الضغط على بيروت الغربية في اليوم الذي يُفترض ان يلتقي فيه شمير وزير الخارجية الاميركي الجديد جورج شولتز. «ضخّوا المياه الى بيروت الغربية في اليوم الذي يلتقي فيه شولتز وشمير»، هذا ما طلبه شارون. لكن القصف لم يتوقف. وراح الجيش الاسرائيلي يقضم احياء بيروت وجنوب غرب المدينة وشرقها طوال الايام الاربعة الاولى من شهر آب (اغسطس).

واحتل تباعاً المطار ثم حي السلم ومنطقة المتحف، والاوزاعي ومناطق حول مخيم اللاجئين في برج البراجنة.

اتصل الوزير شمير بالقدس وطلب معرفة تفاصيل الوضع ميدانياً. فتلقى تقريراً من مكتب وزير الدفاع نفى وجود اعمال عدائية على الارض، بوجه عام، واكد ان الجيش الاسرائيلي لا يقوم بأية مبادرة. وابلغ شمير نظيره الاميركي بهذا الكلام. وفي ساعة متأخرة من الليل استيقظ شمير على رنين الهاتف. كان نائماً في الفندق الذي كان ينزل فيه في واشنطن. كان الوزير شولتز على الطرف الآخر من الخط، فأبلغ شمير بأن المعارك مستمرة في بيروت على نقيض المعلومات التي كان قد ابلغه اياها، وبأن الجيش الاسرائيلي يسحق احياء المدينة. وطلب شولتز معرفة ما اذا كانت اسرائيل تنوي اقتحام المدينة في الساعات القليلة المقبلة. وعلى مدى ايام سيقول شمير للمقربين منه بأنه احس في تلك اللحظة بأن عليه ان يعود الى القدس ويستقيل من منصبه. لقد خدعوه، صوروه بأنه كاذب. لكن الاحساس بالمسؤولية الوطنية، كما قال، تغلب على رغبته في القاء كل شيء وراء ظهره.

وازداد التوتر داخل الحكومة في القدس. وكانت الجلسات الحكومية تزيد في التوتر اكثر فأكثر. ولم يعد يصدق التقارير التي يرفعها شارون ورئيس الاركان ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية سوى قلة من الوزراء. وطرأ تغيير حتى على ما كان يصدر عن بيغن بشأن شارون. ففي رده على سؤال نائبه دافيد ليفي عما اذا كان مطلعاً بصفته رئيساً للحكومة على الخطوات الميدانية، قال بيغن انه على علم بما يجري وبصورة متواصلة، احياناً قبل تنفيذ العمليات واحيانا بعد تنفيذها...

وفي الايام التي سبقت خروج المخربين من بيروت الغربية، لم يكن بيغن وشارون يعتقدان ان حبيب سينجح في مهمته وان الجيش

الاسرائيلي لن يضطر الى اقتحام المدينة. ووجه رئيس الحكومة كلاماً لاذعاً الى حبيب عندما قال انه سينجح في اخراج المخربين كما نجح في اخراج الصواريخ السورية من البقاع اللبناني. وكان حبيب مثله مثل اي وسيط آخر يهمس في آذان الاطراف ما يريدون سماعه من كلام. كما كان قد اكد انه سيكون من الممكن، في نهاية الامر، حل مشكلة خروج المخربين بالطرق السلمية، على ان تبدأ بعدها مفاوضات بشأن تسويات شاملة يغادر السوريون بموجبها الاراضي اللبنانية. قال: «اذا حُلت مشكلة بيروت فإن السوريين سيغادرون لبنان». واضاف: «انهم مدركون ضعفهم العسكري. وهم واثقون من ان نفوذهم ليس متعلقاً بوجودهم العسكري. فقد اقام السوريون بنية تحتية داخلية متشعبة وعلى مستويات مختلفة، وتؤيدهم جماعات مختلفة. ان السوريين يريدون ان تنسحب القوات الاسرائيلية، وهم مستعدون لدفع الثمن».

في واشنطن البعيدة عن ساحة الاحداث، ابدى المسؤولون شكهم، فعلا، في صحة هذا التقدير، لكنه كان يخدم هدف التوصل الى موافقة اسرائيلية على انهاء قضية بيروت.

كان شارون في هذه الاثناء قد طلب من الحكومة المصادقة على قرارات جديدة للضغط على بيروت. لكن رئيس الحكومة واكثرية الوزراء توصلوا الى ان من الافضل التقليل من اعطاء الاذونات في قصف بيروت من الجو. فقد بدا الضرر السياسي اكبر من الفائدة التي تُجنى من تنفيذ مثل هذه العمليات. وبدا الطرفان في حالة من الوهن في الايام الاولى من شهر آب (اغسطس). في اسرائيل، رأى الوزراء ضرورة وضع حد للحرب. وفي بيروت، ادرك المخربون ان اسرائيل على استعداد لاقتحام المدينة ولو في مقابل مواجهة مع الولايات المتحدة. وقد دفع هذا الادراك قادة المنظمات المحاصرين الى اتخاذ

القرار بالرضوخ ومغادرة العاصمة اللبنانية.

أما بشير الجميل فقد استمر في السلوك المحبط للآمال. فقد تخلّفت قواته خلافاً للوعود التي قطعها، وامتنعت عن الاقتحام «وتطهير» بيروت من المخربين. واعرب رئيس الحكومة، في الجلسة الحكومية التي انعقدت في ٨ آب (اغسطس)، عن المه لهذا الخذلان وامتناع المسيحيين عن التعاون. وقال: «ماذا فعل المسيحيون حتى يغادر المخربون بيروت؟ انهم لم يحركوا ساكناً في الماء البارد. كنت أسأل من حين الى آخر، ماذا فعل المسيحيون؟ والجواب الذي كنت احصل عليه كان: لقد استولوا على بلدة هنا وبلدة هناك، لكنهم لم يسفكوا دماءهم. ونحن حاربنا منظمة التحرير الفلسطينية. وقد طلب بيغن من رئيس «الموساد» تبليغ بشير بمضمون الكلام الذي قاله في جلسة الحكومة.

وفي يوم الخميس الواقع في ١٢ آب (اغسطس) توصل فيليب حبيب الى اتفاق آخر على وقف اطلاق النار. وفي ٢٠ آب (اغسطس)، غادرت طلائع المخربين بيروت الغربية في اتجاه قبرص ومنها الى الاردن. وأُدخلت في المقابل، القوة المتعددة الجنسيات الى بيروت.

***

كانت معركة انتخابات الرئاسة في لبنان قصيرة. كان بشير الجميل المرشح الوحيد. وكان لقبه: «المنقذ». كان فوزه في الانتخابات مضموناً لأنه كان يحظى بدعم اثنتين من القوى الكبيرة الثلاث الفاعلة في لبنان: « الولايات المتحدة واسرائيل. وبديهي ان السوريين كانوا يعارضون انتخابه. ونشط فيليب حبيب ومساعده موريس درايبر، وراء الكواليس، لاقناع زعماء الكتل الاسلامية والدرزية بتأييد بشير.

وقبل ايام من موعد الانتخابات هرع وزير الدفاع الى بيروت، للقاء بيار وبشير الجميل. لقد حان موسم الحصاد. استهل شارون الحديث بكلمة الاشبين لوالد العريس: «ها نحن قد اوجدنا الارضية، وها اننا في بيروت كما سبق ان اتفقنا في كانون الثاني (يناير) من هذه السنة». لقد حان وقت تسديد الحساب. وساعة متقدمة خير من ساعة متأخرة. وتلوى بيار الجميل في كرسيه واجاب بأن الوضع معقد. «ينبغي لكم ان تفهمونا».

وقال شارون: «ينبغي لكم انتم ان تفهمونا ايضاً، حتى نستطيع ان نواصل مساعدتكم. نحن بحاجة الى مشاركتكم. ان لعبة المناورات لن تؤدي الى شيء. ينبغي اتخاذ موقف. كانت هناك بضعة امكانات. فقبل شهرين اعتقدنا انكم ستعملون على تحرير عاصمتكم. وهذا لم يحدث. ولو حدث ذلك لسهل الامر علينا. وعليك ان تفهم ان اسرائيل دولة ديمقراطية، وهناك أفراد يخدمون منذ ستين يوماً. لقد دُمروا من الناحية الاقتصادية. وفي اسرائيل يتصاعد الضغط لاعادتهم الى ديارهم، وللخروج من لبنان. ولن يكون عندنا جواب عن السبب الذي يدعونا الى البقاء في بيروت. ما الذي يمكنه تغيير هذا الوضع؟ موقف جلي من جانبكم يقول: «اننا سنوقع معاهدة سلام مع اسرائيل. بعد ذلك لن يكون هناك ما ينبغي لنا تفسيره. اما اذا لم يُقل ذلك بصورة جلية تماماً، وبأن معاهدة سلام ستوقع مع اسرائيل فلن يكون في استطاعتنا البقاء في منطقة بيروت. لقد انتظرنا اعواما في سيناء حتى جاء السلام، ولكننا سنواجه مشكلات صعبة اذا مكثنا هنا من دون ان تعلن القيادة الحرة انها ستعقد معاهدة سلام مع اسرائيل وانها ترغب في بقائنا هنا.

انتم ايضا بحاجة الى تطهير مخيمات اللاجئين في بيروت، كي

يصبح في الامكان ان نقيم معكم علاقات ذات مصداقية واحترام متبادل. وقد آن الاوان، بعد ان تكبدنا ٢٥٠٠ اصابة، كي تفعلوا شيئاً ما. فلتقرع الاجراس، ولتصدر التصريحات والبيانات. فثمة شعب قد تكبد هنا ٢٥٠٠ اصابة في الحرب، وهو لا يفهم كل ذلك. من الجائز اني قلت كلاماً قاسياً جداً، لكن هذا الكلام كان يصدر من القلب، وهو كلام الصديق الى اصدقائه. هذا ما اشعر به وما اؤمن به. قلت ذلك إنطلاقاً من معرفتي بوضع اسرائيل الداخلي وبوضعنا الدولي».

واعرب الضيوف عن تفهمهم لكلام شارون، وتعهدوا بأن يتغير كل شيء بعد انتخاب بشير.

* * *

وابل الرصاص الذي انهمر في ٢٣ آب (اغسطس) هو الذي بشّر سكان بيروت بانتخاب بشير الجميل كالرئيس الثالث عشر للبنان. وقرأ امين سر المجلس النيابي اللبناني اسم بشير ٥٧ مرة من بطاقات الاقتراع التي كان يحملها بين يديه في مكان انعقاد البرلمان في الكلية العسكرية بالفياضية، على بعد خمسة كيلومترات شرقي بيروت. وقد امتنع خمسة نواب فقط من الذين حضروا الاقتراع عن التصويت في الدورة الثانية من الانتخاب. اما بيار الجميل والشقيق امين الذي كان في اثناء الاقتراع يقضم اظافره لشدة توتر اعصابه ، فقد تعانقا طويلاً مع بشير.

علم اريئيل شارون بالنتائج من الاذاعة وقال للمقربين اليه: «سيكون هذا هو الرد على جميع الذين سخروا من اهداف الحرب في لبنان». وقد بدا كل شيء وكأنه يجري بحسب السيناريو الموضوع سلفاً. فالمخربون قد طردوا من لبنان، وانتخب صديق اسرائيل رئيساً

للدولة. فالاستثمار كان مجديا. اذ زوّدت اسرائيل الكتائب حتى انتخاب بشير بعتاد عسكري بلغت قيمته ملايين الدولارات، كما درّبت الآلاف من جنوده.

وحتى الولايات المتحدة رحبت بانتخاب بشير الجميل. فقد ابرق الرئيس ريغان اليه قائلاً ان الانتخاب جرى وفق عملية دستورية عادية، وفي ظروف صعبة، واعرب عن امله بأن يؤدي هذا الى تحقيق السلام في لبنان. واضاف الناطق باسم البيت الابيض ان الولايات المتحدة ستتعامل عبر تعاون وثيق مع الحكومة اللبنانية الجديدة. وهكذا اكل بشير من الدّسمين الاميركي والاسرائيلي.

ولم يأبه رئيس الحكومة الى النصائح التي قدّمها له موظفوه في وزارة الخارجية. وفور معرفة بيغن بنبأ انتخاب بشير، قرر ان يبعث اليه برسالة تهنئة تنشر ايضا في وسائل الاعلام. فقد كان من بين القلائل الذين عرفوا حق المعرفة الجهد الذي وظفته فيه اسرائيل. وحاول المستشارون اقناعه بأنه من الافضل المحافظة الآن على بروفيل منخفض، وتمكين بشير اولا وقبل كل شيء من ترسيخ اقدامه في الحكم وإقامة حكومة تحظى بتأييد اوساط جماهيرية واسعة في لبنان. لكن بيغن كان يفكر بشكل آخر. فقد كتب بخط يده المتراص الى بشير الجميل: « «تهاني القلبية الحارة بمناسبة انتخابك. فليكن الله معك يا صديقي العزيز لتحقيق مهمتك التاريخية من اجل حرية لبنان واستقلاله. صديقك مناحم بيغن».

امتنع الرئيس المنتخب عن الرد العلني على التهنئة. فلقد كان يتصرف بحذر كبير. ومرة اخرى ثبت ان لا علاقة بين تعهدات المرشح واعمال المنتخب. وهذا ما يحدث في كل مكان ولا سيما في الشرق

الاوسط، فكم بالأحرى في لبنان. فالإسرائيليون الذين كانوا على اتصال ببشير شعروا فوراً بالتغيير. وكان اول لقاء له كرئيس لبنان مع رئيس الاركان رفائيل ايتان. رفض الجميل الاستجابة لاقتراح رفول للتحليق معه في طائرته. إذ قال له: «مرة اخرى»، وواصل الاغداق بسيل من الوعود: لن تكون هناك مشكلات فمخيمات اللاجئين الفلسطينيين في بيروت وجوارها «ستطهر»، ومكانة الرائد حداد لن تتضرر، وقوات الطوارىء الدولية ستطرد من الجنوب اللبناني. بيد ان بشير كان قلقاً إزاء المرحلة التي ستعقب «تطهير» بيروت من الفلسطينيين. وتخوف بصورة خاصة من السوريين. غير ان رفول طمأنه. فالجيش الاسرائيلي سيتمركز قبالة السوريين في سهل البقاع، وسيكون مستعدا لمواجهة كل تطور. وسيبدأ حبيب بالمحادثات من اجل إخراج القوات الاجنبية كلها، وسيكون وجود الجيش الاسرائيلي سوطاً في يده بوجه السوريين.

توثقت العلاقات بين فيليب حبيب وموريس درايبر من جهة وبشير الجميل من جهة اخرى. وكان الاميركيون ينصحون الرئيس المنتخب في كل خطوة من خطواته. وكانت احدى نصائحهم الاساسية التزام الحذر في علاقاته العلنية بالاسرائيليين، كي لا يظهر كلعبة يتجاذب الاسرائيليون خيوطها. ان بشيرا «اكتشف اميركا» واخذ يتصرف في ضوء ذلك. وكانت القدس تتابع ما يجري بشيء من القلق. وبدا ان الاميركيين سيقطفون ثمار الشجرة التي زرعت في جونية. لكن الجميل ظلّ يرسل تلميحات التطمين.

احتفل «الموساد» بفوز بشير في الانتخابات بإقامة مأدبة عامرة. وربما كانت هذه اول مرة في تاريخ جهاز المخابرات الاسرائيلي، يصل فيها «إنتاجه» الى قمة الزعامة السياسية في بلده [المقصود بلد

بشير، المترجم] فقد لخص رؤساء «الموساد» مجريات الامور لصانعي السياسة في القدس، جزموا ان اسرائيل تقف امام ظاهرة جديدة في شبكة علاقاتها ومكانتها في المنطقة، وهي ظاهرة ذات طاقة كامنة وقوة اقتصادية وسياسية من الدرجة الأولى.

بدأ الاعداد في المؤسسة الامنية لمسودة اتفاق سلام مع لبنان. بيد ان الامر كان محاطاً بسرية تامة الى حد ان كاتبيه رفضوا اطلاع حتى الوزراء وخبراء وزارة الخارجية عليه. ولم تشاهد حكومة اسرائيل الاتفاق الذي كانت تنوي عرضه على بشير، خوفاً من تسريبه.

اما واشنطن فقد احتفلت بإنجاز آخر: خروج المخربين من بيروت، الذي استكمل اجلاؤهم في الأول من ايلول (سبتمبر). وتحول فيليب حبيب الى بطل قومي، ومنحه الرئيس ارفع وسام استحقاق يمنح عادة لمن اسدى خدمة للشعب الاميركي. واسبغ ريغان الثناء على مشاة البحرية الاميركيين الذين ارسلوا الى بيروت في نطاق القوة المتعددة الجنسيات للاشراف على وقف اطلاق النار، متجاهلا اسرائيل والجيش الاسرائيلي. كان رئيس الحكومة الاسرائيلية يغلي من شدة الغضب، وقد قال: «انه لأمر ملفت للانتباه ان من يصغي الى كلام الرئيس ريغان لا يسعه الا ان يخرج بانطباع بأن كل ذلك لم يتحقق الا بفضل عدد من مشاة البحرية الذين تكرمت الولايات المتحدة بإرسالهم الى لبنان، بعد ان تعهد المخربون لفيليب حبيب بالخروج من هناك».

كان الجميع في واشنطن منصرفين في ذلك الوقت الى البلورة النهائية للمبادرة السياسية تجاه الشرق الاوسط التي دعيت باسم الرئيس ريغان. فخلال اشهر طويلة، وفي اجتماعات مغلقة في وزارة الدفاع

ومجلس الامن القومي والبنتاغون، جرى بلورة المبادرة التي هدفها تحريك عجلة المسار السياسي الذي جمد في مكانه بعد اغتيال الرئيس السادات، وإعادة سيناء الى مصر. لقد اوجدت الحرب في لبنان ضغطاً جديداً، واثبتت لمن كان بحاجة الى اثبات، ان لا مفر من معالجة القضية الفلسطينية. فخروج رؤساء منظمات المخربين من بيروت واستعداد عدد من الدول العربية لاستقبال الفلسطينيين، ألزما الادارة الاميركية ابتكار مشروع للحل. واطلعت الدول العربية المعتدلة، مثل الأردن ومصر والعربية السعودية ودول اخرى، على خفايا هذه القضية. وتركت اسرائيل خارج دائرة المشاورات التي اجراها مسؤولو الادارة الاميركية. ولم تكن السفارة الاسرائيلية في واشنطن على علم بما سيجري. واعدّ للسفير آرنس وكبار افراد طاقم السفارة «يوم غفران صغير»، وفوجئوا. وورد في التقرير الذي ارسل الى القدس قبل بضعة ايام من اعلان المشروع، انه في حديث مع إحدى الشخصيات الكبيرة، عُلم انه تجري في الاجهزة المختلفة التابعة للادارة الاميركية مناقشات واسعة تتعلق باستمرار المفاوضات بشأن مستقبل يهودا والسامرة؛ بيد ان الادارة الاميركية لم تتوصل الى اية نتائج ملموسة ومفصلة، ولم يحن الوقت بعد للكلام عن خطة عمل واضحة. وهكذا فالضباب الذي نثر كان متكاملاً.

وصل السفير موشيه آرنس الى البلد مبتسماً ومتألقاً، وذلك عشية اعلان المشروع، وقال لمندوبي وسائل الاعلام: إن العلاقات الاسرائيلية ـ الاميركية قد تحسنت كثيراً في اعقاب التوصل الى اتفاق إخراج المخربين. ولم ينبس ببنت شفة عما هو متوقع.

كان وزير الدفاع في زيارة للولايات المتحدة، واجتمع الى وزير الخارجية شولتز، و«اشتم» شيئاً ما، فسارع الى ارسال تقرير الى بيغن. غير ان الولايات المتحدة حافظت على الاوراق جيداً ولم يحدث اي تسريب.

وفي فندق «كارلتون» في نهاريا، حيث كان بيغن يمضي عطلته، سمع للمرة الاولى بمبادرة ريغان. وفي اعقاب الاتفاق على خروج المخربين، بعد اشهر طويلة ومضنية، وفي حين كان لا يزال يعاني من ساقه، وبينما كانت حالة زوجته عليزا الصحية تزداد تأزما، خرج رئيس الحكومة في اجازة لبعضة ايام. قبل عام تقريباً امضى الزوجان فترة من الوقت في نهاريا، بعد اتفاق وقف اطلاق النار مع المخربين، وذلك لتشجيع السكان الذين عانوا من اصابات صواريخ الكاتيوشا والقصف المدفعي. تلقى بيغن في مكان عطلته رسالة مفصلة جداً بعث بها اليه الرئيس ريغان بشأن مبادرته.

بعد الانتهاء من قراءة الرسالة، قال بيغن للسفير لويس: «انه يوم صعب لكلينا، يوم صعب لي ولك، لاننا وصلنا الى امر كهذا». لقد رأى بوضوح كيف ان الاميركيين لا يتركون اسرائيل تستفيد من ثمار الانتصار في بيروت. وفي الايام التالية ازمع بيغن على التعبير عن هذا الاحساس، فقرر رفض المشروع الاميركي رفضا قاطعاً. «ولد ميتا» ـ قال بيغن جازما، وهو يشير الى دعوة الحكومة الى الانعقاد في اقرب وقت.

لم يخرج بيغن وزوجته من حجرتهما في الفندق. فقد انشغل رئيس الحكومة، بصورة اساسية، بالقراءة والاستماع الى الاذاعة. لكن

يمكن التكهن انه في بداية شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢، وفي اثناء ملازمة رئيس الحكومة لغرفته في الفندق، كان قد بدأ بعملية نقد ذاتي.

لماذا يتردد بشير الجميل في المجيء الى اسرائيل، وابرام اتفاق سلام معها؟ ان هذا الامر قد تعذّر فهمه على بيغن الذي كان في صدد حكمه على الآخرين وفق مقاييسه هو: الكلمة هي كلمة، والالتزام هو التزام. ولم يغفل رئيس الحكومة مقالات الانتقاد التي نشرتها وسائل الاعلام في البلد، والتي قابلت الثمن الذي دفع في الحرب بالنتائج التي تحققت. لقد كان بيغن رجل سياسة ايضا. فالشعب يريد ان يرى المردود، وسوف يمكنه من ذلك. فقد وعد بأن يهدأ البلد اربعين عاما، وبأن يتم توقيع اتفاق سلام مع لبنان، وبأنه سينشأ حلف بين دول ثلاث في المنطقة: لبنان، واسرائيل، ومصر. وثمة سؤال آخر كان يشغل بال بيغن: لماذا لم يقم المسيحيون بنصيبهم في الحرب ودرج على القول «انهم لم يحركوا ساكناً». وقرر رئيس الحكومة ان يبحث في هذه الموضوعات كافة مع بشير الجميل، الذي بذل من جانبه كل جهد لتجنب الحديث مع بيغن. فحاول مستشاروه ان يشرحوا لممثلي «الموساد» ولشارون بأنه ينبغي تأجيل اللقاء. وقالوا: «عليكم ان تختاروا بين سلام مع بشير، او عملية سلام مع لبنان». غير ان رئيس الحكومة ظل متمسكاً برأيه. والمكان الذي وقع عليه الاختيار للاجتماع كان مبنى مجاوراً للمكان الذي كان بيغن يمضي فيه اجازته.

اول من وصل كان الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل. فلقد نقلته طوافة من سلاح الجو، برفقة مستشاريه المقربين واحد اساتذة القانون الدولي في إحدى جامعات بيروت. كان شارون وشمير مشغولين في تلك الليلة بالضيف الاميركي وزير الدفاع كاسبار واينبرغر

الذي اقيم على شرفه استقبال فخم في فندق «هيلتون» بتل ابيب. وفي ذروة الاحتفال اعتذر شارون من ضيفة، وابلغه انه مضطر الى الذهاب للقاء عاجل مع رئيس الحكومة.

كانت الكآبة تخيم على الغرفة التي كان من المفترض ان يجري فيها اللقاء. فلقد مر الوقت في انتظار مجيء رئيس الحكومة بتجاذب اطراف احاديث ودية، وبإثارة الذكريات. روى بشير انه لا يزال يذكر جيداً تلك الليالي عندما وصلت السفن التي انشأت الروابط بين الاسرائيليين والمسيحيين في لبنان، وكذلك الزوارق الصاروخية والحوامات التي غالبا ما كان المسيحيون يجهلون من هي ومن فيها ومن تمثل. وكان يسود آنذاك تقارب وصداقة عميقة. واذ بعد نشوب الحرب بالذات ـ اضاف بشير بحنين ـ حدث تباعد بين المسيحيين والاسرائيليين كما لو كانوا غرباء بعضهم عن بعض. «اردت ان نظل اكثر قربا كما كنّا في الماضي».

كان من المستحيل اخفاء التوتر الذي ساد الغرفة التي كان من المفترض ان يجري فيها اللقاء بين زعيم «العصابة» كما كان بشير يسمي زمرته في بداية طريقه وهو الآن قد وصل الى ذروة امانيه واصبح رئيساً للبنان، وبين رئيس حكومة اسرائيل الذي آمن بأن شعبه يستحق، بعد كل الذي فعله من اجل المسيحيين في لبنان، اتفاق سلام مع هذه الدولة.

كان دخول رجال الامن الى الغرفة دليلاً على وصول بيغن. وبوجه متجهّم، وبمشية متعثرة قليلاً، والانهاك بادٍ على وجهه، اطل بيغن في المدخل. فوقف الكل له. تصافح الجميل وبيغن وتعانقا، وتبادلا

التهاني، ثم جلسا الى طاولة عليها مرطبات ونبيذ واباريق قهوة وشاي وحلوى. وعندما نهض بيغن ليلقي كلمته، كان في الامكان ملاحظة العاصفة النفسية التي تجتاحه. ومن دون الاستعانة بأي ورقة، وبإنكليزية سلسلة قال: «الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل، صديقيّ الوزيرين شمير وشارون، ايها الضيوف المحترمين. اسمح لي بأن اواصل مخاطبتك كما تعودت: «ماي صن» (يا ولدي) أخاطبك كما يخاطب الاب ابنه. لقد آمنت دائماً بأنك ستكون رئيساً للبنان، وستقود بلدك في طريق الاستقلال والسيادة على اراضيه كافة، والى الديمقراطية والسلام مع جيرانه».

تحدث بيغن عن «الرابطة المصيرية» بين لبنان الحر، بجزأيه الجنوبي والشمالي، وبين اسرائيل. «كنا مصممين خلال السنوات الاخيرة، على الحؤول دون تدميركم» - قال رئيس الحكومة، وشدد على حساسية اسرائيل إزاء استمرار وجود الاقليات في المنطقة وإزاء «حلف الدم» الذي ربط بين اسرائيل والمسيحيين في حربهم المشتركة ضد منظمات الارهاب - واضاف: «إن العلاقات الوثيقة بيننا لن تنقطع».

في الجزء الاخير من خطابه، تحدث بيغن عن المستقبل: «والآن بعد ان شقت الطريق، وازيلت العقبات امام إرساء لبنان المستقل وذي السيادة، آن الاوان لبناء مستقبل مشترك لشعبينا على اساس علاقات سلام وحسن جوار». وطلب رئيس الحكومة من الحضور الوقوف وشرب نخب الضيف: «يعيش رئيس لبنان، بشير الجميل» - انهى بيغن كلامه.

وصف بشير الجميل في كلمته الجوابية المؤثرة رئيس الحكومة بـ«القائد العظيم»، وشكر بيغن على كل المساعدة التي قدمتها اسرائيل للمسيحيين، وعلى خلق الوضع الذي سمح بانتخابه رئيساً. «لن ينسى المسيحيون ما فعلتموه من اجلنا، وهذا الامر سيتجلى بشكل ملموس في العلاقات التي ستنشأ بين الدولتين». وطلب بشير من الموجودين الوقوف وشرب نخب رئيس الحكومة ودولة اسرائيل.

عندئذ طلب بيغن الانفراد ببشير في حجرة جانبية لاجراء نقاش عملي بحضور فريق مقلص جداً، فشُمِّر عن السواعد، وخلعت القفازات، وكان النقاش حاداً.

كان الوقت قد اصبح متأخراً جداً. وتقرر تشكيل لجنة رسمية من ممثلين عن دوائر رئيس الحكومة ووزارتي الخارجية والدفاع، ومن شخصيات رفيعة المستوى من ادارة الجميل. وستكون مهمة هذه اللجنة البحث في مستقبل العلاقات بين اسرائيل ولبنان.

خرج بشير من اللقاء خائبا ومستاء من لهجة بيغن الاكراهية إزاءه (وفيما بعد، عندما اذاعت «كول يسرائيل» خبراً مفصلا عن مضمون اللقاء، استشاط الجميل غضباً، وكان مقتنعاً بأن التسريب كان مقصوداً لإرباكه والحد من مجال المناورة لديه في اتصالاته بالأوساط الاسلامية في لبنان التي عارضت العلاقات مع اسرائيل).

لقد عاد رئيس الحكومة من الاجتماع في الفندق بنهاريا. وبعد بضع ساعات كان يُفترض ان يطير الى القدس لحضور جلسة الحكومة الخاصة التي دعا اليها للبحث في مبادرة الرئيس ريغان، اذ كانت النية تتجه الى رفضها رفضاً قاطعاً. وفي نشرة اخبار الساعة السابعة صباحاً، اذاعة «كول يسرائيل» خبراً مفاده ان رئيس الحكومة اجتمع ليلا الى

وزيري الخارجية والدفاع في حديث مطوّل. ولم تكشف اية تفاصيل عن مضمون هذا الحديث. وقد سأل احد الوزراء بيغن عن مغزى هذه المشاورات لكن رئيس الحكومة تعمد الغموض، وقال: «لا يسأل الرجل المتزوج ابدا اين يقضي لياليه». وظلّ على غموضه.

الفصل الثامن: تجسم الآمال

قطع الأزيز في جهاز الاتصال الصمت في السيارة الفخمة. وزير الدفاع اريئيل شارون، الذي اخذ سبيله الى مزرعته في جنوبي البلد، طُلب بإلحاح للاتصال برئيس «الموساد». كان ذلك يوم الثلاثاء، ١٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢. الساعة: ٤,٣٠ بعد الظهر. شارون يعطي سائقه التعليمات بالانحراف عن الطريق ودخول معسكر كبير. فوجىء الجنود في المعسكر بالزيارة غير المتوقعة، لكن لم يكن هناك وقت كاف للتشريفات والترحيبات. قبل ساعة وقع انفجار شديد في مبنى حزب الكتائب في حي الاشرفية في بيروت. هناك قتلى كثيرون. بشير كان في المبنى. لا اخبار عن وضعه. رئيس «الموساد» وعد الوزير بتزويده بالمستجدات عندما تصبح لديه تفاصيل اخرى. من هنا فصاعداً سنلاحق الاحداث ساعة ساعة.

١٩,٠٠: شارون يعود الى مكتبه في تل ابيب ويطلب فوراً التحادث مع رئيس الاركان ورئيس «الموساد». لقد بحثوا في امكانات العمل اذا ما اتضح فعلاً ان بشير قد قتل. في اثناء محادثاتهم يدخل الغرفة رئيس مكتب رئيس فرع المخابرات ويعلن ان بشير حي، وانه

سيلقي بعد ساعة ونصف الساعة خطاباً وطنياً في تلفزيون لبنان الرسمي. يتصافح الحاضرون فرحاً ويقررون مواصلة التشاور طوال المساء طبقاً للحاجة. يخرج اريئيل شارون لتناول الطعام في مطعم محبب اليه في تل ابيب.

٢٠,٠٠: الاخبار من بيروت متناقضة ومتلاحقة، زوجة بشير، صولانج، تسرع الى المستشفى الفرنسي في اثر خبر بأن زوجها نقل الى هناك للمعالجة.

٢١,٣٠: رئيس «الموساد» يخبر رئيس الحكومة ورئيس الاركان بأن رجاله ميزوا جثة بشير بين انقاض المبنى. لقد قتل، مع بعض مستشاريه، بانفجار عبوة ناسفة قدرت بمئات الكيلوغرامات وضعت على سطح البيت. احد معارف شارون يحاول معرفة مكانه، لكن من دون نجاح.

٢٢,٠٠: رئيس الاركان يتصل هاتفياً بمنزل رئيس الحكومة ويبحث معه في الوضع الناجم. بيغن يصادق على تنفيذ خطة كان قد وافق عليها قبل ذلك شارون ورفول: استخدام قطار جوي، يحمل آلاف الجنود ومركبات وأعتده الى مطار بيروت الدولي. طائرات «هيركولس» تتخذ طريقها شمالاً.

٢٣.٠٠: اريئيل شارون يصل الى مزرعته في جنوبي البلد ويسمع عبر الهاتف من مساعده، آفي دوداي، عن الاحداث في بيروت. يسارع الى الاتصال برئيس الاركان، الذي يقدم اليه تقريراً عن القطار الجوي الى بيروت. وزير الدفاع يتصل هاتفياً برئيس الحكومة ويسمعه كلاماً مشجعاً عن القرار الذي اتخذه الجيش الاسرائيلي بدخول بيروت الغربية والانتشار في مناطقها الرئيسية.

لأيام سيقول بعض مساعدي بيغن، ومن بينهم سكرتير الحكومة دان مريدور، ان رئيس الحكومة صادق لرئيس الاركان على احتلال مفاصل رئيسية في بيروت الغربية فقط وليس احتلال المدينة. سيدعي مساعدو شارون ان بيغن تلقى تقريراً كاملا عن انتشار الجيش الاسرائيلي، الذي لم يدخل المناطق التي تحددت سلفا فقط. لقد حققت لجنة كاهان في هذا الموضوع، ولم تصل فيه الى حسم.

الاربعاء: ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢

٧,٠٠: «صوت اسرائيل» يقدم تقريراً في مستهل نشرة الاخبار عن دخول الجيش الاسرائيلي بيروت الغربية. الخبر مبني على تقارير وكالات الانباء الدولية من عاصمة لبنان. لا تأكيد للأخبار من مصادر اسرائيلية. اعضاء الحكومة يسمعون اول مرة بدخول الجيش الاسرائيلي بيروت الغربية من تقارير الاذاعة. بعضهم يتصل بمكتب رئيس الحكومة لتلقي مزيد من المعلومات، وبعد ذلك يجرون محادثات تلفونية فيما بينهم. السؤال الذي طرح: من وكيف تلقى الامر بإدخال الجيش الاسرائيلي الى بيروت الغربية.

٨,٠٠: وزير الدفاع يصل الى مفرز القيادة المتقدمة التي اقيمت في بيروت، ويجتمع الى رئيس الاركان. وهذا يقدم اليه تقريراً عن اتفاق تم عقده مع الكتائب، يتعلق بالتعبئة العامة، ومنع التجول ودخول الكتائب الى المخيمات. شارون يصادق على الاتفاق. من على سطح مفرزة القيادة يتصل وزير الدفاع برئيس الحكومة هاتفياً، ويخبره بعدم وجود مقاومة في بيروت وبأن العملية تسير على ما يرام.

١١,٠٠: المتحدث باسم الجيش الاسرائيلي يعلن: «في اثر مقتل الرئيس المنتخب بشير الجميل، دخلت قوات الجيش الاسرائيلي

بيروت الغربية الليلة، لمنع حوادث خطرة قد تقع ولكي تضمن الهدوء».

١١,٣٠: في مكتب رئيس الحكومة ينعقد اجتماع مع السفير الاميركي موريس درايبر، الذي يحتج بشدة، باسم بلده، على دخول الجيش الاسرائيلي بيروت الغربية. مناحم بيغن يعلن لدرايبر ان «عملية الجيش الاسرائيلي تمت للحيلولة دون حوادث معينة قد تقع، اذ كان لدينا خوف من وقوع مذابح حتى في اثناء الليل». ويستطرد بيغن: «الكتائب يتصرفون كما ينبغي، قائدهم العسكري لم يصب في الحادث ويسيطر على قواته. انه انسان جيد، ونحن نعتمد عليه بألا يتسبب بمصادمات، لكن ليس لدينا ثقة بالنسبة الى القوات الاخرى. هدفنا المحافظة على الهدوء، وما دام هناك محافظة على الهدوء، يمكن الوصول الى محادثات. وإلا، فسيكون هناك احتمال وقوع مذابح منظمة».

١٢,٠٠: حضر وزير الدفاع للاجتماع برؤساء الكتائب في مقر قيادة الحزب في بيروت. «الوضع خطر» ـ يقول شارون ـ «وينبغي لنا ان نتخذ قرارات اليوم. نحن معكم مع كل الدعم المطلوب. مؤسف اننا فقدنا الانسان، بشير، كانت لدينا الكثير من الآمال. لم اخف اسراراً عن بشير قط. تحدثنا معه دائما قبل ان تحدثنا مع الاميركيين وبعد ان تحدثنا معهم ايضا، وهذا ما يجب ان يستمر». زاهي البستاني، من رؤساء الكتائب، يطلب الا نضغط عليهم. ثمة عدة احتمالات بالنسبة الى المستقبل، «ومن المهم» ـ يضيف ـ «ان تسيطروا على بيروت كلها». يجيب وزير الدفاع: «سنفعل ذلك، لكننا بحاجة الى مساعدتكم. سنسيطر على بؤر ومقاطع طرق، لكن يجب ان يدخل جيشكم ايضاً، يحتمل وراء جيشنا. ستجرون اتصالاً باللواء

دروري وتقررون كيف تفعلون ذلك».

١٤,٠٠ : شارون يزور بكفيا، مكان مسكن عائلة الجميل، لتقديم التعزية. حديث قصير مع الأب بيار الجميل. ومع الاخ الكبير امين. شارون يقدم تعازي رئيس الحكومة للعائلة، الاثنان يؤكدان مواصلة طريق المرحوم بشير.

١٨,٠٠ : شارون يتحدث من بيته مع رئيس الحكومة، ويوافيه بتقرير مفاده ان الجيش الاسرائيلي سيكون حتى المساء في كل الاماكن. «كل شيءمنتظم، القرار الذي اتخذ في الليلة السابقة بإدخال الجيش الاسرائيلي الى بيروت كان بالغ الاهمية، ولم يكن جائزاً تأخير اتخاذه».

١٩,٠٠ : اعضاء الحكومة يواصلون تلقي نزر يسير من المعلومات عما يجري في الميدان. بعضهم يتوجه الى سكرتير الحكومة، دان مريدور، ويطلب دعوة الحكومة الى جلسة خاصة.

الخميس ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢

٩,٠٠ : السفير الاميركي، موريس درايبر، يلتقي وزير الدفاع ويطلب منه اخراج قوات الجيش الاسرائيلي من بيروت الغربية. «لقد اوجدت اسرائيل للولايات المتحدة وضعاً صعباً للغاية، لأنه قد تتهم بأنها نفذت مؤامرة مع اسرائيل. يجب ان نعطي الجيش اللبناني فرصة لحل المشكلة. هناك معارضة شديدة من رئيس حكومة لبنان، شفيق الوزان، لوجود قوات الجيش الاسرائيلي في بيروت الغربية، وهم يطالبون بانسحاب فوري للجيش الاسرائيلي».

يجيب شارون: «نحن انقذنا الوضع في بيروت. هذه هي المرة الثانية التي ننقذ فيها الوضع هناك: اول مرة عندما دخلنا هناك، والمرة الثانية عندما اوشك كل شيء على الانهيار». درايبر يرد بحزم: ان اسرائيل خرقت وعداً اعطته بواسطة رئيس الحكومة في رسالة الى رئيس الولايات المتحدة، بأنها لن تدخل بيروت الغربية. يجيب شارون: «عندما اعطي الوعد كان الوضع مختلفاً. المخربون كانوا قبل الجلاء. الآن نشأ وضع جديد تماماً. اذا كان هناك خرق للاتفاق، فقد جرى على ايدي المخربين، الذين خدعوكم وخدعونا في آن. اليوم في الواقع توجد جهة واحدة فقط تستطيع ان تحافظ على الوضع كي لا ينهار تماماً في بيروت، وهي نحن». درايبر: «اذا كان كذلك، فأنتم ستكونون دائماً شرطي لبنان». شارون: «بالتأكيد لا».

١٠,٠٠ : شارون يعطي تعليمات لوقف العمليات الحربية في بيروت الغربية في اعقاب الضغط السياسي من جانب الولايات المتحدة وجهات اخرى. بعد وقت قصير يلغي التعليمات. في مكتبه يجري نقاش بمشاركة رئيس الاركان ورئيس المخابرات العسكرية وآخرين. رفول يقدم تقريراً: «المدينة كلها في ايدينا. يسود الآن هدوء مطلق. المخيمات مغلقة ومحاصرة. رجال الكتائب يجب ان يدخلوها في الساعة ١١ ـ ١٢».

شارون يتحدث عن الضغوط الاميركية وغيرها للخروج من بيروت الغربية. في اثناء النقاش يعلم رئيس الحكومة هاتفياً بأن «الحرب انتهت. مخيمات اللاجئين محاصرة. توقف اطلاق النار. امامي يجلس رئيس الاركان، الذي وصل الآن من هناك. النقاط الرئيسية كلها في ايدينا، وانتهى كل شيء. سآتي برئيس الاركان الى جلسة الحكومة. هذا هو الوضع في هذه اللحظة».

شارون ورفول يتشاوران في كيفية عرض الاحداث في جلسة الحكومة التي توشك ان تنعقد في المساء. في قضية دخول مخيمي اللاجئين صبرا وشاتيلا. يقول شارون انه «يريد ادخال الكتائب الى المخيمين».

١١,٠٠ : في مقر الكتائب في بيروت اتخذ قرار بترشيح امين الجميل للرئاسة. الانتخابات ستجري قبل ٢٣ ايلول (سبتمبر)، موعد انتهاء ولاية الرئيس سركيس. كما يبدو، المقصود ٢١ ايلول (سبتمبر). رؤساء الكتائب ينقلون رسالة الى اسرائيل تتعلق بترشيح امين. اثنان من رؤساء الكتائب يؤكدان لشخصية اسرائيلية ان امين سيواصل طريق اخيه.

في اوساط عناصر التقويم في البلد يشيع الرأي بأن امين بحاجة الى اسرائيل بما لا يقل عن حاجته الى الدعم العربي. وأنه سيناور بين اسرائيل والعرب على الرغم من قطع العلاقات معه في الماضي عدة مرات نظراً لتأييده للسوريين ولعناصر اليسار في لبنان.

١٢,٠٠ : قادة الكتائب يصلون لاجراء محادثات تنسيق اولي قبيل دخولهم مخيمي اللاجئين، صبرا وشاتيلا. بناء على الخطط، سيدخل ١٥٠ مقاتلاً. اللواء عاموس يارون، الذي حضر المحادثة، يحذرهم بألا يلحقوا الضرر بالسكان المدنيين.

١٨,٠٠ : قوات الكتائب دخلت المخيمين، اللذين يوجد فيهما مخربون مسلحون بأسلحة متنوعة. لقد نوى المخربون تجديد عملياتهم ضد الجيش الاسرائيلي. اقاموا في المخيمات خلافاً لاتفاق الجلاء الذي احرزه فيليب حبيب. كانت احدى مهماتهم المحافظة

على السكان الفلسطينيين في المخيمات، خشية ايذائهم من جانب جهات مختلفة.

١٩,٠٠ : الملازم الول، رئيس مكتب قائد الأوغداه في بيروت سمع بواسطة جهاز الاتصال، ضابط كتائب من القوة التي دخلت المخيمين يبلغ (بالعربية) ايلي حبيقة، رئيس وحدة المهمات الخاصة التابعة للكتائب، ان لديه ٥٠ امرأة وطفلا. انه يسأل: ماذا افعل؟ يرد حبيقة في جهاز الاتصال: «وهذه هي آخر مرة تسألني فيها مثل هذا السؤال. انت تعرف بالضبط ماذا تفعل». رجال الكتائب، الذين يقفون على سطح مفرزة الاوغداه في بيروت، ينفجرون بضحك صاخب. الملازم الول يفهم ان المقصود قتل النساء والاطفال.

١٩,٣٠ : الحكومة تعقد جلسة خاصة. الموضوع مدرج في جدول الاعمال: الوضع في لبنان بعد مقتل الرئيس المنتخب بشير الجميل. وزير الدفاع يكشف للوزراء انه قبل يومين من مقتله، في ١٢ ايلول (سبتمبر)، التقى بشير ليلا، وتوصل معه الى اتفاقات بعيدة المدى بشأن مستقبل العلاقات بين الدولتين بعد توليه منصب الرئاسة. جرى في المحادثة تنسيق مفصل بشأن دخول الجيش اللبناني الى بيروت الغربية، وبشأن «تنظيف» المدينة من المخربين خلال شهر. ان القرار الذي اتخذ بإدخال الجيش الاسرائيلي الى بيروت الغربية كان، في رأي شارون، مبرراً: «احياناً نجابه اوضاعاً للحظات خطرة تستوجب اتخاذ قرار فوري. في رأيي، ان وضعاً كالذي واجهناه كان نقطة انقلاب يمكن ان تضعنا مجدداً في وضع تصبح فيه بيروت الغربية محمية مرة اخرى بواسطة قوات مخربين وميليشيات... كان ذلك اذن قرار اللحظة الاخيرة».

في أثناء الجلسة يصل الخبر: «الآن تلقينا بلاغاً ان وحدة كتائب كبيرة دخلت مخيم صبرا وهي تمشطه» - يعلن شارون للوزراء الحاضرون بألا يطرحون اسئله، وألا يبدون ملاحظات. رئيس «العوساد»، الذي يعرض الوضع امام الحاضرين بعد مقتل بشير، لا يتعرض لقضية دخول الكتائب الى المخيمات. احد مندوبي «الموساد» الكبار اقام ذلك اليوم في بيروت، ولم ينقل اي تقرير عن الاتفاقات التي تمت مع الكتائب قبل دخولهم. رئيس «الموساد» يسمع لأول مرة عن الدخول في جلسة الحكومة. رئيس الحكومة يبدو منهمكاً في صوغ بيان، هدفه ان يشرح في البلد والعالم عدالة القرار بدخول بيروت الغربية.

قبيل نهاية الجلسة يبدي نائب رئيس الحكومة، دافيد ليفي، ملاحظة بأن المشكلة ليست صوغ قرار، بل ان استمرار اقامة الجيش الاسرائيلي في بيروت من شأنه ان يؤدي الى حالة ضغط شديد علينا غير مرغوب فيه. ويصرح ليفي انه غير مقتنع بالحجة التي تذرع بها الجيش الاسرائيلي لدخول بيروت، «اردنا منع الفوضى في لحظة معينة يستحيل تجاهل مغزاها. عندما تكون هناك فوضى، ويمكن للآخرين استغلالها فعندها يمكن شرح الوضع، ويكون ذلك مقنعاً. لكن هذا الادعاء يمكن ان يتبدد، ويمكن ان نظهر نحن غير صادقين. عندما اسمع ان الكتائب قد دخلوا حياً معيناً اعرف ما هو معنى الانتقام عندهم، واية مذبحة، عندها لن يصدق احد انهم دخلوا هناك لفرض النظام وسيوجه الاتهام الينا. لذلك اعتقد اننا هنا قد ندخل في وضع نتهم فيه، ولن يصمد ادعاؤنا».

هذه الكلمات بقيت معلقة في فراغ الغرفة. لم يجب احد من الوزراء. وزير الدفاع يروي للوزراء ايضا ان طائرات سلاح الجو

انطلقت وحمت جنازة بشير الجميل، لأنه كان هناك خوف من ان يحاول المخربون او السوريون ضرب التشييع بنيران المدفعية. يعود شارون ويدعي انه في محادثته الاخيرة مع بشير الجميل توصل الى اتفاقات كانت ستؤدي الى اتفاق سلام بين اسرائيل ولبنان. «كل اتصالاتنا كانت مباشرة. لذلك وحتى عندما يأتي رئيس آخر، اذا حدثت مشكلات، ستكون الاتصالات مباشرة: حكومة مع حكومة، وجيش مع جيش. لا يجوز في اي حال من الاحوال ان نسمح للاميركيين بأن يظهروا كوسطاء بيننا وبين اللبنانيين».

كم من الوقت سيبقى الجيش الاسرائيلي في بيروت؟ - يسأل الوزراء من دون توقف. زفولون هامر مزعوج من الموضوع ويحث شارون على اعطاء جواب مباشر. «على اي حال لم يقل ان انسحاب قوات الجيش الاسرائيلي من بيروت مرتبط بأمور اخرى، مثل انسحاب قوات الجيش الاسرائيلي من مكان آخر في لبنان. سنخرج من بيروت عندما تصبح المدينة مفتوحة وآمنة».

هامر: «ما معنى مدينة مفتوحة وآمنة؟».

شارون: «عندما تجلس انت، وزير التعليم في دولة اسرائيل، في سيارتك وتسافر من طرف المدينة الى طرفها الآخر - هذا يسمى ان المدينة مفتوحة وآمنة. كما يستطيع اي واحد منا ان يجلس في سيارته وينتقل في بيروت الشرقية الى حيث يشاء».

وزير الدفاع يطلب تحقيق هدفين: إتمام العمل من دون عرقلة في بيروت الى ان ينتهي «تنظيف المدينة من المخربين، والتأثير في تحديد الحكم القادم للبنان.

في نهاية الجلسة تصدر الحكومة بياناً: «في اثر مقتل الرئيس المنتخب بشير الجميل، احتل الجيش الاسرائيلي مواقع في بيروت الغربية ليمنع خطر العنف، وسفك الدماء والفوضى، في حين ان نحو الفي مخرب، مجهزين بأسلحة حديثة وثقيلة، بقوا في بيروت الغربية خارقين اتفاق الجلاء بصورة فظة».

٢٢,٠٠ : قيادة الشمال تتلقى خبراً من الأوغداء في بيروت، مصدره ضابط الارتباط من قبل الكتائب في مقر قيادة الأوغداء. الخبر يتحدث عن ٣٠٠ قتيل مخرب ومدني، في مخيمي صبرا وشاتيلا. عدّل هذا الخبر بعد ذلك الى ١٢٠ قتيلاً فقط.

الجمعة، ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢
عشية رأس السنة [العبرية]

٥,٣٠ : مدير مكتب رئيس فرع المخابرات يتلقى تقريراً عبر الهاتف: «في اخبار اولية اعلنت على لسان قائد قوة الكتائب المحلي في مخيم شاتيلا للاجئين، ان رجاله ابادوا حتى الآن نحو ٣٠٠ شخص. الرقم يشمل مخربين ومواطنين».

٦,١٥ : رئيس فرع المخابرات، اللواء يهوشواع ساغي، يتلقى اخباراً جديدة، ومن جملتها يقرأون له الخبر عن الثلاثمائة الذين ابيدوا في شاتيلا. انه يطلب تمحيص الامور.

٩,٠٠ : فادي افرام، قائد «القوات اللبنانية»، ينقل رسالة الى اسرائيل في اثر محادثة اجراها مع امين الجميل. امين يوافق على وجوب التوصل الى اتفاق سلام مع اسرائيل، طبقاً لما وافق عليه بشير.

١١,١٥ : الوزير مردخاي تسيبوري يتصل هاتفياً بالوزير يتسحاق شمير ويخبره، على حد قوله، بأنه تلقى اخباراً بأن الكتائب «ينفذون مذبحة» في المخيمات. ويطلب ان يبحث وزير الخارجية الامر مع الشخصيات التي ستجتمع به بعد وقت قصير، وهي: وزير الدفاع وممثلو الولايات المتحدة. تسيبوري يعتمد في الحديث على خبر تلقاه من الصحافي زئيف شيف. سيكون لشمير فيما بعد نص مختلف للمحادثة.

١٢,٠٠ : في مكتب وزير الخارجية تجري محادثة بنبرة مرتفعة مع السفير الاميركي موريس درايبر بمشاركة وزير الدفاع. الاميركيون يطلبون اخراج قوات الجيش الاسرائيلي من بيروت. شارون يعلن رفض اسرائيل القيام بذلك.

١٥,٠٠ : وزير الدفاع يعطي مقابلة في فندق «هيلتون» بالقدس لـ«صوت اسرائيل»؛ مقابلة استمرت اكثر من ساعتين. في اثناء التسجيل يُدخل مساعد الوزير أ. دوداي قصاصة ورق وفيها تقرير عن محاولة ضرب عامل الصناعة الجوية في باريس.

١٥,٣٠ : رئيس الاركان يصل الى المطار في خلدة قرب بيروت. يجتمع هناك مع عميد قيادة الشمال، الذي يسافر معه للاجتماع في مقر قيادة الكتائب. دروري يروي لرئيس الاركان ما يعرفه عن عمليات الكتائب. رئيس الاركان يسمع ولا يجيب.

١٦,٣٠ : اجتماع في مقر قيادة الكتائب. رئيس الاركان يعرب عن انطباعه الايجابي من اعلام قوات الكتائب وتصرفهم على الارض. وهو يوافق على استمرارهم في «تنظيف» المخيمات الخالية الواقعة جنوبي الفاكهاني، حتى الساعة الخامسة من يوم غد، اذ عليهم ايقاف

عملياتهم بضغط اميركي. رؤساء الكتائب يطلبون جرافات لهدم ابنية غير قانونية في مخيمات الفلسطينيين. رئيس الاركان يوافق على تزويدهم بجرافة.

١٨,٠٠: ممثلو وزارة الخارجية في بيروت يتلقون بيانات من ممثلي الولايات المتحدة عن وجود رجال الكتائب في مخيمات الفلسطينيين وعن النتائج غير المرغوب فيها التي قد تنجم عن ذلك.

٢١,٠٠: رئيس الاركان يخبر وزير الدفاع هاتفيا بأن الكتائب «بالغوا» في عملياتهم في المخيمات والحقوا ضررا بالسكان المدنيين بما يفوق المتوقع. رفول يقول انه اعطى تعليمات بوقف عمليات الكتائب وإخراج قواتهم حتى الساعة الخامسة غدا.

السبت، ١٨ ايلول (سبتمبر ١٩٨٢
أول يوم من رأس السنة [العبرية]

٨,١٥: رئيس الحكومة يذهب من منزله الى الكنيس الواقع بالقرب من «هيكل سليمان» في القدس لأداء صلاة صبيحة رأس السنة. لم يستلم مناحم بيغن اي خبر عما يحدث في مخيمات اللاجئين في بيروت.

١٧,٠٠: رئيس الحكومة يسمع عن الاحداث في اخبار اذاعة «بي. بي. سي». يتصل بشارون ورفول ويسمع منهما ان الاعمال اوقفت والكتائب أُخرجوا من المخيمات.

الاحد، ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢،
اليوم الثاني من رأس السنة [العبرية]

٨,١٥: يغادر رئيس الحكومة منزله الى الكنيس المجاور لـ«هيكل سليمان» لأداء صلاة الصبح في رأس السنة. في نهاية الصلاة يواكبه عشرات المؤيدين. بالقرب من مسكنه يصطدم بيغن بعشرات المتظاهرين، الذين يصرخون في وجهه: «قاتل». المتظاهرون يطالبون باستقالة الحكومة وتشكيل لجنة تحقيق رسمية في احداث مخيمي صبرا وشاتيلا.

١١,٠٠: امين الجميل يعد، في حديث مع اسرائيليين في مسكنه ببيروت، بإقامة علاقات جيدة وصلات عمل وثيقة مع اسرائيل. انه غير ملم بتفاصيل التعاون، لكنه يأخذ على عاتقه كل التعهدات التي تعهد بها المرحوم اخيه. يقول: «في مجال العلاقات الرسمية يتوجب اتخاذ القرارات التي ستكون طبقاً لرأي الاكثرية في حكومتي». امين يحتج لأن «صوت اسرائيل» اذاع ان الكتائب نفذوا المجزرة في مخيمات اللاجئين. «ولو حدث ذلك، لماذا ينشرونه؟ ولماذا لم يسيطر الجيش الاسرائيلي على عمليات القوات؟ انه لمن المعروف ماذا تفعل ميليشيات في اوضاع كهذه». امين يعرب عن خشيته الاجتماع مستقبلا، بعد انتخابه للرئاسة، مع القيادة الحاكمة في اسرائيل. انه يخاف من تسريب الاجتماعات، كما حدث الأمر بعد اجتماع اخيه، بشير، مع رئيس الحكومة.

١٢,٠٠: رئيس الاركان وعميد قيادة الشمال يجتمعان في بيروت مع نائب قائد «القوات اللبنانية» ومع جوزيف ابو خليل، من رؤساء

الكتائب. رئيس الاركان يحاول اقناع زعماء المسيحيين بنشر بيان يشرح ما حدث في صبرا وشاتيلا: «كلهم يوجهون اصبع الاتهام الى اسرائيل» - يقول رفول - «وقدتكون النتيجة اجبار الجيش الاسرائيلي على الخروج من بيروت. لذلك على احدكم ان يشرح الموضوع، وبسرعة. يجب ان تكون الصيغة انكم توليتم جزءاً من المهمة، وما حدث كان خارج سيطرتكم». قائد قيادة الشمال يحاول ان يساعد في مهمة التوضيح المتوقعة، بقوله ان على الكتائب التذكير بالمذبحة التي نظمها لهم الفلسطينيون في الدامور. «ستذكرون انه في الاماكن التي دخلتموها كانت هناك معارك بين المعسكرات المختلفة، وليس مع الكتائب فقط».

رئيس الاركان يطلب معرفة ما اذا كان زعماء الكتائب ينوون عقد مؤتمر صحافي. المشتركون من الجانب الاسرائيلي يشرحون انه لا يمكن أن تصارع اسرائيل وحدها الرأي العام الدولي.

ابو حليل: «ما تريدونه انتم، في الواقع، هو ان نأخذ كل القضية على عاتقنا. في الوضع السياسي الحالي الامر مستحيل. لا تتهمونا، ستوجهون وسائل اعلامكم».

رئيس الاركان: «وسائل اعلامنا حرة، وتستطيع ان تقول ما تريد. كلهم يعرفون ان الكتائب نفذوا ذلك. ستوضحون ان هذه ليست سياستكم، وما حدث هو ثورة غضب من جنود بعد مقتل بشير».

ابو خليل: «لا نستطيع ان نعترف بذلك».

رئيس الاركان: «اذن ماذا ستفعلون؟»...

ابو خليل: «نواصل النفي».

زعماء الكتائب اصروا على رفضهم. في محادثات اخرى سُمعت منهم تهديدات ايضاً: «إن حقيقة كونكم سربتم اسم ايلي حبيقة كمن اعطى القوات التي عملت في المخيمات الاوامر، بدأت تلحق ضرراً خطرا بصورتكم في بيروت».

رئيس اركان الكتائب، فادي افرام، ادعى ان رفول في حديث معه اشاد بالكتائب على «العمل النظيف الذي نفذوه». لقد حاول الكتائب أيضاً أن ينقلوا بصورة فطنة الاتهام على رجال حداد، الامر الذي لم يفلحوا فيه.

٢١,٠٠: في مسكن رئيس الحكومة يجتمع الوزراء. الموضوع المطروح: المذبحة في مخيمي اللاجئين. وزير الدفاع يشرح ان قوات الجيش الاسرائيلي لم تدخل هناك لانها لم تُرِد تعريض حياة الجنود للخطر. والزعم القائل انه لم يخطر ببال اي شخص ان رجال الكتائب قد يقومون بمثل هذه الامور، مرّ في كلام رئيس الحكومة ووزير الدفاع ورئيس هيئة الاركان بصورة عابرة. رئيس الاركان يذكّر الوزراء بأنهم هم طالبوا طوال اشهر الحرب بإشراك الكتائب في القتال. لقد غضب رئيس الحكومة في الاساس من الاتهامات التي وجهت اليه والى الحكومة، من الداخل والخارج، كمسؤولين عن المذبحة. مناحم بيغن يصوغ بيان الحكومة، الذي يعبر عن سخط وألم عميقين تجاه مهاجمة السكان المدنيين بواسطة وحدات لبنانية دخلت مخيمي اللاجئين. ويشدد البيان على ان الاتهامات المتعلقة بمسؤولية الجيش الاسرائيلي عن المأساة الانسانية هي بمثابة «افتراء ضد دولة اليهود وحكومتها»، ولا معنى لها و«الحكومة ترفضها بازدراء».

بيد ان السخط الشعبي لم يهدأ. بالعكس من ذلك، استمر ونما فالاصوات المطالبة بتشكيل لجنة تحقيق رسمية ازدادت حدة عندما

بدأت تسمع مثلها من داخل الحكومة ايضا. لقد لمّح وزراء الى انه ما لم يحقق في القضية، فإنهم قد يستخلصون الاستنتاجات. مناحم بيغن هو سياسي ايضاً، وقد فهم هذا التلميح جيداً.

لقد بلغت التظاهرات الذروة في الحشد الذي اجتمع في ساحة ملوك اسرائيل في تل ابيب. مئات آلاف المتظاهرين طالبوا بتشكيل لجنة تحقيق.

اريئيل شارون وجد نفسه في تلك الايام في قلب العاصفة. بعد جهد جهيد يعلن انه يؤيد التحقيق في القضية بأية طريقة. لأسباب مختلفة ومتنوعة بذل نظراؤه في الحكومة كل جهد لدهورة مكانته، وقد سهّل المهمة عليهم. وفي عرض عنيف في جلسة كاملة للكنيست، عقدت لمناقشة احداث المذبحة في صبرا وشاتيلا، وجه شارون اصبع اتهام الى زعماء المعراخ، وقال انهم كانوا شركاء في مذبحة سابقة، في تل الزعتر، حيث ذبحت الميليشيات المسيحية الفلسطينيين في اثناء الحرب الأهلية سنة ١٩٧٦. اهتاج الكنيست، وارتج رئيس الحكومة والوزراء من النبرة ومن الزعم الذي ينطوي عليه كلام شارون. نقل الموضوع للبحث فيه الى لجنة الخارجية والامن. في جلسة اللجنة قرأ شارون من وثائق نشرتها عناصر المخابرات في منتصف آب (اغسطس) ١٩٧٦ عما حدث في تل الزعتر. صحفيان نجحا في دخول المخيم كتبا تقريراً بأنهما شاهدا نحو ستين جثة لأطفال ونساء وعجزة بُقرت بطونهم. الصليب الأحمر يعلن انه ذُبح في تل الزعتر ثلاثة آلاف شخص. في ١٢ آب (اغسطس) بعد حصار شهرين، سقط المخيم في ايدي المسيحيين. زعم شارون ان الصليب الاحمر اعلن انه في ايام المذبحة منعت سفن سلاح البحرية الاسرائيلي دخول سفن تحمل معونة طبية الى لبنان. هذه الامور

نشرت في وسائل الاعلام في العالم. وقال شارون في توجهه الى رئيس حزب العمل، عضو الكنيست شمعون بيريس: «ليس المقصود هنا نبش السجلات، بل علاقاتنا بالكتائب طوال سنوات. انتم بنيتم الروابط ونحن استمرينا. انتم ونحن على السواء تصرفنا بناء على الموثوقية الخلقية نفسها، وهذا ما اردت اثباته بالوثائق من عهدك. لقد ساعدتم المسيحيين بعد المذبحة ايضاً. هذه هي الصلة الوثيقة بين تل الزعتر وصبرا وشاتيلا».

هذه الكلمات لم تقنع اعضاء اللجنة. حتى عضو الكنيست غيئولا كوهن، من مؤيدي شارون، تحفظت تجاه عرض القضية وطريقة كشفها.

في هذه الاثناء، زال وانهار امام عيني شارون برج الورق الذي بناه مع عائلة الجميل والميليشيات التابعة لها. في تلك الايام سافر الى بيروت وأجرى استقصاء خاصاً للمعلومات في محاولة لاستكشاف لماذا فعل الكتائب ما فعلوه. لم يلطموه على وجهه، حملقوا به، لم يرف لهم جفن، وبابتسامة لم تلامس شفاههم وجهوا اليه كلمتين: «انتم مجانين، انتم مجانين».

قررت الحكومة في جلستها يوم ٢٩ ايلول (سبتمبر)، تشكيل لجنة تحقيق طبقاً لقانون لجان التحقيق ١٩٤٩. جاء في القرار:

«القضية التي ستكون موضوع التحقيق هي: كشف كل الحقائق والعناصر المتعلقة بأعمال الرعب التي نفذت على يد وحدة من القوات اللبنانية ضد السكان المدنيين في مخيمي شاتيلا وصبرا».

رئيس المحكمة العليا، يتسحاق كاهان، عين نفسه رئيساً للجنة.

وكان اعضاؤها الآخرون: اهرون براك قاضي المحكمة العليا، واللواء احتياط يونا افرات.

ادرك اريئيل شارون انه من الواضح ان العد العكسي له قد بدأ. بناء على هذا الادراك بقي يعمل الى ان ابعد عن منصب وزير الدفاع.

انتخب امين الجميل لرئاسة لبنان في ٢١ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢. مناحم بيغن لم يرسل تهنئة. لقد فهم من في القدس ان اسلوب العلاقات مع شقيق بشير الاكبر سيكون مختلفاً. لقد وجد من احس بالخطأ لأنه في اثناء الحرب امتنع ممثلو اسرائيل عن اقامة اية علاقة مع امين. كان هناك خوف من ان يعتبر بشير ذلك اساءة اليه، حيث اعده والده ليكون رجل الارتباط مع اسرائيل وامين ممثلا للعائلة ازاء الدول العربية، خصوصاً سورية وجبهة اليسار في لبنان. كان امين معروفاً في اسرائيل. في سن الثلاثين، سنة ١٩٧٢، انتخب لأول مرة للبرلمان اللبناني ممثلا لمنطقة المتن الشمالي. بموازاة اهتمامه السياسي عمل رئيس تحرير لصحيفة باللغة الفرنسية. يعتبر امين الجميل رجلاً ثرياً ودرج على التنقل من مكان الى آخر بطوافة خاصة. على مدار سنوات احتفظ بميليشيا خاصة تضم ٧٠٠ مقاتل من اصل مسيحي، انتسبوا ظاهرياً الى الكتائب، لكنهم عملياً خضعوا لسلطته فقط. نشرت عن امين كما عن قادة ميليشيات وتيارات آخرين في لبنان ايضاً، روايات بهذا القدر او ذاك عن انحراف في سلوكه وصفقاته.

اريئيل شارون ارسل هدية للرئاسة الجديدة للبنان: رشاش «عوزي» ذا اخمص حديدي، في صندوق خشبي فخم. قال امين لمستشاره: «آمل بأن يرسل شارون الهدايا للآخرين في لبنان من دون الذخائر»...

مرة واحدة فقط اجتمع امين بشخصيات من اسرائيل. قبل يومين من تسلمه منصبه اجتمع في بيروت في محادثة طويلة مع ممثلين من البلد. لقد كشف عن خبرة بالموضوعات التي تم الاتفاق عليها مع اخيه المرحوم، الذي درج على تطويرها معه في اثناء اللقاءات العائلية في مسكن ابيهما في بلدة بكفيا.

لقد عرف امين ايضاً عن الاستنتاجات في محادثات شارون وبشير الاخيرة، في ١٢ ايلول (سبتمبر). لقد جرى الحديث هناك عن استعدادات لتطبيع العلاقات كمرحلة اولى نحو تطور تدريجي يؤدي الى توقيع اتفاق سلام، وانشاء صلة مباشرة بين الحكومتين والجيشين من دون تنسيق ومن دون تدخل وسطاء اميركيين. عرف امين ايضاً انه بدأت محادثات بشأن مستقبل الجنوب اللبناني ووجود الجيش الاسرائيلي هناك. لقد وعد شارون بشيرا بإبقاء الجيش الاسرائيلي في لبنان والمساعدة في الدفاع عن المسيحيين الموجودين في مناطق السيطرة السورية. لقد اصرت الشخصيتان الاسرائيليتان على المحافظة مستقبلا على قناة اتصال مباشرة لأمين بعد تسلمه منصبه كرئيس للبنان. وعد امين بأن يحدث ذلك بالتأكيد. لقد تقرر ايضاً تجديد القرار بتشكيل لجنة رسمية مشتركة للدولتين للبحث في علاقاتهما في المستقبل. عين رئيس الحكومة مدير عام وزارة الخارجية، دافيد كمحي رئيساً للجنة، وكذلك تم تعيين ممثلي وزارة الدفاع. اعلن امين انه سينتدب الى المباحثات اثنين من رؤساء الكتائب. في القدس استُقبل هذا القرار بنوع من الريبة. آن الاوان، هكذا قالوا، لتصبح العلاقات مع جهات حكومية. لكن اللجنة التي عينتها لم تجتمع قط.

كان امين الجميل فعلا مختلفاً عن اخيه بشير. ففي اول خطاب القه، بعد انتخابه، لم يذكر اسرائيل ولو تلميحاً، وفي مقابل ذلك

اهتم بأن تنشر على نطاق واسع برقيات التأييد التي ارسلها رئيس سورية حافظ الاسد وشخصيات من الجناح الاسلامي في لبنان. لم يفلح رؤساء الكتائب في الاجتماع اليه في الاسابيع الاولى لولايته. كان امين مضطرا الى السير على حبل رفيع، كان ممدوداً بين القدس ودمشق، وفي الوسط وجد الكتائب الذين شكوا فيه وحيث لم يكن جائزاً ان يخلق فيهم الاحساس بأنه ينوي خيانتهم، وكذلك مراكز قوى اسلامية توخّى امين ان يؤسس سلطته عليها. وفوق كل هذه العناصر كانت هناك الولايات المتحدة التي اصبح ممثلوها مستشاريه المقربين وكاتمي سره، ومن دونهم لا يسير حتى خطوة واحدة.

كان المحك الاول لنظرة امين الى اسرائيل الطلب الاميركي، الذي استند الى موافقة من جانب الاسرة الدولية، والذي بحسبه ستخرج اسرائيل بلا تأخير قواتها من بيروت، لتتيح للقوة المتعددة الجنسيات العودة الى لبنان. وبضغط خارجي وبمساعدة الرأي العام في البلد، خرج جنود الجيش الاسرائيلي على عجل من عاصمة لبنان، ولم تسعف شارون الادعاءات انه اتفق مع بشير على ابقاء مراقبين اسرائيليين في برج مراقبة مطار بيروت الدولي، ووحدة صغيرة تشغل في المطار مدرجا خاصا لرحلات جوية ادارية. تمركزت وحدات القوة المتعددة الجنسيات في مناطق خارج بيروت، كي تمكن الجيش اللبناني من اعادة الحياة الى مجراها في المدينة، وبصورة خاصة لتجريد الميليشيات الكثيرة من اسلحتها.

لقد طلبت اسرائيل، اذن، البحث في كيفية تقدم العلاقات مع لبنان، على ارضية الاتفاق الذي تم تحقيقه بين الرئيس الجديد الجميل وبين اسرائيل.

الوقائع على الأرض كانت مختلفة: «جيش لبنان بقي في ثكناته،

ووحدات القوة المتعددة الجنسيات تحولت الى هدف لاطلاق النار والهجمات عليها من جانب ميليشيات متطرفة.

في نهاية ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢، حضر مبعوث من اسرائيل للاجتماع بأصدقائه القدامى، زعماء الكتائب، وبوالد الرئيس، بيار الجميل. لقد وافق من في القدس على فكرة ان اتفاق سلام مع لبنان لن يوقع قبل نهاية السنة، لكن رئيس الحكومة ووزير الدفاع لا يزالان يؤمنان - الأول لأسباب خلقية، والثاني لأسباب مختلفة، مثل وجود الجيش الاسرائيلي في لبنان والقدرة على المناورة على الأرض مع مراكز قوى اخرى - بأنه سيصبح ممكناً التوصل الى تطبيع في العلاقات بين الدولتين.

الشخصية الاسرائيلية اقترحت في محادثات ببيروت علاقات «بصيغة طهران»، على مثال الروابط التي كانت بين اسرائيل وايران في عهد الشاه. هذه الروابط شملت سفارة كبيرة في العاصمة، علاقات وثيقة في مجال التجارة والأمن، فقط لم ترفرف الاعلام في العاصمتين. ادعى المبعوث الاسرائيلي امام زعماء الكتائب انه «علينا ان نكون واقعيين ونتوصل اولا الى تطبيع في الواقع. الولايات المتحدة تعمل لاخراج كل القوات الاجنبية من ارض لبنان حتى نهاية السنة» - هذا ما قاله متابعا: «وبعد الجلاء ستبقى الممثلية الاسرائيلية في بيروت، التي ستدار عبرها الاتصالات بين الدولتين».

جوزيف ابو خليل، الذي التقى امين قبل يومين من الاجتماع بالمبعوث الاسرائيلي، شهد ان رئيس لبنان قال له انه «بعد ما حدث، فإن معاهدة سلام مع اسرائيل هي امر واجب فعلا. صيغة طهران هي صيغة يجب ان ندرسها، لكن قبل ذلك يجب ان نتغلب على ازمة الثقة بيننا، بعد ما حدث في صبرا وشاتيلا».

بيار الجميل لم يعد بتطبيع بين اسرائيل ولبنان. فقد قال: «انتم حلفاؤنا الطبيعيون؛ لكن عليكم الدخول الى جلد امين. نحن نعيش في مجتمع عربي معاد. إننا بحاجة الى وقت كي نوصل الجهات المختلفة الى تفهم. لو تمكنت اسرائيل من تحطيم السوريين لكان الواضع مختلفاً. لكن السوريين يحتفظون الآن بنصف الأراضي اللبنانية، واذا لم يضربوا سيخرجون كمنتصرين حرروا لبنان من جور اسرائيل. يوجد في لبنان جيوب لفلسطينيين، وهذا يتطلب وقتاً ايضاً. نحن شعب ضعيف وعاجز. التعاون بيننا يجب ان يتم بصورة حضارية. الوسيلة اقل اهمية، والاساس هو الهدف».

بدأت اسرائيل تفهم ان الاستنتاج الذي تم التوصل اليه مع امين قابل لتفسيرات مختلفة من الاطراف. فقد اعتقدت هي ان المقصود استقصاء اساسي لمستقبل العلاقات. بينما قصد امين ان يربح وقتاً، وكان مستعداً على الاكثر لتشكيل لجنة عسكرية، بالمضمون الذي عملت فيه سابقاً، قبل حرب لبنان، في اطار لجان الهدنة، حيث سيكون التجديد انضمام اشخاص من وزارتي خارجية الدولتين الى اللجنة.

عندما قرأ شارون التقارير عن محادثات الموفد الاسرائيلي الى بيروت، شعر بأن عليه ان يتعمق في الموضوع. ينبغي عدم التخلي عن «الامكانات غير العادية» - على حد قوله - التي انفتحت لاسرائيل في اعقاب دخولها لبنان. فهم شارون انه يملك خيارات، بأسلوب العصا والجزرة، تدخل في الصراعات الداخلية بين الكتائب والدروز، واشارات تتعلق بإمكان ان تقتطع اسرائيل الجنوب اللبناني من الحكم المركزي.

في مساء الرابع من تشرين الاول (اكتوبر)، التقى شارون رؤساء الكتائب. وطبقاً لأفضل تقاليد الشرق، تحدث الاشخاص من لبنان طويلا عن مستقبل العلاقات مع اسرائيل، حيث يبهمون كلامهم جيدا. في رأيهم، يجب معالجة ازمة الثقة التي نشأت بين الطرفين في اعقاب انتخاب امين للرئاسة وعلى ارضية قلة صبر الاسرائيليين ورغبتهم في التوصل الى انجازات حتى قبل انسحاب الجيش الاسرائيلي من لبنان. المتحدثون واصلوا اسماع شارون كلمات الجميل، بأنه يستحيل ألا يكون هناك اتفاق سلام مع اسرائيل. لكنه - اضافوا - يحتاج الى وقت. وبشأن المذبحة في صبرا وشاتيلا، اقترح الضيوف اللبنانيون تشكيل لجنة مشتركة للحيلولة دون مزيد من الضرر.

كان شارون برماً. في وزارته عمل محامون وضباط كثيرون على إعداد ظهوره امام لجنة التحقيق في أحداث المذبحة. ان الصورة التي تكشفت له فيما يخص ابعاد معرفة الجيش بما حدث في المخيمات، ادهشته. ان الشك وعدم الثقة بينه وبين رئيس الاركان ورئيس فرع الاستخبارات العسكرية لم يمكناه من اقامة علاقات عمل سليمة؛ وهو الآن بحاجة الى الاستمرار والتعامل مع اشخاص اصحاب اسلوب لم يكن مألوفاً لديه. لم يكن هناك اي امكان «لاقفال قضية معهم». طلب شارون ان يعرف كيف يجسدون الاستنتاجات التي تم التوصل اليها مع الرئيس امين عشية انتخابه - تشكيل اللجنة الرسمية، سياسية وعسكرية، التي ستبحث في العلاقات بين الدولتين، وفي المقابل كيف يخلقون صلة مباشرة وحميمة مع الرئيس الجديد بواسطة حزب الكتائب. لقد كشف شارون انه راغب جداً في الاجتماع الى امين الجميل، لكنه لم يتلق رداً على توسله. لقد اراد ان يبعد الاميركيين

عن موقع الوسيط والإمرة التي حصلوا عليها في قصر الرئاسة في بعبدا.

لم يكن لدى الضيوف من لبنان اجابات. في نهاية الاجتماع املى وزير الدفاع رسالة الى امين الجميل: «عليكم ان تفهموا انه على الرغم من تعرضنا لضغط دولي وضغط سياسي داخلي ثقيل، فإن كل شيء يتغير عندما نصل الى مسألة ضمان امن اسرائيل. ففي اسرائيل يوجد اتفاق قومي في هذا الموضوع. لقد حدث جدال حاد ومرير حول ما اذا كنا بحاجة الى الوصول الى بيروت، وعما اذا كان هدفنا التوصل الى اخراج منظمات المخربين من بيروت، والى اي مدى كان علينا ان نصل بهذه الحرب. لكن عندما يتعلق ذلك بمشكلة الامن، ٤٠ - ٤٥ كيلومترا في الجنوب اللبناني، فهذا يجعل اسرائيل مختلفة، وسيكون من المستحيل حل امره من دون اخذ موقفنا في الحسبان. عندما يتعلق ذلك بأمننا، فلن يكون اي ضغط اميركي فعالاً.

«على الرغم من اننا نعرف» - استطرد شارون - «ان للرئيس امين مشكلات كثيرة، مثل المسلمين والسنة، فعليه ان يدرك ان ثمة مشكلة بعد، مع صديق بالتأكيد، مع اسرائيل؛ لكن هذه مشكلة امننا: التطبيع، عملية السلام، الأمن، ومسألة الجنوب كلها. اننا نؤمن بأن امننا وثيق الصلة بأمن لبنان، ولذلك نتمسك بتنفيذ القرارات التي اتفق عليها، وبوجوب التقدم نحو حل المشكلات بأفضل الطرق الودية».

في نهاية الاجتماع اتضح من دون ادنى ريب، انه لم تنشأ صلة واقعية مع الرئيس. لكن شارون اخذ وعداً بترتيب اجتماع آخر معه بأسرع ما يمكن.

وقد بدا كل شيء في بيروت على ما يرام. امين تهيأ لسفرته

الأولى الى الولايات المتحدة كرئيس للدولة. السفير موريس درايبر، الذي ساعد فيليب حبيب في المفاوضات بشأن خروج القوات الاجنبية من لبنان، اصبح اليد اليمنى لأمين، وحتى صاغ له خطاباته. لقد اظهر الاميركيون تفاؤلا بفرص اخراج السوريين وجذور قوات منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان. لقد ادعى حبيب امام الوزراء الذين اجتمع اليهم في القدس، انه سمع من رؤساء الحكم في لبنان ان السوريين وعدوهم بخروج جيشهم مع كل القوات الاجنبية. من اين جاء حبيب بهذا التفاؤل الذي أغدقه على الاسرائيليين؟ ربما كان هذا اسلوبه في المفاوضات: نثر وعود، وتشجيع عملية التسوية التي ستؤدي الى سيطرة الحكم المركزي، برئاسة امين الجميل، على معظم أجزاء لبنان. موريس درايبر زعم ان امين كشف له خمس رسائل ارسلها السوريون مع موفدين خاصين، يعدون فيها بإخلاء ارض لبنان في اطار تسوية شاملة. اذا كانت هناك فرصة ما لخروج السوريين من لبنان، فقد كانت في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢. شارون ما زال يعتبر في دمشق كصاحب قوة وكنحاسي في قراره «لزخزحة» السوريين بالقوة. كلما مر الوقت تضاءلت الفرص لتسوية مع السوريين. ولم يبق في يد الاميركيين اي سوط يؤدي الى خروجهم، إلا اذا اخرجوا الاسرائيليين قبلهم، وسيكون خروج السوريين في اطار تسوية عربية. عن ذلك امتنعوا عن التحدث في تلك الفترة.

الاتصالات بين اسرائيل والمؤسسة في بيروت كانت مع رؤساء الكتائب. الحكم نفسه كان خارج متناول يد الاسرائيليين. المتحدثون باسم الكتائب شجعوا اسرائيل على ممارسة ضغط على امين، بحيث يظهر في نظر المسلمين كمكره على اقامة العلاقات مع اسرائيل. على اية حال، هذا ما قالوه، لن يكون ممكناً التوصل الى اتفاق سلام بين

الدولتين قبل نهاية السنة. لكن لا يجوز ان يخلي الجيش الاسرائيلي لبنان قبل ان يوقع الاتفاق. بالنسبة الى الاجتماع بين شارون وامين، اذا ضمنت اسرائيل بأنه سيكون سرياً ولا ينشر - حينها يمكن عقده.

من جهة اخرى، كانت هناك اشارات مقلقة فعلا. لقد زارت القدس علناً مجموعة مثقفين مسيحيين، سميت مجموعة «كبليك»، واجتمعت الى وزيري الخارجية والدفاع والى صحافيين. عندما عاد افراد المجموعة الى لبنان، تم استدعاؤهم الى مكاتب مصلحة الامن في بيروت، وحُقق معهم في زيارتهم لاسرائيل. الامر يثير توتراً في العلاقات مع القدس. طرح الموضوع في احدى المحادثات مع بيار الجميل، الذي ادعى انه من الافضل ان تتم الزيارات في الخفاء مستقبلاً. ثمة اشارة مقلقة اخرى هي ان اللجنة العسكرية - السياسية لم تتشكل.

لقد تأمن لشارون اجتماع مع امين الجميل، بعد عودة الرئيس من زيارته للولايات المتحدة. مع ذلك يقتبس رئيس لبنان عن رؤساء الكتائب ما قاله احدهم انه «من غير المحتمل العودة الى وضع عشية الحرب، وسيوقع اتفاق السلام». كذلك أُبلغت اسرائيل ان امين الجميل دعا وفداً من مصر، لكي يهنئه بانتخابه رئيساً، وسيشكل الامر نموذجاً للعلاقات التي ستسود بين لبنان واسرائيل. استعرض امين ايضاً العلاقات المفتوحة بين اسرائيل والاردن كنموذج لما يمكن عمله بين اسرائيل وبلده. لقد استهدفت النماذج من العالم العربي توفير «الذريعة» للعلاقات مع اسرائيل.

لقد وصل امين الى الولايات المتحدة في زيارة رسمية كالمنتصر الحقيقي في الحرب. بتسريحة شعره المرتبة وببذلاته الفخمة

وبتصريحات حازمة وصاحبة شوهد في ممرات البيت الابيض ووزارة الخارجية بواشنطن. وفي الوقت الذي انتشرت فيه القوات المتعددة الجنسيات في بيروت، وتمركز جنود الجيش الاسرائيلي في القطاعات المختلفة قبالة السوريين ومنظمات [الفدائيين]، ظهر امين امام مسيحيين من اصل لبناني، من دون ان يتلفظ بكلمة شكر واحدة لاسرائيل.

في تلك الساعات نفسها جلس مهندسو الحرب في لبنان في كراسيهم في قاعة بابيك بمدينة الجامعة العبرية في غفعان رام، قبالة اعضاء لجنة كاهان الثلاثة، الذين حققوا في احداث مخيمي صبرا وشاتيلا.

للحقيقة، استطاعت اللجنة ان تنهي عملها بعد وقت قصير من البدء به. لقد تكشفت امام جامعي المادة الاتصالات بين مقرري السياسة في القدس وزعماء الكتائب، ومدى التدخل العميق والمعرفة الواضحة بما يحدث في معسكر المسيحيين. طوال اشهر الحرب اثنى رئيس الحكومة ووزير الدفاع ورئيس الاركان عدة مرات على ميزة المسيحيين في نظرتهم الى الفلسطينيين، وعلى كرههم الشديد الذي لا يعرف حدوداً. في بداية الحرب حكي عن ان الكتائب قتلوا نحو ٥٠٠ فلسطيني حاولوا عبور الحواجز التي اقاموها. لقد ملأ الكتائب سجناً كان مخصصاً لأربعين شخص تقريبا، وأُرسل الى هناك في اثناء الحرب مئات من الفلسطينيين الذين «اختفوا» بعد ذلك. في احد الاجتماعات مع بشير الجميل روى المندوب الاسرائيلي انهم يتحدثون عن ان نحو ١٢٠٠ فلسطيني، اعتقلوا على يد جهاز ايلي حبيقة، قد «اختفوا».

لقد قال وزير الدفاع نفسه في بداية الحرب لضباط في قيادة الشمال، انه يجب ان نكف عن الطلب من المسيحيين المساهمة في العمليات التنفيذية: «اتركوهم، فهم لن يفعلوا شيئاً».

إن رئيس الاركان، الذي عرف بصداقته المقربة من بشير، شكا في احد الاجتماعات من ان الكتائب يتصرفون في المنطقة بصورة انتقامية -! طرد مواطنين ونهب حوانيت - وان الجيش الاسرائيلي لا يستطيع ان يسمح بذلك، ما دام هو المسؤول عما يجري.

لقد عقدت لجنة التحقيق في المذبحة ستين جلسة، واستمعت الى ٥٨ شاهدا. لم تكتف بالمادة المكتوبة، وبملخص الاحاديث مع زعماء الكتائب، وبوثائق فرع المخابرات، وبملف الجلسات والمناقشات لدى رئيس الحكومة، وبمحاضر جلسات الحكومة. لقد مثل امامها الاشخاص الذين كان مقرراً لهم ان يسمعوا، وان يعرفوا وان يقرروا. كان خط دفاع رئيس الحكومة ووزير الدفاع، انه كان من المستحيل ان يخطر بالبال ان الكتائب سينفذون مذبحة في المخيمات. لقد صدر رئيس الحكومة بشهادته ان موضوع الحديث كان جيشاً بكل معنى الكلمة، والتجربة مع الكتائب في الماضي كانت مرضية. «لم يخطر بالبال، حضرة القاضي، التصور بأن الكتائب، اذا ما دخلوا المخيمات لمقاتلة [الفدائيين]، سيقومون بأعمال شنيعة ومذبحة. لقد رأينا فيهم وحدات عسكرية منضبطة، وكان كل المقصود انهم سيقاتلون [الفدائيين]، ولم يخطر بالبال انهم قد يقومون بذبح السكان المدنيين».

لقد تحدث اريئيل شارون، في شهادته امام اللجنة، عن «الحلف لسياسي - العسكري الذي تشكل بين دولة اسرائيل والمسيحيين في

لبنان، وقد تجسد في حرب سلامة الجليل. في تخطيط الحرب» - قال شارون - «اخذت القوات اللبنانية في الحسبان كقوة عسكرية ستعمل بالارتباط مع الجيش الاسرائيلي وبقيادته، وخصصت لها مهمات قتالية في منطقة بيروت، في ظروف لم يكن للجيش الاسرائيلي اهتمام، أورغبت أو قدرة على توريط نفسه في الحرب. كانت مهمة القوات اللبنانية هذه بمثابة اتفاق قومي وفق رأي عناصر الحكم جميعا في المرحلة الاولى من الحرب» - يضيف شارون - «امتنع الجيش الاسرائيلي لأسباب عملانية من استخدام الكتائب، لكن عندما وصلت الحرب الى منطقة بيروت، جرى استخدام متزايد للقوات اللبنانية، ومن بينها في حي الريحان، وكلية العلوم، وطلعة الجمهور، وفي بحمدون وفي عاليه، وفي سوق الغرب وبيت الدين. لقد استطاع جنود الجيش الاسرائيلي وقادته تشكيل انطباع عن اسلوب قتال القوات اللبنانية، والتثبت من انه حين يستخدم هؤلاء بواسطة الجيش الاسرائيلي، او يقاتلون بالقرب منه، فإنهم يتصرفون كجيش نظامي في كل شيء ويحرصون على علاقة ملائمة بالسكان المدنيين على الرغم من ان هؤلاء يعتبرون من التيار غير المتعاطف معهم».

استمع اعضاء اللجنة الثلاثة بصبر الى الشهود. لقد كانوا ملمين بصورة مدهشة بتفاصيل الاحداث. رئيس فرع المخابرات، اللواء يهوشواع ساغي، الذي لم يعرف ولم يسمع بدخول الكتائب، والذي كان الشخص الذي «تنحى» لأنه عارض على الدوام العلاقات مع الكتائب، كان في وضع اكثر صعوبة في شهادته. لم يصدق اعضاء اللجنة افادته، ومحامو احد الشهود استجوبوا اللواء ساغي طوال ساعات، ودحضوا افادته من اساسها.

رئيس «الموساد» اعترف في شهادته؛ بأنه نشأت على مر السنين

علاقات «شخصية» بين مندوبي «الموساد» في بيروت وبين زعماء الكتائب، الامر الذي كان يمكن ان يؤثر في حكمهم على الاحداث. ان احد الاشخاص الرئيسيين في «الموساد» وكان في بيروت ايام المذبحة، ادعى بقوة امام اعضاء اللجنة انه لم يساوره اي قلق بعد مقتل بشير من ان يقوم المسيحيون بأعمال ذبح للفلسطينيين. هذا الموقف نال تأييداً في شهادة رئيس «الموساد». كان الادعاء الذي اعلن ان المسيحيين نجحوا فوراً بعد القتل في المحافظة على الاستمرارية السلطوية بتعيين امين مرشحا للرئاسة في لبنان. وبمجرد ترشيح امين لمّح المسيحيون للمسلمين، ومن بينهم الفلسطينيين الى أن الخطر ازاءهم في المستقبل سيكون استرضائياً.

اعترف رؤساء الحكم في البلد امام لجنة كاهان بأن الحرب في لبنان اعدت فعلا لأهداف اوسع كثيراً مما «باعوه» للجمهور في حقيقة تحديد اسم العملية، «سلامة الجيل». خطط الحرب والبرمجة والتنسيق السياسي والعسكري، كما عبر احد المتدخلين في العلاقات مع المسيحيين قبل عملية سلامة الجليل منذ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢، كانت عمليات «لا تحدث حتى في العلاقات بين دول».

في القدس رفضوا التنازل لأمين الجميل. كاد الصبر ينفد. النتائج ظهرت على الارض. وزير الدفاع يعطي الاركان العامة وجهات اخرى في جهاز الامن تعليمات لاعداد خطط شاملة، مفصلة وعملية، لحل مشكلات الامن والطوائف في الجنوب اللبناني. جاء شارون الى الجنوب للاجتماع بالرائد سعد حداد. اعطيت زيارته تغطية اعلامية واسعة. قرر وزير الدفاع «ان يتوج» حداد على قطاع يمتد من حدود اسرائيل الشمالية حتى نهر الليطاني، في اطار الـ ٤٥ ـ ٥٠ كيلومترا المشهورة، والتي دعيت ايضا باسم «منطقة الامن». اعطيت

تعليمات لتشكيل ميليشيات من اوساط الشيعة في المنطقة ومن اوساط فئات اخرى.

إن تهديد شارون بأن امين الجميل قد يجد نفسه كرئيس للبنان يحكم فقط في قصره وفي عدة احياء في بيروت الشرقية وفي جونية، اذا ما رفض مناشدات اسرائيل الدخول في عملية محادثات من اجل التطبيع ـ هذا التهديد بدأ يتجسد.

في الأركان العامة اعدت لجنة برئاسة نائب رئيس الاركان موشيه ليفي، مشروعاً لترتيبات امنية مع لبنان، بنيت على اساس وجود دائم، حر وفعال للجيش الاسرائيلي في الجنوب. كان من المفروغ منه ان يكون الرائد حداد قائد المنطقة. في النقاش الذي جرى عند وزير الدفاع في بداية تشرين الأول (اكتوبر) انفجر مستشاره لشؤون الامن القومي، اللواء ابراهام تمير، ووصف اقتراح الاركان العامة بأنه «لعبة مع انفسنا». واضاف تمير: «ان اتفاقا على اساس استمرار السيطرة والوجود في الجنوب اللبناني لن يتم إلا اذا قرنا تقسيم لبنان». عرض المستشار امام شارون مشروع خطط، طرحت امام الحكومة في ١٣ تشرين الاول (اكتوبر)، وصادقت عليها بالاجماع. لقد تضمن المشروع افكارا لترتيبات امنية عامة مع لبنان: تحديد منطقة امن والقيود التي ستكون فيها؛ جلاء كل القوات الاجنبية عن لبنان، واسلوب ادارة المفاوضات. لجنة اخرى، برئاسة المدير العام لوزارة الخارجية دافيد كمحي، قدمت اقتراحات لتطبيع العلاقات مع لبنان، وهذا الموضوع ايضاً حظي بمصادقة الحكومة.

وزير الخارجية، يتسحاق شمير، الذي كان في تلك الايام في الولايات المتحدة بمناسبة انعقاد هيئة الامم المتحدة، استدعي امام

الادارة في واشنطن كي يشرح لرؤسائها قرارات الحكومة. اللواء ابراهام تمير غادر بعد جلسة الحكومة في ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) الى الولايات المتحدة لينضم الى طاقم شمير وليساعد في شرح مقترحات الترتيبات الامنية. من اسئلة الاستيضاح لمقرري السياسة في واشنطن استطاع الاسرائيليون معرفة نقاط الخلاف المتعلقة بشكل الترتيبات مع لبنان. لماذا تمتد منطقة الامن في اقتراحكم الى ٤٥ ـ ٥٠ كلم؟ـ سأل، الاميركيون ولم تكن القضية واضحة لمسؤولي السفارة الاسرائيلية في واشنطن، وقد ابدوا ملاحظة قبل النقاش مع الاميركيين: «لقد شرحنا نحن هنا طوال الوقت ان منطقة الامن تمتد ٤٠ كيلومترا». . اسئلة اخرى طرحها الاميركيون ما هي محطات الانذار التي تقترحونها في منطقة الامن؟ لماذا انتم بحاجة الى تشغيل محطات انذار في جبل الباروك؟ ماذا سيحدث للرائد حداد؟ لماذا تعارضون ادخال قوات الامم المتحدة في عملية التسوية؟ موضوع آخر ازعج ممثلي الولايات المتحدة: لماذا ترفض اسرائيل اشراكهم في اللجنة العسكرية المشتركة بين اسرائيل ولبنان، التي ستقوم بضمان تنفيذ الترتيبات الامنية في المنطقة.

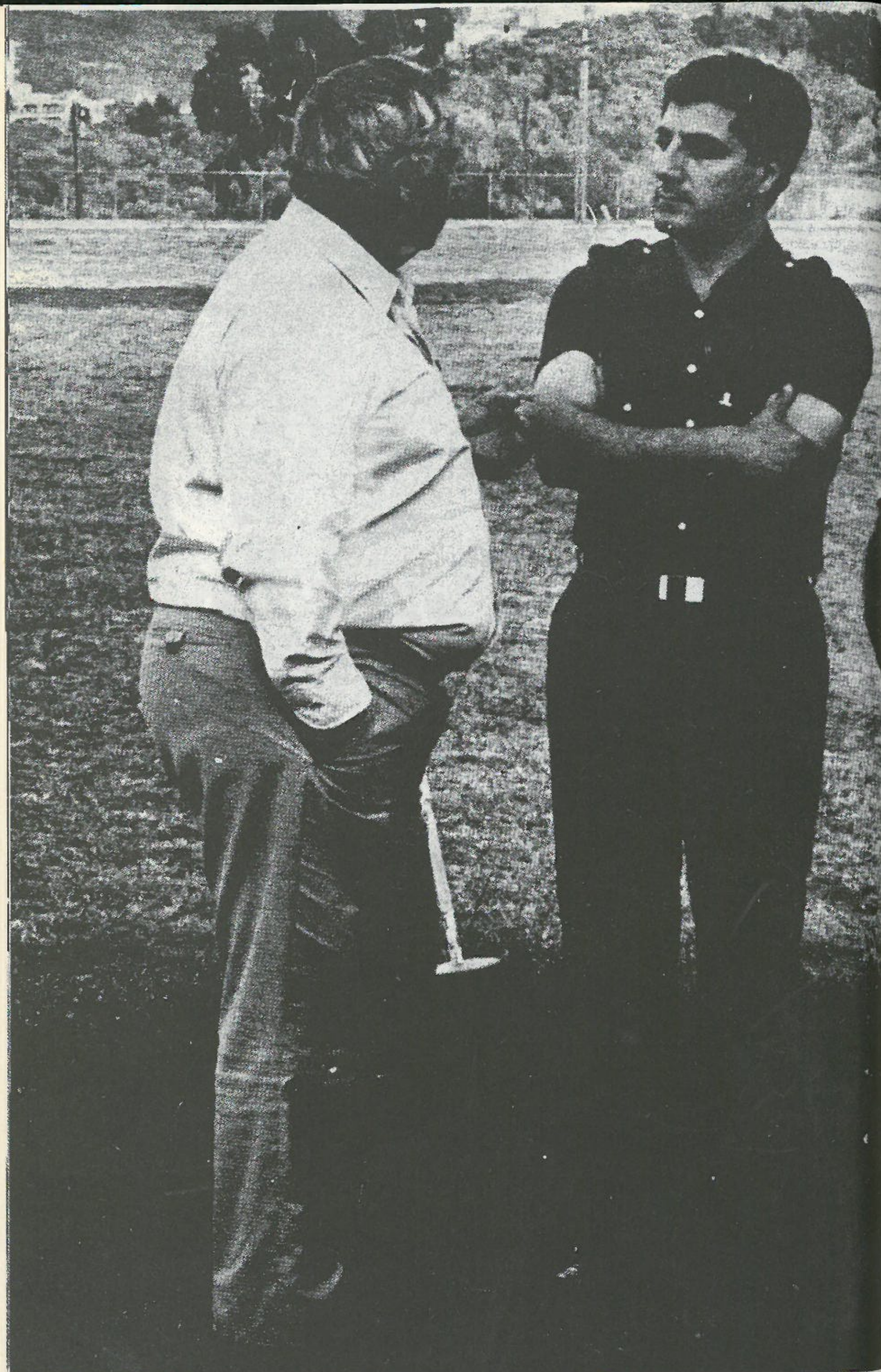
البحث كله جرى بروح طيبة، وبذل الجانب الاسرائيلي جهدا للتأكيد، في نهاية المحادثات، انه نشأ اساس مشترك بين اسرائيل والولايات المتحدة قبل المفاوضات مع لبنان، وان مقترحات اسرائيل مقبولة لدى الاميركيين ـ تفاهم سيثبت خلال وقت قصير انه كان لمدى قصير فقط. اذ ان تناقضات اساسية ميزت بين وجهتي النظر الاسرائيلية والاميركية. الولايات المتحدة واسرائيل تشتركان في الاهداف العامة بالنسبة الى مستقبل لبنان: اعادة كامل السيادة لحكومة واسعة ستتشكل في الدولة، جلاء كل القوات الاجنبية عن هذه الدولة،

ضمان الامن لاسرائيل في حدها الشمالي. لكن اهداف الولايات المتحدة الواقعية كانت ولا تزال ان لبنان سيبقى جزءاً من العالم العربي، وانه ستتشكل فيه حكومة تبنى على اكثرية التيارات والطوائف. حكومة كهذه لن تتشكل ابداً، اذا ما كانت هناك اتفاقات علنية وما يشبه سلام الامر الواقع مع اسرائيل. جلاء القوات سيتاح فقط اذا ما اراد السوريون الخروج. لكن الولايات المتحدة واسرائيل لا تستطيعان ان تفرضا على السوريين مغادرة لبنان، لأن اسرائيل لم تسيطر على كل اراضي هذه الدولة.

أيّدت الولايات المتحدة لتحقيق اغراضها موقف اللبنانيين بأن تكون المحادثات في اطار لجنة برئاسة موظفين لا وزراء، وان يكون مكان المباحثات خارج المنطقة، وفي كل الاحوال ليس في عاصمتي الدولتين. اما قضية تطبيع العلاقات فكان ينبغي، في رأي الاميركيين، ان تجد مكانها في تفاهم ضمني وليس في اطار الاتفاق المكتوب.

على ممر قصير كهذا من الاتفاق تصادم الطرفان سريعا. في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) لم تنجح الجهود للوصول الى بدء المفاوضات العلنية بين اسرائيل ولبنان. الولايات المتحدة وجهت اصبع اتهام الى اسرائيل. وفي مقابلة مع «واشنطن بوست» قال الرئيس ريغان انه «اذا لم تخرج اسرائيل الآن من لبنان، فإنها تتحول الى قوة احتلال». آن اوان العمل. ووزير الخارجية، جورج شولتز، شُدّ الى نشاط في الكونغرس ضد زيادة المعونة الاقتصادية والعسكرية لاسرائيل. السفير الاميركي في البلد، سام لويس، يواجه صحافيين ويقول ان اسرائيل تمارس ابتزازاً عن سبق اصرار.

الإدارة [الاميركية] وجهت ايضا صفعة شخصية الى اريئيل

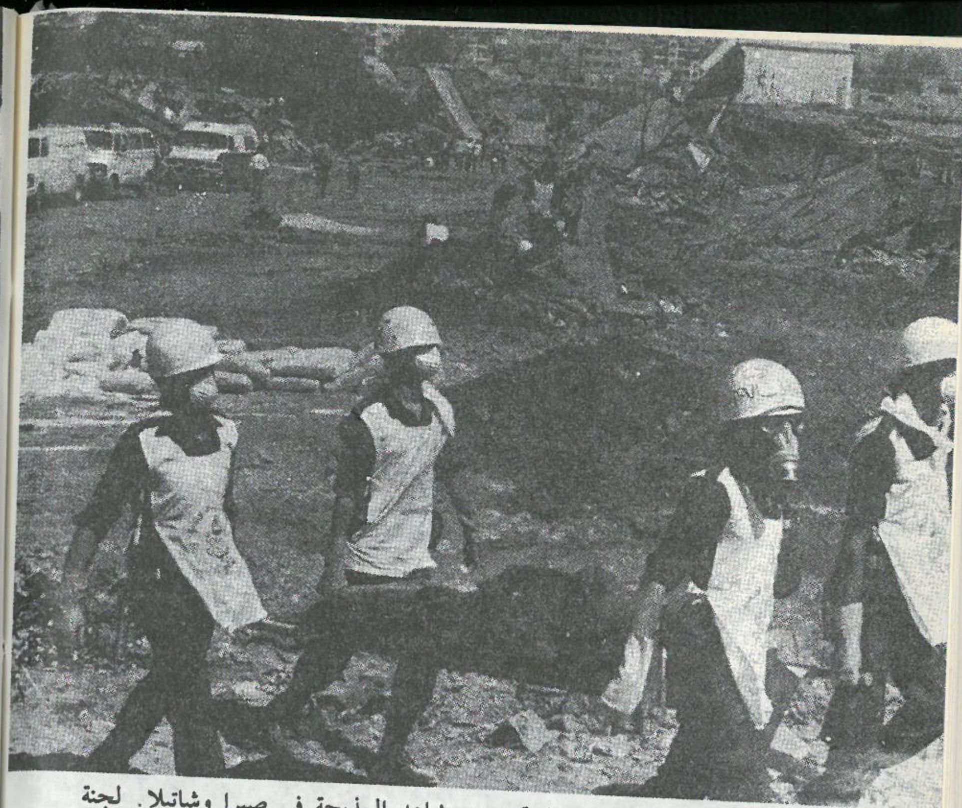


وحيدان في المنطقة: بشير الجميل واريك شارون ـ بيروت، ايلول ١٩٨٢.

شارون. ففي طريق عودته من زيارة لهندوراس تأخر بضعة ايام في الولايات المتحدة، ولم يوافق احد في الادارة على الاجتماع به. لقد وصل شارون مع رؤساء الادارة الاميركية الى طريق مسدود. هو كرههم، وهم ردوا عليه كما يستحق.

جرب وزير الخارجية اسلوب المناشدة الشخصية، الذي فعل فعله في مناسبات مختلفة مع رئيس الحكومة. في رسالة الى بيغن كتب شولتز: «نحن نعتمد على قيادتك الشخصية، التي ستضمن عدم ضياع الفرصة». ومما كتبه ردا على هذه الرسالة: ان اسرائيل تنازلت عن اتفاق سلام مع لبنان وعن طلبها ان تجري المفاوضات على مستوى وزراء، لكنها «لا تستطيع الموافقة على محاولة لبنانية لمقاطعة القدس».

مناحم بيغن لا يزال يعتقد ان اسرائيل على وشك ان تحقق تسوية لسلام الامر الواقع مع لبنان. في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، قال لمقربيه: «انا لا اريد حروبا بعد، وكل تنازل الآن من شأنه ان يعجل في حرب ستكون باهظة اكثر. نحن ايضا لنا اعصاب». لقد قيلت هذه الكلمات عندما نشرت الاخبار بأن الادارة تعمل لتقليص المساعدة لاسرائيل. الخلاص سيأتي من مكان آخر ـ اعتقد بيغن وشارون. لقد قررا تحذير الاميركيين وتلقينهم درساً.



الحديث الذي احدث هزة ارضية: من مشاهد المذبحة في صبرا وشاتيلا. لجنة كاهان تحدد مسؤولية غير مباشرة لاسرائيل.





اربعمائة الف ضد شارون: تظاهرة احتجاج في ساحة ملوك اسرائيل في تل ابيب بتاريخ ١٩٨٢/٩/٢٥، للمطالبة بتشكيل لجنة تحقيق.

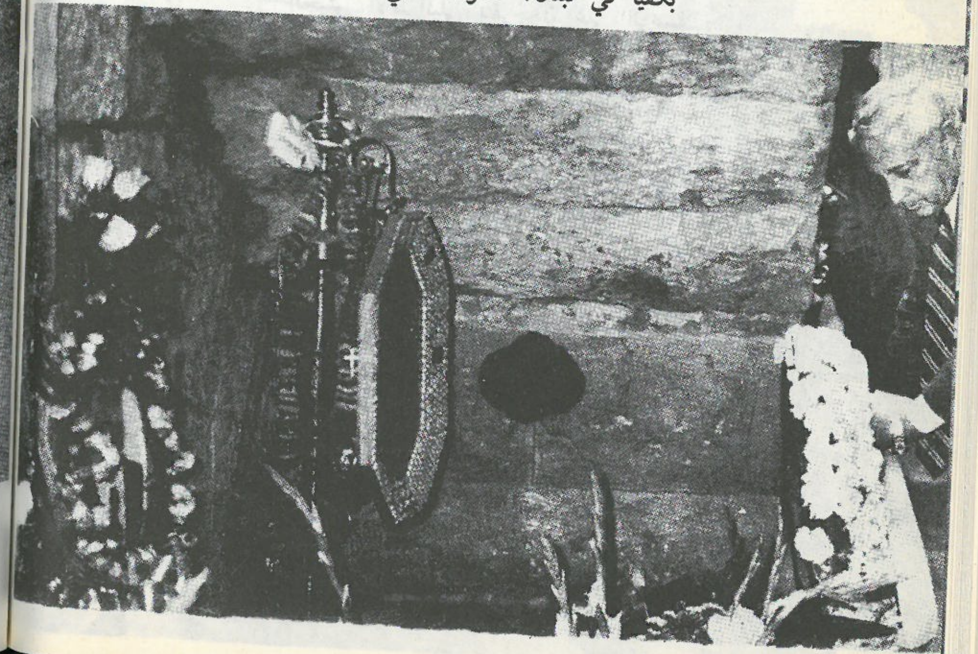
جيش لبنان دخل بيروت الغربية، وصورة امين الجميل ترفرف فوق الدبابة وجنود الجيش الاسرائيلي يتفرجون على الرصيف.





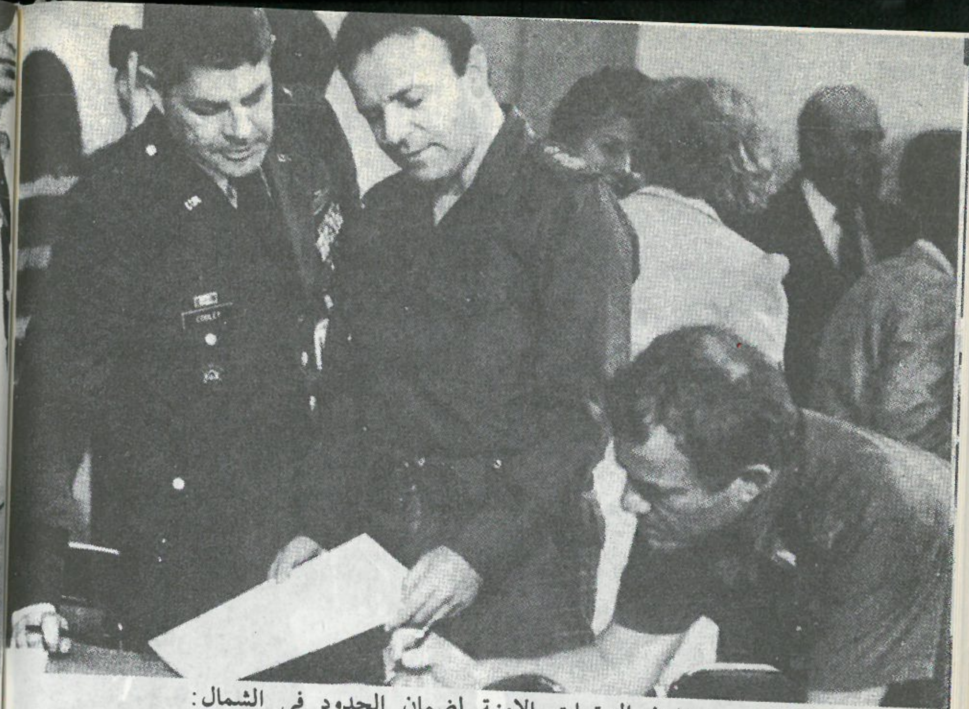
بحجم الآمال: اريئيل شارون يدلي بشهادته امام لجنة كاهان عن احداث المذبحة في مخيمي اللاجئين صبرا وشاتيلا. من عرف شيئاً؟ ٢٥ تشرين الاول ١٩٨٢.

سلام لصديق: شارون يضع اكليلاً على قبر بشير الجميل في مدفن العائلة في بلدة بكفيا في لبنان. كانون الثاني ١٩٨٢.





من نتائج الحرب في لبنان: اريئيل شارون في آخر استعراض لحرس الشرف قبل ان يتخلى عن منصبه كوزير للدفاع في اعقاب استنتاجات لجنة كاهان ١٧ شباط ١٩٨٢.



يبحثون الترتيبات الامنية لضمان الحدود في الشمال:
المفاوضات في كريات شمونة وخلده بالقرب من بيروت، في محاولة للتوصل الى اتفاق. ممثلو اسرائيل، الولايات المتحدة ولبنان يضعون صيغة الترتيبات الامنية. اللواء ابراهام طمير، الجنرال حمدان من لبنان والجنرال كولي من الولايات المتحدة.

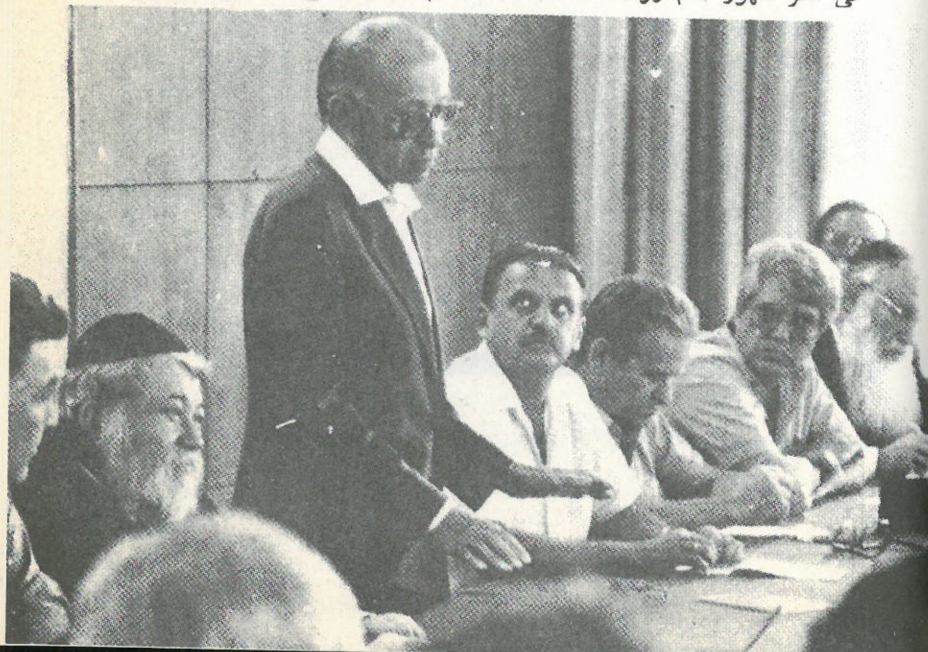
ثلاثة اجتمعوا معاً: رؤساء وفود اسرائيل، الولايات المتحدة ولبنان، يتصافحون بعد احتفال التوقيع على الاتفاق بين اسرائيل ولبنان. الدكتور انطوان فتال من لبنان، السفير موريس درايبر من اميركا، ودافيد كمحي من اسرائيل. ١٧ ايار ١٩٨٢.





الجنرالات المتقاعدان: ألكسندر هيغ، الذي كان وزير خارجية الولايات المتحدة، يتحدث مع اريك شارون، وزير الدفاع، في المقبرة الواقعة على جبل الزيتون في زيارة لقبر عليزا بيغن.

مناحم بيغن ثابت على رأيه في ان يستقيل ويعتزل الحياة السياسية.
فى آخر ظهور امام رؤساء الائتلاف قال: لم اعد استطيع». ٣٠ آب ١٩٨٣.



الفصل التاسع : الإختراق

سمع وزير الخارجية، يتسحاق شمير، عن الانجازات في المفاوضات مع لبنان خلال وجوده في فندق متواضع بمدينة الاستجمام فونتا ديل ـ استافي الاوروغواي، حيث انعقد هناك اجتماع سفراء اسرائيل في اميركا اللاتينية. اعلمه المتحدث باسمه، آفي بيزنر، بالخبر الذي نُشر في البلد: «باتصالات مباشرة وبمفاوضات مباشرة اجرتها حكومة اسرائيل مع ممثلي الحكم في لبنان، نشأ وضع سيضمن الانجازات السياسية لاسرائيل. لقد علمت الولايات المتحدة بالمفاوضات المباشرة، لكنها لم تكن ملمة بتفاصيلها، وبالاتفاقات التي تحققت». التاريخ: ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٢.

شعر شمير بالسوء لدى سماعه بالخبر. اتصالات سرية، كان شرط اجرائها من جانب رئيس لبنان المحافظة على سريتها، كشفت بواسطة وزير الدفاع.

يجب ان نبحث عن دوافع اريئيل شارون في المسوغات التي جرب اسلافه بها تبييض حروب اسرائيل، ويجب ان نضيف اليها حافزاً آخر: طموحاته الشخصية وتوقه الى ان يسجل الانجاز لحسابه. هكذا

تصرف منذ العمليات الانتقامية التي نفذت باشتراكه وبقيادته في مستهل الخمسينات، والامور غير المعروفة ولا المكتوبة. من اجل اخراج اسرائيل الى حرب، درج قادتها على استخدام حافزين رئيسيين: «حبل المشنقة» الملتف حول عنق الدولة، والانجازات السياسية التي ستنجم عن الحرب.

في عملية قادش [حرب ١٩٥٦] تأمن الاتفاق القومي للحرب كضرورة لازالة «حبل المشنقة» في جنوبي البلد. إبان المعركة اضيف الأمل بأن تتمكن اسرائيل من توسيع حدودها في الجنوب، في قطاع غزة وشرم الشيخ. وعندما انسحب الجيش الاسرائيلي الى حدود ما قبل الحرب، حدثت خيبة امل، لكن الوعد بمنع خطر الاطباق [على اسرائيل] صمد نحو عشر سنوات.

في حرب الايام الستة تحقق الاتفاق القومي مرة اخرى بسبب الحاجة الى ازالة «الخناق» المتمثل بحشود الجيش المصري في سيناء، واقفال المضائق من قبل رئيس مصر ناصر، وكذلك حشد القوات عند حدود اسرائيل الشرقية والشمالية. الهجوم الوقائي اعطى ثمرة اخرى، لم يحك فيها عشية الحرب: اسرائيل وسعت حدودها، وحدد قادتها انها مستعدة لاعادة جزء من المناطق فقط في مقابل سلام حقيقي مع جيرانها. هكذا بنيت شبكة آمال، كبتت واجّلت الحاجة الى حل اسس مشكلة اسرائيل الرئيسية في اعقاب حرب الايام الستة ـ المشكلة الفلسطينية.

في حرب الاستنزاف استندت الاستراتيجية الاسرائيلية الى التقدير انه اذا ما تبددت ثقة العرب بقدرتهم على التوصل الى انجازات بواسطة حرب استنزاف، فسيتشكل وضع راهن تعيش الدولة في ظله حالة لا سلام (لأن الدول العربية ترفض قبول شروطها للسلام) ولا

سمع وزير الخارجية، يتسحاق شمير، عن الانجازات في المفاوضات مع لبنان خلال وجوده في فندق متواضع بمدينة الاستجمام فونتا ديل - استافي الاوروغواي، حيث انعقد هناك اجتماع سفراء اسرائيل في اميركا اللاتينية. اعلمه المتحدث باسمه، آفي بيزنر، بالخبر الذي نُشر في البلد: «باتصالات مباشرة وبمفاوضات مباشرة اجرتها حكومة اسرائيل مع ممثلي الحكم في لبنان، نشأ وضع سيضمن الانجازات السياسية لاسرائيل. لقد علمت الولايات المتحدة بالمفاوضات المباشرة، لكنها لم تكن ملمة بتفاصيلها، وبالاتفاقات التي تحققت». التاريخ: ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٢.

شعر شمير بالسوء لدى سماعه بالخبر. اتصالات سرية، كان شرط اجرائها من جانب رئيس لبنان المحافظة على سريتها، كشفت بواسطة وزير الدفاع.

يجب ان نبحث عن دوافع اريئيل شارون في المسوغات التي جرب اسلافه بها تبييض حروب اسرائيل، ويجب ان نضيف اليها حافزاً آخر: طموحاته الشخصية وتوقه الى ان يسجل الانجاز لحسابه. هكذا

تصرف منذ العمليات الانتقامية التي نفذت باشتراكه وبقيادته في مستهل الخمسينات، والامور غير المعروفة ولا المكتوبة. من اجل اخراج اسرائيل الى حرب، درج قادتها على استخدام حافزين رئيسيين: «حبل المشنقة» الملتف حول عنق الدولة، والانجازات السياسية التي ستنجم عن الحرب.

في عملية قادش [حرب ١٩٥٦] تأمن الاتفاق القومي للحرب كضرورة لازالة «حبل المشنقة» في جنوبي البلد. إبان المعركة اضيف الأمل بأن تتمكن اسرائيل من توسيع حدودها في الجنوب، في قطاع غزة وشرم الشيخ. وعندما انسحب الجيش الاسرائيلي الى حدود ما قبل الحرب، حدثت خيبة امل، لكن الوعد بمنع خطر الاطباق [على اسرائيل] صمد نحو عشر سنوات.

في حرب الايام الستة تحقق الاتفاق القومي مرة اخرى بسبب الحاجة الى ازالة «الخناق» المتمثل بحشود الجيش المصري في سيناء، واقفال المضائق من قبل رئيس مصر ناصر، وكذلك حشد القوات عند حدود اسرائيل الشرقية والشمالية. الهجوم الوقائي اعطى ثمرة اخرى، لم يحلم فيها عشية الحرب: اسرائيل وسعت حدودها، وحدد قادتها انها مستعدة لاعادة جزء من المناطق فقط في مقابل سلام حقيقي مع جيرانها. هكذا بنيت شبكة آمال، كبتت واجّلت الحاجة الى حل اسس مشكلة اسرائيل الرئيسية في اعقاب حرب الايام الستة - المشكلة الفلسطينية.

في حرب الاستنزاف استندت الاستراتيجية الاسرائيلية الى التقدير انه اذا ما تبددت ثقة العرب بقدرتهم على التوصل الى انجازات بواسطة حرب استنزاف، فسيتشكل وضع راهن تعيش الدولة في ظله حالة لا سلام (لأن الدول العربية ترفض قبول شروطها للسلام) ولا

حرب (لأنها غير قادرة على اخضاعها في حقل المعركة بسبب قوتها العسكرية وعمقها الاقليمي). كانت النتيجة الفورية لهذا المفهوم، ان اسرائيل لم تكن مستعدة للتنازل عن «خط احتكاكها» بالجيش المصري في قناة السويس، في حين ان هناك اهمية كبيرة، من ناحية عسكرية، لحرب استنزاف بسبب عدم وجود «احتكاك» بين القوات العسكرية.

ان العمليات الهجومية التي نفذها الجيش الاسرائيلي في عمق مصر، بواسطة الغارات الجوية والقصف الثقيل لتجمعات السكان، جرت وراءها تعزيز النفوذ السوفياتي في مصر وسورية، في اعقاب حاجة هاتين الدولتين الى الاتحاد السوفياتي لضرورات الدفاع واستمرار وجود خيارهما العسكري. «ثمرة» اخرى، نمّتها حرب الاستنزاف، هي تعاظم الارهاب الفلسطيني. فقد رأت الدول العربية في منظمة التحرير الفلسطينية عاملاً مساعداً ما دامت لا تستطيع شن حرب شاملة على اسرائيل. لقد بدأت الولايات المتحدة بتدخل عميق في المنطقة عندما زاد الوعي لديها ان المنطقة مشبعة بخطر تدهور بين الكتلتين. نتيجة نهائية لحرب الاستنزاف كانت تبلور الاستراتيجية المشتركة لمصر وسورية بشأن المبادأة بهجوم على اسرائيل، ولو لأهداف محدودة، بهدف خرق الوضع الراهن.

خلقت حرب الايام الستة شروخاً صعبة في المجتمع الاسرائيلي، وفي نهاية الامر كانت الاساس للمفاجأة في حرب يوم الغفران ولفقدان الثقة عند اكثرية الجمهور الاسرائيلي بقيادته والى ذروة لا سابقة لها وصل انعدام الثقة بالقيادة (التي تبدلت، في هذه الاثناء) في حرب لبنان.

في هذه الحرب ايضا طرحت للتداول اسس التبرير التي ذكرت:

إزالة «حبل المشنقة» من منظمة التحرير، والنتائج السياسية التي ستتلو المعركة. بيد ان فروقاً جوهرية ميزت بينها وبين الحروب في الماضي. لقد خرجت الى حرب لبنان حكومة، كان مكونها الرئيسي، الليكود، متعلقاً بشركاء صغار، والى يسارها تقف معارضة كانت معادلة لها في الكنيست. في لبنان تحددت اهداف لم تكن مرتبطة مباشرة بضمان امن اسرائيل، الامر الذي لم يحدث في حروب الماضي. لقد حرّك رئيس الحكومة، مناحم بيغن، عملية الخروج الى الحرب وهو يعتمد على معطيات وزير الدفاع، اريئيل شارون، وتوصياته. لكن الطريق المشتركة لبيغن وشارون انفصلت حيث هما في المنحدر. لقد كف بيغن عن الثقة بـ«الانجازات» التي ستنتج عن الحرب في لبنان. وقد ساهم في هذا الوعي عدة احداث: الاجتماع الى بشير الجميل قبل مقتله، في اوائل ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢؛ المذبحة في مخيمي صبرا وشاتيلا، كثرة الضحايا التي استوجبتها الحرب من بيوت كثيرة في اسرائيل. في هذا الوضع كان بيغن مستعداً من ناحية نفسية «للتضحية» بشارون، حتى قبل قرار لجنة كاهان للتحقيق في مذبحة صبرا وشاتيلا.

شارون نفسه فهم ان مستقبله السياسي مرتبط بنتائج الحرب. ففي الوعي القومي كان هو المخطط والمنفذ لكل المسيرة في لبنان. اذا تحقق انجاز سياسي باهر، فسيغفر له الشعب. لكن اذا ما ذهب كل شيء ادراج الرياح، فانه سيهوي، وستتقرر مكانته في الحكومة طبقاً للنتائج.

متمسكا بهدفه وبصلابة رأيه وبشدة بأسه وصبره ـ هذه الصفات المميزة له ـ اتجه شارون الى تسريع عملية الترتيبات مع لبنان. لقد استخدم مكراً وتكتيكات وقوة والكثير من القوة، كي يغري ويضمن

انجازات سياسية تنطوي على ما يمتص المحن التي يقاسي منها الجمهور في البلد. كان هدف شارون لانقاذ «انجازات الحرب» المسيحيين مرة اخرى، او الكتائب. كان الاسلوب يتوخى مفاوضات مباشرة مع المسيحيين، من دون تدخلات اميركية. اذ ادرك شارون ان التدخلات الاميركية العميقة في لبنان على ارضية الحصار في بيروت، والمفاوضات لاجلاء [الفدائيين] والسوريين، عرضت للخطر مكانته في نظر المسيحيين. لقد ادرك هؤلاء انه من اجل تحقيق رغباتهم، عليهم التعاون مع الولايات المتحدة ايضاً. كانت هناك توقعات كثيرة من بشير الجميل، لكن لا حاجة الى خيال واسع كي نفهم انه حتى لو نجح شارون في ارغام بشير على توقيع اتفاق سلام علني ورسمي مع اسرائيل، لكان هذا الاتفاق يفرغ بسرعة من اي مضمون في اعقاب ضغط الدول العربية، التي كانت تفرض عقوبات فعلية على لبنان. لكن لم يكن اي شيء قادر على اقناع شارون بالانحراف عن طريقه. لقد واجهته مشكلة كيف يطفىء حريقاً كان يشترك هو نفسه في اشعاله: تجمع آمال باتفاق سلام مع لبنان. من اجل ذلك سلك شارون عشرات المرات الطريق الى بيروت، للتحادث مع قيادة المسيحيين، عبر توجيه تهديدات اليهم: «تتويج» الرائد حداد على منطقة تمتد حتى نهر الليطاني، وتغذية الاعتراف بأن اسرائيل تستطيع ان تبني علاقاتها بلبنان مع جهات اخرى ايضاً تكدس عقبات في الطريق لتحقيق رغبات المسيحيين.

اكتشف الرئيس امين الجميل فجأة ان اسرائيل تطور علاقات وثيقة مع الدروز الذين يكرههم، والذين استوطنوا في جبال الشوف. لقد حُركت الطائفة الدرزية في اسرائيل بواسطة شارون «لمصلحة» اخوانها في لبنان. بعث رئيس الحكومة ووزير الدفاع برسائل الى المسيحيين،

ناشداهم فيها بوقف مهاجمة الدروز. لقد انقلب شارون الى المدافع الاستراتيجي عن الدروز في الشوف. خاف امين الجميل من هذه التطورات. لقد اهين حتى الاعماق بسبب ما قاله بيغن وشارون في وسائل الاعلام وفي احاديث مع جهات لبنانية، انه حاكم قصره فقط. لقد توصل امين الى ان عليه ان يواصل تأسيس حكمه على «القوات اللبنانية»، لأن خطر تجدد حرب اهلية في بلده لم يزُل. فهم امين ايضاً ان لا وسيلة للتراجع عن العلاقات مع اسرائيل، على الرغم من انه أيدها شرط الا يدمر الامر الفرصة لنيل موافقة واسعة على حكمه في بلده وفي العالم العربي.

بيد ان شارون واصل استخدام «السوط» مع امين الجميل. ظهرت على الأرض اكثر فأكثر دلائل على ان اسرائيل لا تنوي بناء ترتيباتها الامنية في لبنان على المسيحيين فقط في شمالي الدولة. لقد صرح شارون انه سيكون هناك اختلاف بين ترتيبات الامن في وضع سلام مع لبنان وبين ترتيبات في ظل عدم استتباب السلام. وضع وزير الدفاع العجائب بقوله انه مستعد ايضاً لأن يحظى السوريون بالترتيبات الامنية نفسها في البقاع وشمالي لبنان، اذا ما كان الامر يضمن الوضع الخاص الذي تطلب اسرائيل تحقيقه لمنطقة الجنوب.

هذه الاشارات فعلت فعلها كما تفعل مصابيح سيارة مارة في راجل على الرصيف في ظلام الليل. توصل من في قصر بعبدا الى ان من الضروري التوصل الى تسوية مع اسرائيل قبل ان يفقد امين الجميل كل عنفوان الشباب.

في احد ايام تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢ وصلت الرسالة. مبعوث شخصي لرئيس لبنان طلب رؤية اريئيل شارون. الجهاز

السياسي ـ الامني في البلد متيقظ لحياة جديدة. عناصر التقدير القومي انتظرت املا لا بد آتٍ. «الموساد» توخى ان يثبت وجهة نظره الاساسية بشأن الشراكة المخلصة بين اسرائيل ومسيحيي لبنان، وقبالته وقف فرع المخابرات التابع للجيش الاسرائيلي، الذي اراد ان يثبت مرة اخرى لا ينبغي الا نثق بالمسيحيين.

اراد اريئيل شارون ان يسجل الانجاز باسمه فقط. وقبالته وقف وزير الخارجية، يتسحاق شمير، لكنه تجنب منافسة جبهوية، وبشكل عام نبعت انجازاته من اخطاء الآخرين ونزواتهم، او من صلاحيات لم يرغب فيها رئيس الحكومة ووزير الدفاع. كان هناك «عائق» واحد في وزارة الخارجية، امكن تحويله الى مساعد: المدير العام، دافيد كمحي. لقد كان براغماتياً تكتياً بارعاً وذا صبر فولاذي، وطموحاته الى ان يكون عنصراً رئيسياً في العملية السياسية المتعلقة بلبنان، كانت نابعة من عجزه عن تحقيق تطلعه الى تعيينه رئيس «الموساد». وكان احد اسباب ذلك المدرسة الفكرية التي ايدها وساندها لالتحام اسرائيل مع اقليات في المنطقة. هذه المدرسة عُرضت كمدرسة عتيقة.

في فترة الحرب في لبنان نبعت قوة كمحي في العملية السياسية مع لبنان اساساً من علاقاته بأريئيل شارون. عندما كانت العلاقات بينهما ودية كان ديف «على الحصان». وعندما وجد شارون ان كمحي لا يتصرف وفقاً لنصائحه وتوجيهاته، فترت العلاقات، ووجد المدير العام نفسه مبعداً عن ميدان الحسم. لقد اوشك ان يحدث التغيير في مكانته قبيل مجيء الموفد اللبناني. كان دافيد كمحي من بين المعزولين في المجموعة التي عرفته وإن سادت بينهم علاقات ودية.

كان الطعم الذي ارسل نحو شارون مكتملا، وقد بلعه. لقد قصد

امين ان يعادل عمل الموفد شكل مفاوضات مباشرة، تفادى المشاركة الاميركية. لقد فعل ذلك لأنه آمن بأن مستقبل لبنان مشروط بعلاقات صداقة مع الولايات المتحدة، بدعمها العسكري والاقتصادي، وليس بعلاقات مع اسرائيل. لقد توصل رئيس لبنان الى ان الاعتماد على اسرائيل معناه تقسيم لبنان، وفقدان قاعدة المسيحيين الاقتصادية، وخضوع مطلق للخطة الاستراتيجية الاسرائيلية، التي هي غير مضمونة ايضاً. قرأ امين جيداً الخريطة السياسية في البلد. يكفي ان النقد الشعبي للعلاقات بين اسرائيل والمسيحيين قد وصل اليه. لقد تعلم ان الولايات المتحدة فقط تستطيع ان تدفع دولاً عربية رئيسية، كالعربية السعودية ومصر والاردن، الى إقامة علاقات وثيقة مع لبنان والوصول الى تعزيزه.

ثمة مشكلة اخرى كان على امين ان يجابهها قبل «المحادثات المباشرة»، وهي كيف يشرح الاتفاق مع اسرائيل ليكون مقبولاً من شرائح واسعة في لبنان، خصوصاً مسلمين، وكيف يضمن ان تكون الاتفاقات مقبولة فعلاً من كل العناصر الشريكة له في حكومة لبنان.

كان التكتيك الذي اختاره هو: يوضح الموفد الشخصي ان الاتفاق الذي سيتحقق في محادثاته مع وزير الدفاع سيشكل اتفاق اطار بين الجميل وشارون. وعندما تبدأ المفاوضات الرسمية بين ممثلي الدولتين، ستكون الوثيقة «اتفاق درج». وفي اوضاع ازمة، عندما تواجه المفاوضات مأزقاً، يعملون طبقاً لهذه الاتفاقات. لذلك طُلب من الاسرائيليين، طبعاً، المحافظة على سرية مطلقة للمحادثات والاتفاقات التي ستتضمنها، لأنه بغير ذلك ستشعر العناصر الاسلامية في الإئتلاف الحكومي انها ذهبت الى مفاوضات قد تقرر مصيرها سلفاً. كان الجانب الاسرائيلي مستعداً ليأخذ على عاتقه قواعد اللعبة،

لأنه هو ايضاً قدر انه ينبغي له ان يساهم في تثبيت قيادة امين الجميل، خصوصاً وان سلوك الرئيس في بيروت اشار الى تمسكه بإرث اخيه وبالعلاقات الوثيقة مع اسرائيل.

كان من واجب اريئيل شارون حقاً ان يضع قبالة الموفد من بيروت مجموعة مفاوضين، من اعضائها ممثلو وزارة الخارجية و«الموساد» كي يضفي على المحادثات طابعاً وزارياً وليثبت كأن هناك تعاونا بين الجهات المختلفة. لكن اتضح في الواقع ان وزير الدفاع اجرى المحادثات المهمة بنفسه، وترك للمجموعة الاهتمام بالتفاصيل.

في اعقاب اجتماع مصغر برعاية شارون، بدأت المفاوضات في مسكن احد رؤساء «الموساد». رجل وسيم، مظهره فتي جداً ولباسه انيق، عرض نفسه كحافظ اسرار امين الجميل. لقد تحدث من دون انزلاق الى التطرف، وفي نقاط خلاف في الرأي اتبع اسلوب الطلب والتوسل. لقد اراد الموفد انجازاً شخصياً، يقطف ثمرته بنيل وظيفة رئيسية في حكم امين. اظهر اهتماماً بمصالح اسرائيل. وعبر عن المواقف المناقضة لمواقف اسرائيل من مبدأ وجوب مساعدة امين على الثبات وابقاء نقاط الخلاف بلا حلول للمستقبل، عندما يثبت الرئيس في كرسيه.

مرة اخرى ارتفعت الآمال لدى عارفي السر. الموفد دفع بالاسرائيليين الى انهاء المفاوضات بسرعة. من ناحية الرأي العام في بلده سيعرض الامر كإنجاز وستنتقل الكرة الى مرمى السوريين. وسيثبت تكراراً ان السوريين يرفضون الجلاء عن لبنان، بينما تعرض اسرائيل في ضوء ايجابي.

اقترح الموفد اللبناني ان يتضمن الاتفاق بنداً يتعلق بموافقة

اسرائيل على ان تعبر أراضيها بضائع الى الاردن والدول العربية الاخرى. هكذا سيتخلص لبنان من الاعتماد على مرور بضائع عبر الحدود السورية. تركزت المحادثات في ورقة عمل، ستشكل اساساً واطاراً لاتفاق بين اسرائيل ولبنان. ولدت الوثيقة في جو ايجابي، وبقيت عدة موضوعات بلا حلول، تحولت فيما بعد الى اسباب خلافات في المفاوضات العلنية، وصيغ خلقت اساساً لتفسيرات مختلفة من قبل الاطراف. طلب الموفد ان تتيح اسرائيل وضع مراقبي الامم المتحدة على خط الحدود بين الدولتين. «نحن بحاجة الى ذلك كورقة تين، لكي تبلغ الدول العربية الاتفاق بيننا. نحن نطلب وضع نحو عشرة مراقبين في نقاط العبور على الحدود». عارض الاسرائيليون، لمعرفتهم بأن مراقبي الامم المتحدة سيوضعون على الحدود مع لبنان بناءً على تفويض من مجلس الامن، وقد يؤدي الامر الى اقفال «الجدار الطيب»، تلك المعابر المفتوحة بين الجنوب اللبناني واسرائيل منذ عملية الليطاني، والتي مكّنت آلاف اللبنانيين من الانتقال والعمل في البلد، والجيش الاسرائيلي من دخول لبنان بصورة حرة ومن دون ان يعتبر الامر خرقاً ظاهراً للسيادة. لقد عارض الموفد قبول صيغة تكون بموجبها قوات الرائد حداد هيكل القوات التي ستوضع في الجنوب اللبناني، وتتحمل المسؤولية عن الامن في المنطقة. قال الموفد ان هذا الاقتراح لن يقبل من الاكثرية في حكومة لبنان، وكذلك من العربية السعودية. اخيراً وُجد حل وسط. قيل في الوثيقة ان المسؤولية عن الامن في الجنوب ستناط بقوات محلية. ولم يذكر اسم حداد.

ولسرور محادثيه الاسرائيليين، وافق الموفد على ان تتضمن ورقة العمل تعبير «تطبيع العلاقات بين اسرائيل ولبنان» الذي رمز الى الثمن

الذي نالته اسرائيل في اتفاق السلام مع مصر. كذلك وافق ان تنشىء اسرائيل في منطقة الامن، في اطار الترتيبات، ثلاث محطات انذار لفترة تتفق عليها الاطراف. قبل انهاء اعداد ورقة العمل المشتركة، تزايد الضغط الاميركي على اسرائيل. الوسيط فيليب حبيب على وشك القدوم الى المنطقة، وقبل مجيئه صرح الرئيس ريغان ووزير الخارجية شولتز في واشنطن، ان اسرائيل تمارس ابتزازاً في المفاوضات. مرة اخرى وجه اصبع الاتهام الى القدس. قبل ٢٤ ساعة من مجيء حبيب الى القدس، في ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٢، استعجل شارون قدوم الموفد اللبناني اليه. وصل الموفد وأريئيل شارون الى مكان اجتماع مؤمن جيداً وسط البلد. بلغ الموفد شارون تحية من الرئيس، مستطردا ان امين الجميل اعتقد انه كان من الافضل انتظار فيليب حبيب، لكن بما ان شارون دعاه، فقد وافق الرئيس على سفره.

كرر وزير الدفاع موقفه، الذي سُمع مرات كثيرة علناً في تلك الايام: «اذا اراد حبيب الوصول الى سورية والاجتماع الى الاسد وخدام، فهذا ليس شأننا. ما هو مهم لنا الترتيبات الامنية وتطبيع العلاقات بيننا. في هذه القضية لن نوافق على دبلوماسية مكوكية».

الموفد: «نحن مهتمون ايضاً بالتحدث معكم مباشرة. للاميركيين مصالح اخرى في الشرق الاوسط».

شارون: «المشكلات بيننا يمكن ان تحل خلال وقت قصير، الاميركيون لا يرون معنا هذا الموضوع بشكل محسوس. اقترحت على الاميركيين الفصل في معالجة هذه الموضوعات على النحو التالي: العلاقات بيننا - بمفاوضات مباشرة؛ اخراج السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية - برعاية الولايات المتحدة. فيليب حبيب ليس شريكاً في الاتفاق بيننا».

الموفد: «انا متفق معك».

في نهاية الاجتماع كان في يد وزير الدفاع ورقة متفق عليها. في صبيحة يوم الاربعاء، ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٢، بشر شارون مناحم بيغن بأنه بعد ليل ساحر من المناقشات مع ممثل رئيس لبنان، تم التوصل الى اتفاق مسبق بالنسبة الى مستقبل العلاقات بين اسرائيل ولبنان.

سمع فيليب حبيب عن انجازات شارون في وسائل الاعلام الاسرائيلية، عندما وصل الى اسرائيل في اليوم التالي، يوم الخميس ١٥ كانون الاول (ديسمبر). عقد شارون الذي زار بيروت، في المكان، مؤتمراً صحافياً مرتجلاً، واعلن فيه انه تحقق اختراق في الاتصالات لتسوية بين اسرائيل ولبنان.

أبقى شارون تفاصيل المفاجأة للاجتماع المزمع عقده بعد الظهر في مكتب رئيس الحكومة مع فيليب حبيب ومساعده موريس درايبر. بيغن وشارون اعدا العرض بحرص. دعي الى الاجتماع مشتركون من الجانب الاسرائيلي، الامر الذي كان دائماً موضع سخرية الاميركيين. عبر وزير الخارجية الاسبق الدكتور هنري كيسنجر! ذات مرة بعد محادثات سياسية في القدس ما فحواه: «يبدو ان الاسرائيليين يعتقدون ان القرارات في الاجتماعات معي تؤخذ طبقاً لاكثرية واقلية». في بداية الجلسة اتاح رئيس الحكومة لحبيب ان يعرض مقترحات الولايات المتحدة التي تستهدف ردم الهوة بين الموقف الاسرائيلي وموقف حكومة لبنان بشأن جوهر الترتيبات بينهما. بعد ذلك توجه بيغن الى شارون وطلب منه ان يتحدث عما عنده. استهل وزير الدفاع بالقول: «لم نخف عنكم واقع اننا نجري اتصالات مباشرة مع اللبنانيين. وبذلك وصلنا الى اتفاق، سأقرأ مضمونه امامكم».

طبقاً للأوصاف التي اشيعت بعد الجلسة على لسان متحدثين حكوميين، ساد الصمت في الغرفة، وبان الذهول جيداً على محيا كل من حبيب ودرايبر. مناحم بيغن وأريئيل شارون لعبا اللعبة حتى النهاية. وزير الدفاع يخرج من الحقيبة امامه ورقة العمل، وعنوانها «مبادىء أساسية وخطوط مرشدة للمفاوضات بين اسرائيل ولبنان». ورد في الوثيقة: ان الطرفين يوافقان على وجوب بذل الجهود لتحقيق نتائج في اقرب وقت ممكن بالنسبة الى العناصر التالية، التي يجب اعتبارها كصفقة رزمة: تطبيع العلاقات؛ ترتيبات امنية؛ انسحاب القوات الاسرائيلية. من اجل تحقيق الاتفاق على هذه الاسس تقرر، بحسب ما كتب في ورقة العمل، ان الابحاث ستجري على هذا الشكل: سيجتمع وفدان رسميان. الوفد اللبناني سيشكل من ثلاثة مدنيين وثلاثة ضباط، ويرئسه مدني. سيصدق الاتفاق النهائي من قبل الحكومتين. وسيشكل الوفدان لجنة ستجتمع بعد ان تكتمل الصفقة الرزمة وبعد انسحاب القوات، لكي تشرف على تنفيذ الاتفاق.

البند الاول في الموضوعات الجوهرية في ورقة العمل عُرِّف: «تطبيع العلاقات». سيتضمن التطبيع اعلان الغاء حالة الحرب بين لبنان واسرائيل؛ حدوداً مفتوحة للأفراد والبضائع؛ وجود مكتب ارتباط لاسرائيل في منطقة بيروت تعقد فيه اللجنة المشتركة اجتماعاتها. هذه اللجنة ستعالج الموضوعات السياسية والاقتصادية كافة، الى ان يوقع اتفاق سلام. تعهدت الدولتان بألا تبث احداهما دعاية معادية لصديقتها، وبوضع حد لكل مقاطعة اقتصادية. اخذ الطرفان على عاتقهما الدخول فوراً في مفاوضات بواسطة اللجنة، من اجل اكمال الاتفاق في مجالات مختلفة من التطبيع. فيما يتعلق بالتفاصيل اتُفق على ان تُعَدّ في الاتفاق النهائي.

تضمنت ورقة العمل ايضاً تفصيل الترتيبات الامنية بين الدولتين. ورد فيها: ان لبنان لن يستخدم ابداً قاعدة لعناصر معادية ولنشاطات ارهابية ضد اسرائيل. من اجل تحقيق هذا الهدف لن يسمح بإقامة مكاتب او بنية تحتية هدفها تنفيذ عمليات ارهابية او عمليات عسكرية ضد اسرائيل في اي مكان على ارض لبنان. في منطقة الامن ضمن نطاق ٤٥ ـ ٥٠ كيلومترا في الجنوب اللبناني، وافق الطرفان على اقامة ثلاث محطات انذار لفترة يتفق عليها في اللجنة المشتركة. كذلك سيحفظ لاسرائيل الحق في قيام سلاحها الجوي بطلعات استكشافية في سماء لبنان ودوريات يومية لفترة زمنية متفق عليها. سيسمح في المنطقة الامنية بوجود قوات الجيش اللبناني والشرطة اللبنانية على وجه الحصر. ستدمج «قوات لبنانية محلية» بأية طريقة في تركيب الجيش اللبناني. في نطاق منطقة الامن، ستطبق قيود على وجود تحصينات واسلحة ثقيلة. وستشرف لجنة عسكرية مشتركة بين اسرائيل ولبنان على ما يجري في نطاق المنطقة الامنية.

بالنسبة الى انسحاب القوات الاجنبية من لبنان، ومن بينها قوات الجيش الاسرائيلي، اتُفق على ان يكون المخربون اول من يجلو، وفقط بعد ان ينتهي خروج المخربين واطلاق سراح الاسرى لدى السوريين ولدى منظمة التحرير، وكذلك بعد ان تعاد جثث المفقودين والقتلى، ستوافق اسرائيل على سحب قواتها، وسيكون ذلك ـ هكذا اتُفق بوضوح مع اللبنانيين ـ «متزامناً مع انسحاب القوات السورية».

كانت بهجة رئيس الحكومة ووزير الدفاع بلا حدود. لقد نجحا حيث حاول الاميركيون التسبب بالاختناق. جرت اتصالات مباشرة، ويوجد شبه اتفاق. قال شارون في الجلسة مع حبيب ان ممثلي حكومة لبنان وافقوا على توقيع ورقة العمل بالاحرف الاولى، لكن بيغن اراد

تقديمها قبل ذلك لمصادقة الحكومة.

في نهاية ذلك الاسبوع كان لشارون عيد في وسائل الاعلام في البلد. فقد حظي بالعناوين الاولى، وبالكاريكاتور في الصفحات الاولى للصحف، وبمقابلات واسعة. «في مفاوضات حثيثة وسرية نجح شارون في تجاوز العراقيل التي اخرت حتى الآن التسوية بين الدولتين» - بشّر احد العناوين.

«الولايات المتحدة اخطأت عندما ربطت التسوية في لبنان بالمفاوضات بشأن التسوية في يهودا والسامرة» - قال شارون في مقابلة نهاية الاسبوع التي اجريت حتى قبل انهاء ورقة العمل - واضاف: «لو تصرفت الولايات المتحدة في قضية لبنان كما تبث دعاياتها للسلام في ارجاء العالم كله، لكنا حققنا سلاماً مع لبنان في وقت قصير».

استغل شارون الفرصة وهاجم ايضاً منتقديه في الداخل. «هناك كثيرون ممن يتأجج فيهم الامل بأن نفشل في الحصول على الترتيبات الامنية. وثمة كثيرون لديهم هدف مزدوج: «ان تختفي انجازات الحرب، وان يُزرع اليأس والوهن فيما يتعلق بتحقيق اهداف اسرائيل. الجيش الاسرائيلي ليس غارزاً في اي وحل» - ختم شارون.

ورقة العمل، التي تحققت في السر وكان شرط وجودها سريتها، اصبحت سلعة مكشوفة، ونُشرت تفاصيلها حتى قبل ان يعرف بها الوزراء. كانوا على وشك ان يجتمعوا في جلسة الحكومة الاسبوعية يوم الاحد، ١٩ كانون الاول (ديسمبر).

في بيروت صُعق الرئيس الجميل ومستشاروه لدى سماعهم الاخبار التي اذيعت في نهاية الاسبوع في البلد عن مضمون الاتفاقات مع وزير الدفاع. لم تتأخر ردة الفعل في الظهور. اشارة اولى الى

بداية تراجع امين الجميل عن الاتفاقات سُمع في الاجتماع الذي سبق جلسة الحكومة بين بيغن وفيليب حبيب، الذي امضى نهاية الاسبوع في بيروت. ابدى حبيب ملاحظة بأن اللبنانيين يرون في الوثيقة التي اتفق عليها مع اسرائيل «رزنامة عمل» للابحاث لا اكثر. «ماذا تعني اجندا» (روزنامة عمل) رد بيغن - «هذا ما تم الاتفاق عليه بيننا. لكن اذا كنت انت تنظر الى ذلك كرزنامة عمل، واللبنانيون يريدون التراجع عما سبق ان وافقوا عليه، فنحن ايضاً نستطيع ان نتراجع عن امور وافقنا عليها».

لم يعرف الوزراء شيئاً عن تفاصيل الاتصالات. لقد سمعوا بها اول مرة من اريئيل شارون، الذي جاهد طويلاً لشرح وتفصيل تطورات المحادثات والاتفاقات، بينما امتنع عن كشف اسم موفد رئيس لبنان الشخصي.

الانجاز بدا باهراً. حتى المتشككين من الوزراء مدحوا شارون، الذي كان بحاجة في تلك الايام الى كلمات تشجيعية. فقط نائب رئيس الحكومة، سيمحا ارليخ، شكك في حجم الانجاز، وقال عرض شارون على الاكثر امام الحكومة جدول اعمال للأبحاث. لكن شارون قاد المناقشات بحيث ورد في بيان الحكومة بوضوح انها «تصادق على الوثيقة التي انجزت في الاتصالات بين لبنان واسرائيل والتي ستجري بناءً عليها المفاوضات بين الدولتين». بدا الانجاز مهماً وباهراً الى حد ان مناحم بيغن اقترح التنازل عن طلب اسرائيل اجراء المفاوضات في عاصمتي الدولتين، القدس وبيروت. ابلغ وزير الدفاع زملاءه الوزراء بأن اللبنانيين سيوقعون الآن ورقة العمل بالاحرف الأولى بيد ان هذه الوثيقة لم توقع قط.

إن كشف [الوثيقة] وتحويلها الى قرار حكومي في البلد جعلاها امراً مستحيلاً. في رأي اللبنانيين، خرقت اسرائيل الشرط الرئيسي لوجود الاتفاق: السرية. لم يساعد صراخ اريئيل شارون، الذي اسرع الى بيروت، واجرى من الممثلية الاسرائيلية طوال ساعات عديدة، مفاوضات هاتفية مع ممثل الرئيس الجميل. لقد رفضوا التوقيع. فتش المتفاوضون عن مخرج. اقتُرح ان تكتب رسالة مرفقة، يقال فيها ان ورقة العمل ستكون الاساس للمفاوضات. لكن اللبنانيين رفضوا توقيع هذا البديل ايضاً. انكشف طرف القضية في الجهاز السياسي والحكومي، وكانت الفرحة بمصيبة شارون كبيرة. لكن هذه المرة كان ذلك مصيبة لزملائه ايضاً.

في بيروت ثبت مرة اخرى عدم تماسك امين الجميل ووضعه المترجرج. لا شك في ان رئيس لبنان اراد ان يصل الى اتفاق مع شارون، من خلال وعي بأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لبدء المفاوضات. كان لدى الجميل ادعاءات كثيرة ضد اسرائيل. لقد ادعى انها تعامله بقسوة وتكدس العراقيل. وبمرارة اضاف ان ممثلي الولايات المتحدة هم اصدقاؤه الوحيدون، وعليهم فقط يستطيع ان يعتمد. «سأخوِّلهم اجراء المفاوضات، وحل المشكلات».

والولايات المتحدة - مثلما ايدت سياسة المراحل في انشاء علاقات التطبيع بين اسرائيل ومصر - كذلك اعتقدت ايضاً انه يجب ألا يأخذ قادة لبنان المبادرة وتوقيع اتفاق سلام مع اسرائيل، بل الافضل بناء شبكة العلاقات بين الدولتين بالتدريج. ان دوافع الولايات المتحدة لم تنجم عن تلك الاسباب التي قيلت بالنسبة اليها في القدس: الرغبة في منع تسوية سلمية بين اسرائيل ودولة عربية اخرى قبل ان تحل المشكلة الفلسطينية، او الرغبة في حرمان اسرائيل من انجاز سياسي

في اعقاب الحرب الدامية في لبنان. كانت سياسة متماسكة لواشنطن، حيث اعتقدت ان النزاع الاسرائيلي - العربي يتطلب حلاً شاملاً. وما دام لا يتوافر حل كهذا فستكون في العالم العربي دول تحقق انجازات معينة بحلول منفردة، غير انه سينشأ استقطاب بينها وبين باقي اجزاء العالم العربي. هذا الاستقطاب يستغل جيداً من الاتحاد السوفياتي، وهو ارض خصبة لعدم الاستقرار الذي ينطوي على اخطار حرب. ثمة انعكاس آخر لوضع تسويات منفردة هو، في رأي الاميركيين، انه بسبب الاستقطاب في العالم العربي تُفرغ اية تسوية تعقد بين اسرائيل والدول العربية من مضمونها. ونتيجة ذلك تتزايد في اسرائيل العناصر المتطرفة، التي تساعد الحكومة على تنفيذ اعمال من طرف واحد من شأنها ان تدفع المنطقة الى حرب جديدة. ان الاساس المشترك في سياسة رؤساء الولايات المتحدة كافة ازاء الشرق الاوسط منذ حرب الايام الستة هو، اذن، ان كل تسوية يجب ان تكون عنصراً ايجابياً لتقدم الحل الشامل.

كانت هناك مناقشات لا تحصى بين اسرائيل والولايات المتحدة بشأن عملية تطبيع العلاقات مع لبنان. لقد اعطى الاميركيون كمثل تطور علاقاتهم مع الصين، التي كانت ايضاً على مراحل، على اساس الرغبة في بناء الوعي الايجابي لدى الرأي العام في الولايات المتحدة، ووجود مشكلات داخلية في الدولتين. كل الادعاءات التي طرحتها اسرائيل لم تجدِ. شارون اتهم حبيب ودرايبر بمحاولة حرمان اسرائيل من انجازاتها في حرب لبنان.

عندما اغلق الباب على المفاوضات السرية، رفع الستار عن المحادثات العلنية بين وفدي اسرائيل ولبنان في كريات شمونة وخلدة. وقد اختار مناحم بيغن، رجل الرموز، مكاناً للمحادثات البلدة الشمالية

التي عانت لسنين عديدة من اعتداءات منظمات المخربين. وقد بدأت الاتصالات بين دافيد كمحي المدير العام لوزارة الخارجية، وبين الدكتور انطوان فتّال الذي كان مرشحا لترؤس الوفد اللبناني الى المحادثات بشأن الترتيبات.

تحت حراسة مشددة من قبل جنود الجيش الاسرائيلي والقوة المتعددة الجنسيات والجيش اللبناني ورجال الامن، وصل في ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) الممثلون لبدء المحادثات بشأن الترتيبات بين اسرائيل ولبنان في خلدة بالقرب من بيروت. ومن الناقورة جاء مئات الصحافيين لتغطية الحدث بمواكبة حراسة مشددة من الجيش الاسرائيلي، تخوفا من اطلاق النار على القافلة. كانت الصورة التي ظهرت في خلدة بائسة. صحيح ان اعلام اسرائيل ولبنان والولايات المتحدة رفعت على مدخل الفندق المهجور الذي شهد الحدث، غير انه كان يستحيل اخفاء الحقيقة غير السارة، ان المؤتمر لم يفتتح إلا بحماية سفن الاسطول السادس الاميركي التي كانت موجودة قبالة المكان، ودبابات ومجنزرات الجيش الاسرائيلي التي كانت تحمي المنطقة، والقوة المتعددة الجنسيات التي انتشرت في دائرة خارجية على مسافة معينة من المكان. الوفد اللبناني جلس خلال الاحتفال جامداً في مكانه. كان من المستحيل الاحساس بحفيف اجنحة التاريخ.

ترأس الوفد الاسرائيلي دافيد كمحي المدير العام لوزارة الخارجية، الذي القى خطابا عن السلام المنشود. أما نظيره اللبناني الدكتور انطوان فتّال فبقي على الارض اللبنانية الموجودة. لقد اشاد بالترتيبات على غرار اتفاقية الهدنة التي وُقعت بعد حرب الاستقلال.

كان الوفد الاميركي، برئاسة السيد موريس درايبر، العرّاب الحقيقي. ومن دونه ما كانت هذه المناسبة لتتم على الاطلاق. كان منظرا بائسا ان ترى الممثلين يتراكضون ليبلغوا مرسليهم بكل خطوة تافهة - انطوان فتال يبلغ الرئيس الجميل، واعضاءآخرون من الوفد يبلغون رئيس الحكومة المسلم، شفيق الوزان، ودافيد كمحي يبلغ يتسحاق شمير، واللواء ابراهام تمير يبلغ اريئيل شارون. وقد اتضح في مستهل المحادثات انه ليس هناك اتفاق حتى على جدول الاعمال، وان ورقة العمل التي تم الاتفاق عليها بين اريئيل شارون ومبعوث امين الجميل كأنها لم تكن.

برزت في المحادثات عقبتان كان قد جرى البحث فيهما في الماضي: مدى تدخل اسرائيل في الترتيبات الامنية في الجنوب اللبناني، وتطبيع العلاقات. وأصرَّ ممثلو لبنان، بدعم من الاميركيين وتشجيعهم، على ان يكونوا هم المسؤولين الوحيدين عما يجري في المنطقة، وعلى عدم منح اسرائيل اية مكانة خاصة في الجنوب اللبناني. أما بالنسبة الى التطبيع، فقد اقترح الاميركيون حلا وسطا يقضي بمناقشة هذا الموضوع بعد بضعة اشهر من توقيع الاتفاق الشامل، في حين تجري على الارض ترتيبات لفتح الحدود. وهكذا تحولت الولايات المتحدة، بمشيئة اسرائيل ام بغير مشيئتها، الى الجهة المحركة للمسار كله.

إن دخول واشنطن صلب المحادثات بشأن الترتيبات مع لبنان روفق بمناخ تحسنت في ظله العلاقات مع القدس. وقد تعلم وزير الخارجية شولتز من اسلافه انه ينبغي قيادة اسرائيل بعصا ناعمة لا بعصا غليظة، عن طريق جعلها تشعر بأن الولايات المتحدة هي حليف دولة اليهود الاقوى. والوسيلة الى ذلك هي تأكيد اهداف الدولتين

المشتركة: إخراج القوات الاجنبية جميعا من لبنان؛ إعادة السيادة الكاملة الى الاراضي اللبنانية؛ ضمان امن اسرائيل. وقد توصلت واشنطن الى هذا الاستنتاج بعد فترات قصيرة من «الخصام» مع الاسرائيليين.

من حسن حظ اسرائيل، وهنا تجلى نجاح مناحم بيغن، ان واشنطن اغرقت نفسها في شؤون لبنان، مهملة معالجة استمرار مسار السلام الشامل. اي: البحث عن حل لمشكلة المناطق التي تحتفظ بها اسرائيل في يهودا والسامرة وقطاع غزة. ان الاميركيين لم يتخلوا عن مبادرة ريغان، وإنما لم توجد بعد، خلافاً لتوقعاتهم، الجهة العربية التي ستوافق على التعاطي مع مشروعهم، ولذا لم يروا فائدة من الضغط على اسرائيل. وامتنع حسين عن الانضمام الى مسار السلام بسبب العرب لا بسبب رفض اسرائيل. وقد توصلت الولايات المتحدة، اذن، الى ان العرب غير محبطين بما فيه الكفاية بعد ليمكنوا ملك الاردن من الانضمام الى المبادرة. وهكذا تم تجنب ازمة متواصلة في العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة، ووُجد الاساس لحل الازمة في لبنان ـ هذا ما افترضته واشنطن على الاقل.

كانت الاستراتيجية الاميركية كما يلي: يجب التوصل في المرحلة الاولى الى اتفاق بين اسرائيل ولبنان، يكون اساسه استعداد اسرائيل للجلاء عن الأراضي اللبنانية. وفي المرحلة الثانية، تطرح الولايات المتحدة هذا الاتفاق علناً، ثم تضغط الدول العربية على سورية للخروج من لبنان.

قال فيليب حبيب على مسامع الاسرائيليين ما شنف آذانهم: لدى اللبنانيين وعد من السوريين بالخروج بعد الجيش الاسرائيلي. وامتنع

حبيب عن الالتزام. وقال حافظ الاسد رئيس سورية، خلال محادثاته مع حبيب، ان عليه ان يطلع على الاتفاق الاسرائيلي ـ اللبناني، وبعد ذلك يقرر خطواته. وفي هذه الاثناء، استغلت سورية اشهر المفاوضات التي هدرت على مناقشات عقيمة بين الفرقاء لاستعادة ثقتها بنفسها وبناء قدرة ردعية بمساعدة السوفيات.

وخلال شهر شباط (فبراير)، وصلت المحادثات بين اسرائيل ولبنان الى حائط مسدود. وأصر امين الجميل على رفضه لاحداث انفراج في العلاقات مع اسرائيل وترجمتها على علاقات سلمية مكشوفة. وكان اريئيل شارون يمضي ايامه الاخيرة في وزارة الدفاع. وأوشكت لجنة التحقيق في مذبحة صبرا وشاتيلا على انهاء عملها. وعلى الرغم من محاولة الاستمرار في العمل وكأن السيف غير مسلط على العنق، فقد كانت ردات فعل وزير الدفاع تجاه احداث مختلفة شديدة، ونجمت عن غضب واحباط شديد.

خلال تلك الايام كثرت الاشتباكات بين الكتائب والدروز في منطقة عاليه شمالي بيروت. وفي احد هذه الاشتباكات اصيب المسيحيون بقذيفة درزية وبقي رجالهم من الجرحى والقتلى على الارض من دون اي امكان لانتشالهم. وبعث الكتائب برسالة مستعجلة الى وزير الدفاع يطلبون مساعدة رجالهم بالقصف المدفعي للدروز، الذين كانوا يقصفون من المنطقة السورية. فكان رد وزير الدفاع قصيرا: «اذا كنتم تواجهون مشكلات فاذهبوا الى الرئيس امين الجميل»...

نجم شعور شارون بالاحباط من الاحساس بأن لجنة كاهان قد قررت مصيره، وان المحيطين به جميعا، بيغن والوزراء، يقفون على

الحياد. كما ان معنويات رئيس الحكومة، خلال الايام التي سبقت استنتاجات اللجنة، كانت متدهورة. وحزن بيغن على وفاة زوجته عاليزا، التي توفيت بعد فترة طويلة من العناء نتيجة مرض عضال في رئتيها، وبينما كان بيغن منزويا في منزله الرسمي ومنطويا على نفسه، تلقى الانباء بشأن ما يجري في جبهة لبنان. فقد اخذ عدد الشهداء منذ بدء الحرب يقترب من خمسمائة.

في ليلة ٧ شباط (فبراير)، قبل نشر تقرير لجنة كاهان رسميا، تلقى رئيس الحكومة هذه الوثيقة. وانزوى بيغن في منزله مع بعض مستشاريه الذين تلوا امامه لمدة ساعة كاملة عرضاً لتطور الاحداث، والرأي الذي أبدي في أداء الاجهزة والاشخاص المعنيين، وفي النهاية تلوا توصيات اللجنة. وقرر مناحم بيغن تبني هذه التوصيات.

نفذ المذبحة في مخيمي اللاجئين صبرا وشاتيلا وحدة من الكتائب، كما جزم اعضاء اللجنة. ولم يكن من وراء ادخال الكتائب الى المخيمين اية نية من جانب اي شخص عمل نيابة عن اسرائيل للاساءة الى السكان غير المقاتلين، والامور التي حدثت لم تكن بموافقة رجال الجيش الاسرائيلي او بحسب رأيهم، او بموافقة اية جهة من المرتبة السياسية والمدنية التي كانت عل صلة في مسألة دخول الكتائب الى المخيمين. ومع ذلك، قررت اللجنة ان اسرائيل مسؤولة بصورة غير مباشرة عن قضية المذبحة التي نفذها الكتائب، الذين دخلوا المخيمين بموافقة الجيش الاسرائيلي الذي كانت قواته تسيطر على المنطقة. واعتبر رئيس الحكومة مسؤولا لأنه لم يظهر اي تداخل في مسألة ادخال قوات الكتائب. وأُلقيت على وزير الدفاع مسؤولية تجاهل خطر القيام بأعمال انتقامية ودموية من جانب الكتائب تجاه سكان مخيمي اللاجئين، كما انه لم يأخذ في الحسبان خطرا كهذا

عندما قرر إدخال الكتائب الى المخيمين. ووجد شارون ايضاً مسؤولا لأنه لم يتخذ تدابير ملائمة للحؤول دون خطر المذبحة او التقليل منه كشرط لدخول الكتائب. وجزمت اللجنة بأن يتسحاق شمير، وزير الداخلية، اخطأ لأنه لم يقدم على اي عمل بعد ان سمع من الوزير مردخاي تسيبوري بأعمال الذبح في المخيمين. ووجد رئيس هيئة الاركان مسؤولا لأنه لم يبد رأيه في خطر حدوث اعمال انتقامية وسفك دماء من جانب الكتائب ضد السكان المدنيين في مخيمي اللاجئين. وجاء في التقرير ان رئيس هيئة الاركان لم يصدر تعليماته باتخاذ تدابير ملائمة للحؤول دون هذا الخطر.

اوصت اللجنة بأن يستخلص وزير الدفاع الاستنتاجات الشخصية الملائمة من العيوب التي ظهرت في أداء وظيفته. واضاف اعضاء اللجنة تلميحات مكثفة مفادها ان رئيس الحكومة يستطيع بحكم صلاحيته ان ينقل شارون اذا اقتضت الحاجة، من وظيفته كوزير للدفاع. وبالنسبة الى رئيس هيئة الاركان، اكتفت اللجنة بتحديد مسؤوليته من دون ان تضيف اية توصية وذلك نظرا الى انه اوشك على انهاء ولايته بطبيعة الحال خلال بضعة اشهر، ومراعاة لحقيقة عدم التفكير في تمديد فترة ولايته. وأوصت اللجنة بعدم استمرار أداء اللواء يهوشواع ساغي في منصبه. وجزمت اللجنة بأنه لم يقم بما انيط به بصفته مسؤولا عن التحذير امام صانعي السياسة والتقدم بتقويمات قبيل تنفيذ هذا العمل او ذاك. اما رئيس «الموساد» فقد نجا من هذه القضية، وذلك في الاساس لأنه لم يسمع بدخول الكتائب الى المخيمين إلا في جلسة الحكومة في ١٦ ايلول (سبتمبر)، ولأنه كان قد مضى يومان فقط على ممارسة عمله في منصبه.

اتضح لبيغن من تلاوة التقرير، ان حكومته ارتكبت خطأ شبيها

بخطأ حكومة غولدا مئير قبل حرب يوم الغفران سنة ١٩٧٣. وفي ذلك الحين، وقع صانعو السياسة اسرى «مفهوم» يقضي بأنه ليس هناك احتمال لنشوب اعمال عدائية بين اسرائيل وجاراتها، وانه ليس في قدرة هذه الاخيرة إلحاق الهزيمة بإسرائيل. ان حكومة بيغن تبنّت مفهوم الاعتماد على قسم من المسيحيين من اجل تحقيق أهداف بعيدة المدى - اتفاق سلام مع دولة اخرى في المنطقة، وتحطيم قوة منظمة التحرير الفلسطينية العسكرية والسياسية. غير ان هذين المفهومين أفلسا، عندما خضعا لتجربة «حقيقية» على الارض.

كما اتضح ايضا من قراءة تقرير لجنة كاهان، انه كلما تم النزول في المراتب القيادية سمع كلام اكثر صحة، من دون تبرير او تضليل. ان رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية اللواء ساغي لم يذكر ولم يسمع بقرار ادخال الكتائب. كما ان العقيد عاموس يارون كان مستعدا للقول: «الجميع مخطئون، وكان هناك تلبد حواس من قبل المؤسسة العسكرية كلها». اما الضباط على المستويات الميدانية فقد شاهدوا وسمعوا. ولم تكن عليهم اية التزامات ازاء المراتب السياسية. وهكذا ظهر في التقرير ان ضابطا برتبة ملازم يدعى ناحوم ميناحم، تحدث عن لقاء عقده يوم ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢ مع وزير الدفاع. وأبدى امام شارون رأيه، الذي استند الى تجربة غنية وعمل بحثي بشأن موضوع الخلافات بين الطوائف في لبنان، في انه قد تقع «مذبحة رهيبة» - على حد قوله - اذ لم تعرف اسرائيل كيف تخفف من حدة التوتر الطائفي في لبنان.

لا نستطيع ان نعرف ما كان يشعر به رئيس الحكومة في قرارة نفسه، عندما اتضح له ان الجهاز الذي كان مسؤولا عنه عمل بالطريقة التي عمل بها. وفي اي حال، بعد نشر الاستنتاجات تصرف مناحم

بيغن كرجل يحترم لجان التحقيق. وهو كرجل سياسي محنك، قاد سفينة الحكومة بحذر، مدركا انها تتعرض لهزة عنيفة في الداخل والخارج. وكانت المشكلة التي واجهها بيغن تتعلق بكيفية المحافظة على الكعكة كاملة، لكن من دون اريئيل شارون. ونجح في ذلك. وخلال بضعة ايام وجد شارون نفسه خارج وزارة الدفاع، وبقي في الحكومة كالقنبلة الموقوتة في منصب وزير بلا حقيبة. ودخل وزارة الدفاع البروفيسور موشيه آرنس السفير في واشنطن، الذي استدعي للحضور وتولي هذا المنصب بعد دقائق معدودة من انتهاء جلسة الحكومة التي اتخذت قرارا دعت فيه شارون الى الاستقالة.

بيد ان تغيير الاشخاص في الحكومة لم يمهد السبيل الى ايجاد تسويات في لبنان. ان الاشهر تتوالى، واسرائيل غارقة مع جيشها في لبنان. وفي كريات شمونة وخلدة اخذت الوفود المشتركة في المفاوضات تواجه ارتباكا بشأن كيفية ردم الفجوات بين مواقف الفريقين. وأراد اللبنانيون عدم التكلم كثيراً عن الاتفاق مع اسرائيل. وكانت كل جملة وكل ملاحظة في الاتفاق المقترح تتطلب الحصول على اقرار وموافقة من المسلمين في حكومة لبنان وليس من المسيحيين فقط. وقد عملت اسرائيل للتطبيع ولحدود مفتوحة ولتسويات امنية، ترتكز على وجود قواتها في الجنوب اللبناني، بذريعة ان الجيش اللبناني غير قادر على ضمان الترتيبات الامنية. وعلى خلفية هذه الفجوات العميقة دعي وزيرا خارجية اسرائيل ولبنان في شهر آذار (مارس) ١٩٨٣ الى واشنطن لاجراء محادثات مع وزير الخارجية الاميركي جورج شولتز.

ان شولتز هو نقيض سلفه في هذا المنصب، ألكسندر هيغ. فهو متواضع، ومتميز، ويتجنب الظهور بمناسبات علنية كثيرة. ان كتّاب

الخطب في مكتبه، في الطبقة السابعة في وزارة الخارجية، لا يواجهون اعباء كبيرة في العمل. ان موشيه آرنس كسفير استطاع بلورة شبكة علاقات وثيقة وشخصية مع شولتز. وكان شولتز وآرنس يمضيان اوقاتا سوية وتداولا مرات عديدة في قضايا حساسة تتعلق بإسرائيل. وفي ذروة جهود الادارة الاميركية لضم الاردن الى عملية السلام وفق دعوة الرئيس ريغان، قام آرنس بمبادرة. اما الادارة الاميركية فإنها ولّدت في وسائل الاعلام الاحساس بأن الملك حسين على وشك الانضمام الى المفاوضات في كل لحظة، وطلبت من اسرائيل القيام بخطوة واحدة: الموافقة على تجميد اقامة مستوطنات جديدة في يهودا والسامرة. ورفض رئيس الحكومة بشدة مشروع ريغان قائلا عنه: «ولد ميتا»، كما انه رفض طبعا تجميد اقامة مستوطنات جديدة. ووقفت واشنطن والقدس على عتبة ازمة. وأوصى السفير آرنس، في رسالة وجهها الى رئيس الحكومة وحده، انه في حال قيام حسين بإعلان استعداده للانضمام الى محادثات السلام مع اسرائيل، فمن المفضل ان تعلن اسرائيل استعدادها لتجميد اقامة المستوطنات لمدة ستة اشهر، بدلا من صد اليد الممدودة. ورد بيغن على توصية السفير بصورة فاترة وبرفض مطلق لها. وقال لمقربيه: «يمكن فهم موشيه (آرنس) انه لم يستطع مواجهة الضغط، لأنه موجود في قلب العاصفة والضغوط الاميركية...»

إن الاسلوب الذي اختارته الادارة الاميركية لاقناع اسرائيل بالتخلي عن طلبها باستمرار الوجود العسكري في الجنوب اللبناني بعد توقيع الاتفاق مع لبنان، كان اسلوب «اليد المرنة»: اظهار التفهم لحاجات اسرائيل الامنية، والتشديد على ضرورة تنسيق المواقف بين الدولتين. وكان الهدف يقضي بموافقة وزير الخارجية يتسحاق شمير،

خلال زيارته لواشنطن، على مقترحات بديلة للوجود العسكري الاسرائيلي في لبنان. وفي ظهر ١٥ آذار (مارس) ١٩٨٣ اجتمع جورج شولتز ويتسحاق شمير بحضور طاقميهما. واستهل وزير الخارجية الاميركي كلامه بقوله: «خلال الفترة الاخيرة تساءلنا عن البدائل الممكنة لضمان امن اسرائيل، بغير طريق وجود الجيش الاسرائيلي في الجنوب اللبناني. وقد بحثنا في ذلك ايضا مع اللبنانيين، وتوصلنا الى حلول ممكنة، فإذا وافقتم عليها ستكون بمثابة صفقة شاملة».

خلال سير المناقشات طرحت مشكلة قوات الرائد حداد ومكانته والتدابير الامنية التي ستتخذ في الجنوب اللبناني لضمان حدود اسرائيل. وجرى حديث عن اقامة لواء اقليمي تابع للجيش اللبناني بضم ضباط من خارج المنطقة، واستمرار الطلعات الجوية الاستطلاعية الاسرائيلية في اجواء لبنان، ووضع قوة اليونيفيل والقوة المتعددة الجنسيات.

خرج الاميركيون في نهاية المحادثات بانطباع بأن اسرائيل مستعدة للتخلي عن مطالبها بشأن الترتيبات الامنية، والاكتفاء بالبدائل. ولم يرفض شمير المقترحات الاميركية، وإنما كانت المشكلة التي واجهته تتعلق بكيفية اقناع اقرانه في الحكومة بالموافقة عليها. ولدى عودته الى اسرائيل انتشرت انباء في واشنطن مفادها ان شمير «تخلى» عن امن اسرائيل. وليس في البلد [اسرائيل] عبارة اكثر استنكارا في الحياة السياسية من عبارة «التخلي». فالسياسي الذي تلصق به هذه الكلمة المستنكرة، يجد نفسه بحاجة الى التبرير. وقال يتسحاق شمير انه لم يخرج خلال محادثاته عن قرارات الحكومة. ولم تكن اسرائيل في آذار (مارس) ١٩٨٣ مهيأة بعد للنزول عن شجرة مطالبها العالية.

ستة عشر نعشا مغطاة بأعلام الولايات المتحدة أُنزلت من طائرة سلاح الجو في مطار اندروز بالقرب من واشنطن. كان ذلك في إحدى الليالي الممطرة من آخر نيسان (ابريل) ١٩٨٣. فقد أُحضرت جثث جنود مشاة البحارة وموظفي السفارة الاميركية في بيروت، التي اخرجت من بين انقاض مبنى السفارة الذي دمر نتيجة انفجار هائل، الى الوطن لدفنها فيه. وعادت اميركا تواجه مأساة القتل المتواصل في لبنان. فقد اصبحت جزءاً منه. ولم يكن في الامكان توجيه اصبع اتهام هذه المرة، لأن احدا لم يعرف من يقف وراء هذه العملية. وعلى الرغم من ان جماعات متطرفة، وصفت نفسها بأنها تنتمي الى ايران، اعلنت ان لها يدا في الجريمة، فإنه كان هناك مجال للشك في ذلك. في اي حال، كانت نتائج الانفجار مروعة. اذ ان المحطة الشرق اوسطية لوكالة الاستخبارات المركزية الاميركية هوت وتحطمت مع المبنى. وقتل روبرت اماس، مدير شعبة الشرق الادنى وجنوب آسيا، وهو احد خبراء الاستخبارات الاميركية في المنطقة، مع ثمانية من عملائه. وقام اماس الذي يبلغ من العمر ٤٩ عاما بدور فعال في المناقشات بشأن التسويات في لبنان واعداد مبادرة الرئيس ريغان لدفع مسار السلام في المنطقة. وأعلن رئيس الولايات المتحدة بعد التفجير مباشرة ان «الهجوم المجرم لن يردع الولايات المتحدة عن مواصلة القيام بالخطوات اللازمة لجلب السلام الى دول المنطقة». وكان السناتور باري غولدووتر، كما كان متوقعا، اول من طالب بالرد على التفجير في بيروت، وإعادة ١٥٠٠ جندي من مشاة البحرية من لبنان الى الوطن.

خلال الايام الاخيرة من شهر نيسان (ابريل)، لم تحقق السياسة الخارجية الاميركية في الشرق الاوسط اية انجازات. وأخذت تتلقى الضربة تلو الاخرى. فأعلن الملك حسين انه لن ينضم الى عملية

السلام وفق مبادرة ريغان، لأنه لم يحصل على تفويض من المنظمات الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات. وفي وزارة الخارجية الاميركية جرى البحث عن المسؤولين عن فشل المبادرة، وفي الوقت ذاته جرى البحث عن وسائل من اجل تحقيق انجاز ما للرئيس.

هكذا ولدت المهمة المستعجلة التي قام بها وزير الخارجية جورج شولتز في دول المنطقة. انطلق شولتز في رحلته وهو مصمم على «تنظيف الطاولة» والوصول الى اتفاق بيْن اسرائيل ولبنان. ولم يجد الاميركيون صعوبة في ليِّ يد بيغن. وادركوا ان في اسرائيل حكومة منهكة، تبحث عن مخرج مشرف من الورطة التي زجت فيها. وكان رئيس الحكومة يتجنب الاشتراك في المداولات التي سبقت حضور شولتز، وترك معالجة الامور الى وزير الدفاع موشيه آرنس، ووزير الخارجية يتسحاق شمير. وأخذت المناسبات العلنية التي يظهر فيها بيغن تتضاءل، وغدت لقاءاته مع شخصيات من خارج البلد مصدرا استقى منه الدبلوماسيون المعلومات المتعلقة بحالة بيغن الصحية ورجاحة عقله. فإسرائيل، التي بدأت المفاوضات بمجموعة واسعة من التوقعات والكلام الكثير عن اتفاق سلام مع لبنان واستمرار الوجود العسكري الاسرائيلي في جنوب هذه الدولة، وافقت على التخلي عن معظم مطالبها. واستندت الى التعليل الذي عبر عنه شولتز وحبيب، والذي مفاده انه كلما كان الاتفاق اقل صريرا في نظر الاسد رئيس سورية، تعزز احتمال اخراج جميع القوات الاجنبية من لبنان. وساد اعتقاد في القدس انه اذا تحققت هذه الفكرة فعلا، فإنها ستقود الى مكسب مهم من الحرب: ليس منطقة امنية على مسافة اربعين كيلومترا عن الحدود الشمالية فقط، وإنما ايضا دولة مجاورة خالية من قوات معادية.

استمرت المداولات في القدس وبيروت ساعات طويلة، وأياما وليالي. وأخيرا وجدت حلول للعقبات: تم ضمان مكانة الرائد حداد في الاتفاق، وتعين في الاتفاقات السرية ان اسرائيل تستطيع مواصلة التحليق في الاجواء اللبنانية وتستمر سفنها في القيام بدوريات بحرية في المياه الاقليمية اللبنانية. ووافقت الولايات المتحدة على ضمان نفاذ مفعول الاتفاق، وأكدت انه سيكون من غير الممكن التداول فيه من جديد في حال مطالبة السوريين بذلك.

اخذت اوساط حكومية في البلد تلهو بفكرة انه بهذه المناسبة الاحتفالية التي يطلب من اسرائيل فيها التنازل، فإنها ستضغط على الولايات المتحدة من اجل التوصل الى سلسلة من التفاهم معها بشأن القضايا المشتركة غير المتعلقة بلبنان. وكان القصد من ذلك هو المطالبة بإعادة اقرار التفاهم الذي تم التوصل اليه في اعقاب اتفاقي فصل القوات مع مصر في سنة ١٩٧٥ اذ تأكد خلالهما ان الولايات المتحدة لن تجري مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية الى ان تعترف هذه المنظمة بحق اسرائيل في الوجود، وتلغي الميثاق الفلسطيني، وتعترف بقراري مجلس الامن ٢٤٢ و٣٣٨. كما كانت في القدس رغبة في التوصل الى تفاهم يقضي بألا تفرض الولايات المتحدة عقوبات على اسرائيل في المستقبل. لكن بقيت هذه كلها مجرد افكار وأمنيات. ولم توقع تفاهمات مكتوبة. ووعد وزير الخارجية الاميركي بالمساعدة في بناء طائرة «لافي» المقاتلة وخلال فترة قصيرة سمح لاسرائيل بتوقيع عقود لشراء ثمان طائرات إف ـ ١٦، كان قد توقف تزويدها في اثر فرض عقوبات نتيجة قصف المفاعل النووي في العراق.

تجنب جورج شولتز الذي امضى في القدس ساعات طويلة،

طرح مشروع الرئيس ريغان لدفع محادثات الادارة الذاتية مع مصر. وكان وقته محدودا، فلم يشأ اثارة خلاف جديد. واتفق شولتز وبيغن على ان يُبحث في هذا الموضوع خلال زيارة رئيس الحكومة لواشنطن في الصيف.

اطلع رئيس سورية على الاتفاق بتفاصيله كافة. وقد وصف احد الحضور الحديث على النحو التالي: بعد تبادل التحيات بين الرجلين وحاشيتهما، استهل شولتز كلامه شارحا الاتفاق بين لبنان واسرائيل بإسهاب، الذي سيؤدي الى انسحاب قوات الجيش الاسرائيلي من الاراضي اللبنانية. وظهرت ابتسامة دقيقة على شفتي الاسد، الذي تابع الاصغاء بصبر. وعندما انهى شولتز كلامه بمساعدة المترجم، استهل الاسد الكلام مهاجما الاتفاق بشدة. ووصفه بأنه «اسوأ من اتفاق كامب ديفيد الذي وقع بين اسرائيل ومصر». واضاف قائلا بعد ذلك: «إن الاتفاق الاسرائيلي ـ اللبناني يحد من سيادة لبنان، ويشكل تهديدا لسورية وللدول العربية الاخرى. فإذا ارادت دولة عربية نقل اسلحة عبر الاراضي اللبنانية اشترتها من مكان آخر، فإنه ليس لحكومة لبنان الحق، وفق الاتفاق، في السماح بانتقال مثل هذه الاسلحة، إلا اذا كان البلد المستورد للاسلحة مرتبطا بعلاقات دبلوماسية مع اسرائيل. وبحسب الاتفاق، ليس للبنان الحق في الاحتفاظ، في اي قسم من اراضيه، بأسلحة مضادة للطائرات يزيد مداها عن ١٥ الف قدم. ومعنى ذلك: ان اسرائيل ستتحكم في اجواء لبنان. ولا تستطيع الطائرات اللبنانية التحليق في اجواء الجنوب اللبناني إلا بعد ابلاغ السلطات الاسرائيلية. كما ان القرارات في الجنوب اللبناني ستتخذ من قبل اوساط اسرائيلية ولبنانية بصورة مشتركة». وهاجم الاسد عبارة «منطقة الامن»، التي حصلت عليها اسرائيل بموجب الاتفاق: سيضاف

الى عاصمة اسرائيل، تل ابيب، التي تبعد مسافة مائتي كيلومتر عن الحدود اللبنانية، نحو خمسين كيلومترا هي عبارة عن طول قطاع الامن داخل الاراضي اللبنانية ـ على حد قول الاسد. وفي مقابل ذلك، ستكون في منطقة الامن التي تبعد مسافة تتراوح بين عشرين وثلاثين كيلومترا عن دمشق، عناصر عسكرية اسرائيلية. وسيكون الجندي الاسرائيلي على مسافة ٢٥ كيلومترا من دمشق. واما الجندي السوري فسيكون على مسافة ٢٥٠ كيلومترا عن تل ابيب ـ قال الاسد ووصف الاتفاق بأنه «استسلام لا يمكن ان ترضى به سورية والدول العربية».

افرز الحديث مع الاسد امام شولتز صورة وضع مختلفة تماما عن تلك التي عرضها حبيب ودرايبر. ورفض رئيس سورية الاجتماع الى حبيب. وقال الاسد بصراحة ان حبيب كذب عليه وخدعه خلال الاسبوع الاول من الحرب في لبنان. جاء حبيب من القدس لتحقيق وقف اطلاق نار بين الفريقين، ووعده باسم بيغن بأن يبقى الوضع على الارض كما كان عليه في آخر الاسبوع الاول من المعارك. وبعد بضعة ايام من ذلك هاجمت اسرائيل قواعد الصواريخ السورية في لبنان وقضت عليها. وكان حبيب اذن شريكا في هذه الخطوة الاسرائيلية من دون ان يدري. وكان الاسد ينظر الى حبيب انه لبناني عربي. لقد حاول الوسيط الاميركي مرات عديدة الخوض في نقاش معه بهذا الشأن، قائلا ان والده غادر لبنان واستقر في الولايات المتحدة لأنه لم يكن يرغب في العيش في ظل حكم الاتراك. وفضل الاسد ممثلا اميركيا آخر من اصل مختلف.

عندما جاء شولتز ليطلع فريق الوزراء الاسرائيلي، الذي كان ينتظره في مطار بن ـ غوريون، على النتائج كان اقل تفاؤلا بالنسبة الى احتمال انهاء الترتيبات في لبنان. وكانت النقطة المضيئة الوحيدة التي

بقيت من الحديث مع الاسد، هي موافقته على استمرار التفاهم مع الولايات المتحدة. وبقي الاتفاق بين اسرائيل ولبنان على الورق فحسب. فأقره البرلمان اللبناني، بيد ان الرئيس امين الجميل يؤخر حتى اليوم توقيع وثائق الابرام، التي ستجعل الاتفاقات نافذة المفعول.

كان فيليب حبيب الضحية الاولى للوضع الذي ساد في اعقاب رفض الاسد البحث في إخراج قواته من لبنان. اذ رفض رئيس سورية، كما ذكرنا، الاجتماع الى حبيب. وتوصلت واشنطن الى ان السبيل الوحيد لدفاع الترتيبات في لبنان هو الاعتراف الاميركي بمصالح سورية الشرعية في لبنان. وتدرك الولايات المتحدة حاليا انه سيكون من المستحيل مواصلة حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي بعزل سورية عن المسار. وقال الاسد لشولتز صراحة ان «التجربة قد اثبتت ان الحلول الجزئية والمنفصلة لا تخفف من التوتر الذي يشوب النزاع في المنطقة، وبالتالي فإن الحل الوحيد الممكن هو اتفاق شامل وفق قرارات الامم المتحدة».

ادى الجمود في لبنان الى قرار اسرائيل بالانسحاب من جانب واحد من خط الجيش الاسرائيلي في لبنان. وكان هذا يخالف موقف الولايات المتحدة ومفاهيم الحكومة، والتي تقضي بأن اسرائيل لن تتحرك من المناطق التي احتلتها في لبنان الى ان يخرج المخربون ويبدأ جلاء السوريين.

في صيف سنة ١٩٨٣ وجدت الولايات المتحدة نفسها تدخل لبنان، في حين بدأت اسرائيل تخرج منه. وكان جنود البحارة الاميركيون شركاء في الصراع الدموي بين مختلف الفرقاء في لبنان، وخرج الجيش الاسرائيلي من جبال الشوف، التي كانت محور النزاع

الدامي بين المسيحيين والدروز. ووجدت الادارة الاميركية صعوبة في ايجاد محاورين في القدس. وقد اخذ مناحم بيغن يبتعد عن عملية اتخاذ القرارات السياسية، كما ان مستشاريه الاوفياء وجدوا صعوبة في اخفاء انحساره. وكان اول دليل واضح على بداية نهاية نهجه السياسي، هو قراره بإلغاء سفره الى الولايات المتحدة للاجتماع الى الرئيس ريغان ووزير الخارجية والدفاع وزعماء الكونغرس. ولم يكن هناك نقص في تفسيرات إلغاء السفر: الحالة المعنوية الصعبة التي كان بيغن غارقا فيها، والاحساس بانعدام المخرج في لبنان، وغير ذلك. لكن قبل الغاء الزيارة بوقت قصير اجتمع رئيس الحكومة الى رئيس الدولة، حاييم هيرتسوغ. وبينما كان الاثنان يجلسان على انفراد قال بيغن ان لا فائدة حتى من محاولة شرح مواقف اسرائيل لريغان.

خاتمة

كانت حرب لبنان حرباً حتمية. كانت مترسخة عميقاً في فلسفة المخططين لها: مناحم بيغن واريئيل شارون ورفائيل ايتان، وفي المسارات التي اجتازت المنطقة منذ توقيع اتفاق كامب ديفيد بين اسرائيل ومصر.

كانت نظرة مناحم بيغن تنبع من مفهوم مبدئي احادي الجانب اساسه ضمان وجود الشعب اليهودي ودولة اسرائيل بأي ثمن. اما مصدر استلهام هذه النظرة فكان مذبحة يهود اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، بفضائعها ونتائجها. لقد عاش بيغن كل هذه السنين مع حس المواجهة مع العالم وبشعور من الغضب على الشعوب والدول، يوجه اصبع الاتهام الى هؤلاءالذين وقفوا جانباً بينما كان ملايين اليهود يُقادون الى الافران.

والجواب العملي الوحيد لهذه النظرة الى العالم هو: القوة، والقوة اليهودية فقط هي التي تستطيع ان تضمن بقاء دولة اسرائيل والشعب اليهودي. ومن وجهة نظر بيغن، فإن هذا الوجود معرض لتهديد دائم من جانب الدول العربية ومنظمات المخربين الفلسطينيين. وان امكان

وصول اسلحة نووية الى ايدي قسم من اعداء اسرائيل، او قيام دولة فلسطينية على حدودها، قد غذّت وجهة النظر هذه بشأن ضرورة مراكمة قوة ردع وأستخدامها استخداماً وقائياً لرد هذا الخطر.

هذا هو التفسير لحقيقة ان الاشخاص الذين كانوا اكثر تأثيراً على مناحم بيغن خلال ولايته كرئيس للحكومة، كانوا من العسكريين، إن في الخدمة الفعلية او في الاحتياط. في السنوات الاولى كان هؤلاء موشيه دايان وعيزر وايزمن، جنرالين سابقين شجعاه على التنازل عن منطقة سيناء وارجاعها الى مصر في مقابل اتفاق سلام، وبالتالي ضمان امن اسرائيل على حدودها الجنوبية. غير ان الامن الذي كان من المفترض ان يتحقق من خلال اتفاق السلام مع مصر، لم يستجب لتوقعات مناحم بيغن بشأن مستقبل يهودا والسامرة وقطاع غزة. فقد اتضح له ان اسرائيل ستضطر، في المستقبل، الى اجراء مفاوضات بشأن امنها في تلك المناطق ايضاً، وان المجتمع الدولي لن يسلّم بضمّها الى اسرائيل حتى بالامر الواقع. ومنذ ذلك الوقت، بدأ جنرالان آخران اكثر تطرفاً في مفاهيمها من سابقيهما، التأثير على بيغن. كان هذان هما اريئيل شارون ورفائيل ايتان. وفي تلك العلاقة التي ربطت بين هؤلاء الثلاثة توافرت كل المعطيات لخلق شحنة متفجرة موصولة بفتيل دقيق جاهز للاستعمال. لقد كان كل من شارون وايتان، في نظر بيغن، برهاناً على عدالة نظرته بشأن القوة اليهودية وما تستطيع ان تحققه. ان شارون، وقد كان قائد المنطقة الجنوبية، هو الذي الحق الهزيمة بالارهاب الفلسطيني في قطاع غزة في اوائل السبعينات. وقد اعتبره بيغن خلال حرب يوم الغفران، منقذا للشعب اليهودي من كارثة، عندما عبر قناة السويس ونقل الحرب الى المنطقة المصرية. اما رفول فقد كان «القائد العسكري اليهودي» بحسب تعبير

بيغن. لقد باع رئيس الاركان رئيس الحكومة فكرة حرب ابادة وقائية ضد منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. «لا انتقام بعد اليوم» كما كان نهج اسلافه. ولقد كان هناك، على ما يبدو، سبب برر هذا النهج: ففي صيف سنة ١٩٨١، قامت اسرائيل بتدمير المفاعل النووي في العراق. وعلى الرغم من التقديرات السوداوية بشأن ردة الفعل الدولية المحتملة، فإن شيئاً لم يحدث.

لكن ينبغي ألا ننسى ان مناحم بيغن كان اول رئيس حكومة في اسرائيل يوقع اتفاق سلام مع دولة عربية. وهذه الحقيقة ستكون في مصلحته في محكمة التاريخ. وبعد دخوله مكتب رئاسة الحكومة، وكان لا يزال جديداً في منصبه، جَمَح رئيس مصر الراحل انور السادات بمبادرته كريح عاتية. وفكر بيغن ملياً ثم خلع القفاز ومدّ يده. كان هناك من زعم انه فعل ذلك تحت تأثير صدمة صعوده الى السلطة. لكن مهما يكن الحافز، فالحقيقة هي ان بيغن شق الطريق الى القاهرة وواشنطن، ووقع الاتفاق الذي كان من المفروض، في رأيه، ان يضمن امن اسرائيل. لكن فاته ان يأخذ في الحسبان ان السلام مع الدولة المجاورة في الجنوب ستترتب عليه ايضاً بداية ارتباط ما في المنطقة واستعداد اقل لاستخدام القوة. لكن لم تكن هناك، بالنسبة الى رئيس الحكومة دولة عربية اخرى كان يمكن التفكير في حل وسط معها. وثم استثمار جهد اسرائيل السياسي في تحالف استراتيجي مع الجزء المسيحي في لبنان، تحالف اقليات محاطة بأعداء وهمّ دائم بشأن كيفية منع اقامة دولة فلسطينية الى جانب اسرائيل.

ماذا سيدوِّنون اذن، على نُصب مناحم بيغن السياسي؟ «لا حرب بعد الآن»، «لا سفكَ دماء بعد الآن»، «وسيهدأ البلد اربعين عاماً»، ام

ستُنقش على الشاهد تلك الأفعال والاحداث التي جرت في لبنان؟ ان بيغن يؤمن بالكلمات المعبرة، وقد كان مستعداً لدفع ثمن باهظ لتجسيدها. من ناحية ثانية، فإن شارون ورفول، اللذين استخدما القوة وتمكنا من استخدامها نفذّا على الارض رؤية بيغن الاساسية والتي كانت في جوهرها رؤيتهما هما ايضاً. وفي حرب لبنان اخضعت تلك الرؤيا للاختبار، فانهارت.

كانت اهداف الحرب تصفية قيادة منظمة التحرير والمنخرطين في صفوفها، وتشكيل حكومة في لبنان تعترف بالسلام او على الاقل، تعيش بسلام مع اسرائيل. وكان مناحم بيغن مقتنعاً بإمكان تحقيق تلك الاهداف. وكان هو الذي بادر وقاد، وكان على علم بمسارات الحرب كافة.

كان يتلقى المشورة من شارون وإيتان ومن الجهات الوطنية التي تصنع القرار: شعبة الاستخبارات العسكرية و«الموساد». و«الموساد» هو الذي كان يغذي بيغن في كل الاوقات، بالتقدير القائل ان الحلف مع المسيحيين في لبنان ثابت ومضمون.

لقد كانت الحكومة متشبثة ومتعلقة بمؤخرة متخذي القرارات الثلاثة. ولم يعبّر الوزراء عن مواقفهم إلا عندما اقترب الوضع من مستوى الكارثة الوطنية. ومع ذلك، حرص بيغن حرصاً شديداً على القواعد الديمقراطية: كان القرار في ايدي الوزراء في الظاهر، لكن المعلومات كلها كانت في يده ويد كل من شارون وإيتان. وقد أُشرك وزير الخارجية آنذاك، تيسحاق شمير، في سر الامور لكنه حتى لو عارض هذه الخطوة او تلك، فقد كان يحتفظ بذلك لنفسه.

ولم يكن بيغن ليهتم بالتفاصيل على الاطلاق. القرارات التي

اتخذها كانت عامة. وقد ترك امر الانشغال بالتفاصيل لآخرين كان واثقاً من انهم سيبذلون قصارى جهدهم. وكرئيس للحكومة، كان ينهمك صباح كل يوم في قراءة التقارير وتقويمات الوضع. وفي الاسبوع الاول من الحرب في لبنان وُضع تقرير استثنائي. كان ذلك وثيقة مناقضة للنظرة التي قامت الحرب على اساسها: مجموعة من المواطنين اللبنانيين الذين التقوا مسؤولا اسرائيليا، حللت الوضع وفرص التوصل الى «نظام جديد» في بلدها. وقد حددت الآتي:

«إن قدرة اسرائيل على التأثير في اقامة حكومة قوية في لبنان هي مجرد خداع. ان حكومة تقوم تحت رعاية اسرائيل ستحتفظ بموقعها الى حين مغادرة الجيش الاسرائيلي للبنان. ان للمسيحيين مصلحة قصيرة المدى في التعاون مع اسرائيل وليس اكثر من ذلك، كائنا من يكن التيار المسيحي السائد. ومن الخطأ الاعتقاد ان المسيحيين موحدون في فهمهم لما يجري في لبنان. هناك كتل حزبية مختلفة تبدو في الظاهر، متعاونة فيما بينها. لكن في اللحظة التي يغادر فيها الجيش الاسرائيلي، ولا يعود هناك من يمكن الاستناد اليه، فإن التناقضات في المصالح بين المسيحيين ستنفجر، وسيكون من الصعب التكهن بنتائجها».

«ان مصلحة لبنان الاساسية تكمن في العلاقة بينه وبين البلاد العربية. ان لبنان هو محطة عبور ومركز تجاري للدول العربية كافة. انه يتلقى ٢٥٠ مليون دولار شهريا من مداخيل اللبنانيين العاملين في الدول العربية، وان احداً لن يتنازل عن مصدر الدخل هذا في مقابل سلام مفروض مع اسرائيل. فالاعتبار الاول الذي يحدد مستقبل لبنان هو الاعتبار الاقتصادي والتجاري لا الاعتبار الامني. واللبنانيون يستطيعون مواصلة العيش في مثل هذا الوضع الداخلي الذي كانوا

يعيشونه الى حين نشوب حرب سلامة الجليل».

هل حققت تلك الاقوال غرضها؟ هل وقعت على آذان صاغية؟ ان معطيات اساس لبنان كدولة وكمجتمع صمدت في اطار ائتلاف واه لكتل تقتسم فيما بينها المواقع والنفوذ في المجال الاقتصادي ـ وهو امر غائب عن انظار متخذي القرارات الرئيسيين في اسرائيل، ولن يتأخر وصول النتائج.

إن النتيجة الفورية للحرب في المرحلة التي سبقت خروج قادة المخربين ورجالهم من بيروت، كانت طرح مبادرة الرئيس ريغان لحلّ النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني. لقد نصّت تلك المبادرة على خلق رابط بين الضفة والقطاع وبين الاردن، وعلى انضمام القوى المعتدلة في اوساط المنظمات الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات، الى مسار التسوية. وقد شكا رئيس الحكومة الذي كان وقع الخطة على رأسه كالقنبلة، فقال: «إن الاميركيين لن يسمحوا لنا بأن نبتهج بما حققنا». فما اراد ان يمنع حدوثه بالذهاب الى الحرب في لبنان، قد حدث. فقد دعيت حكومة اسرائيل الى التصدي للمشكلة الفلسطينية على المستوى السياسي، ووصلت بنفسها الى هذا الاستنتاج بعد ان ضربت ذراع منظمة التحرير الفلسطينية العسكرية.

إذن، فقد تداعى كلياً ذلك الايمان بأن حرب لبنان ستضمن سيطرة اسرائيل على يهودا والسامرة وقطاع غزة الى الابد. فإسرائيل لم «تصف» فكرة قيام كيان فلسطيني في المناطق. وقد عبر رفائيل ايتان، في حديثه مع الوسيط الاميركي فيليب حبيب، بعد نشر مبادرة الرئيس ريغان عن الافكار التي قام عليها المفهوم الذي قاد الى الحرب، هذا المفهوم الذي اصبح في خطر في اعقاب هذه الحرب، قال: «انكم لا

تفهمون ان ارض اسرائيل بالنسبة الينا ليست موضوع مساومة كما في محل بقالة. ان ارض اسرائيل بالنسبة الى الشعب اليهودي هي موطنه، واذا حاولوا فرض حلول اخرى على الشعب اليهودي فستبدأ حرب اكثر فظاعة. ووفقاً لذلك، فإن الامر ليس جدالاً حول مستوطنة او حول وجود. ان اسرائيل هي عند الحدود التي رسمها الانتداب البريطاني. انكم مستقرّون في الولايات المتحدة، فهل تتنازلون للمكسيك عما اخذتموه منها؟ ان الولايات المتحدة لم تعترف في يوم من الايام بالسيادة الاردنية على الضفة الغربية. ان اسرائيل لنا وستبقى لنا دائما وأبداً. اهلي جاؤ وا الى هنا قبل مائة عام، وعلى هذا نشأنا. أهلكم هاجروا الى الولايات المتحدة لأسباب خاصة بكم. ونحن عدنا الى هنا لأن كل حجر هو لنا ويتحدث الينا».

في العلن وإزاء العالم الخارجي، كانت الولايات المتحدة «صديقتنا الكبرى». لكن بين الكواليس كان بيغن يطلق العنان للسانه، ويتحدث عن محدودية فهم صانعي السياسة في واشنطن لما يجري في المنطقة. إن العلاقة بالولايات المتحدة كانت تنطوي على تكافؤ الضدين: ارتباط وارادة في التحرر، كمزيج من التطلع الى التعلق بقوتها وبالقيم التي تعبر عنها الولايات المتحدة كأمة، والسعي في المقابل للتظاهر بالاستقلال وعدم الارتباط.

والولايات المتحدة هي الاخرى ليست طاهرة من الاخطاء في الطريقة التي عالجت بها ازمة لبنان. ففي القدس وقبل نشوب المعارك، فهم اولئك الذين اتخذوا قرار شن الحرب، ان الولايات المتحدة ستتحمل ما ستُقدم عليه اسرائيل. وقد كان وزير الخارجية الاميركي آنذاك، الكسندر هيغ، هو الذي اعطى القدس اشارة الانطلاق: الى الامام في خطوة محدودة. وقد فُرض الفيتو الاميركي

عندما شكلت المعركة خطراً، أو كادت تعرض للخطر ذلك التفاهم غير المكتوب بين واشنطن وموسكو فيما يخص مناطق الازمات في العالم. وبعد الحرب، وعندما علمت الادارة الاميركية بأن سورية ستخرج قواتها من لبنان فقط اذا حصلت على المقابل الملائم: الاعتراف بمصالحها المشروعة في هذه الدولة، ارتكزت السياسة الاميركية على اجراء مفاوضات منفردة بين اسرائيل ولبنان و«الرهان» على ضرورة ان يكون الاتفاق مقبولاً من سورية، وإلا فإنها سترفض إخراج قواتها.

لقد استغلت سورية اشهر المفاوضات استغلالاً جيداً، وواصلت تنمية قوتها العسكرية بمساعدة الاتحاد السوفياتي، وفي نهاية الامر استخدمت الاتفاق الاسرائيلي - اللبناني راية وحدت تحت لوائها التكتلات المختلفة في لبنان ضد الاتفاق، واستعادت لنفسها موقع السيطرة في لبنان وفي المنطقة. وقد اثبتت سورية للولايات المتحدة انه من دونها لا يمكن التوصل الى اي مسار سياسي في المنطقة يحقق تقدماً على صعيد عقد تسويات بين اسرائيل وجيرانها. وان اتفاق كامب ديفيد الذي قام على اساس استبعاد العناصر المتطرفة، مثل سورية والمنظمات الفلسطينية، قد تحطم في حرب لبنان على الصخرة التي اقامتها دمشق. ولم يبق اليوم سوى خيار واحد: العودة الى مسار تسويات شامل بمشاركة سورية والاتحاد السوفياتي.

وقف مناحم بيغن عاجزاً. اسرائيل بدأت تنسحب من لبنان بالتنازل عن اهدافها الشاملة، الاحساس بالندم راح يتزايد: من اجل تحقيق النتائج المقلصة ثم تنفيذ هذه الحملة الطويلة بكل عذاباتها على لبنان. الجيش الاسرائيلي ينكفىء الى الوراء والجهات المعادية لاسرائيل تعود فتنتظم نفسها من جديد. وخلاصة الامر، ان صورة الوضع في لبنان يمكن ان تعود مرة اخرى الى ما كانت عليه قبل

نشوب الحرب. ماذا سيحدث عندئذ؟ هل سيكتب المؤرخون عن العملية الباهرة التي نفذتها الحكومة بقيادة مناحم بيغن الذي نجح في اعادة العجلات الى الوراء؟

وعلى الرغم من خطورة طرح مناقشة لصيغة «لو» وافتقار مثل هذا الطرح الى الاستقامة، ففي الامكان القول وبيقين تقريباً انه لو كانت هناك حكومة اخرى في اسرائيل في صيف سنة ١٩٨٢، فمن المعقول جداً انها كانت ستتوصل ايضا الى الاستنتاج القائل بضرورة ارسال الجيش الاسرائيلي الى عملية في لبنان. لكن بفارق واحد: ان ابعاد العملية واهدافها كانت ستكون مختلفة.

ما الذي يشجع على مثل هذا الافتراض؟ ان التهديد العسكري من جانب منظمة التحرير الفلسطينية لمستوطنات الشمال، لدولة اسرائيل ككل، ولليهود في ارجاء الكون، كان قائماً. لقد تحولت منظمة التحرير الى جناح يمثل المسألة الفلسطينية تمثيلا مركزياً. وفي صيف سنة ١٩٨٢، رفضت الكتلتان الرئيسيتان في المؤسسة السياسية في اسرائيل - الليكود والمعراخ - الحوار مع منظمة التحرير. وكان الاختلاف الاساسي في المفهوم السياسي بين المعراخ والليكود يكمن في السؤال التالي: اين سيكون خط الحدود بين الاردن كدولة للفلسطينيين وبين اسرائيل كدولة لليهود؟ الليكود رفع شعار حدود ارض اسرائيل الكاملة عند نهر الاردن كما رُسمت في فترة الانتداب البريطاني. اما المعراخ الذي كان يخاف من فقدان طابع اسرائيل اليهودي وتحولها الى دولة ثنائية القومية يمكن ان تُقضم من الداخل، فقد حدد في برنامجه السياسي ان خط الحدود الدولية هو الذي يتم الاتفاق عليه في حل وسط اقليمي. وبناء على ذلك فإن اضعاف منظمة التحرير عسكرياً هو وحده الذي سيتيح لأصحاب هذين المفهومين

التقدم على صعيد تحقيق اهدافهم السياسية...

وهكذا واجه مناحم بيغن هذا الوضع اليائس في نهاية صيف سنة ١٩٨٢. ان تقديراته وتوقعاته من اجل ان يحسن صنعاً مع شعبه ويثبته على ارض مضمونة في حدود ارض اسرائيل التاريخية، لم تتجسد. فقد ثبت ان الحلف مع المسيحيين في لبنان هو عكاز خيزران محطم. ومنظمة التحرير الفلسطينية لم تصفَّ، ولم ينحسر خطر اقامة دولة فلسطينية. وعلاوة على كل ذلك، فإن انقسام الشعب والثغرات التي حدثت فيه نتيجة للضحايا الكثيرة التي تطلبتها حرب لبنان، والتخوف من احتمال نشوب حرب - اخوة، وفظاعة الحروب بالنسبة الى بيغن - كل هذا حفّز الرجل الذي كانت دوافعه خلقية على النهوض ومواجهة الواقع والقول بما تبقى له من قوة: لم يعد في امكاني اكثر من ذلك. وفي ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٣، قدم مناحم بيغن كتاب استقالته من رئاسة الحكومة في اسرائيل الى رئيس الدولة حاييم هيرتسوغ.

لقد اعتاد مناحم بيغن، خلال توليه رئاسة الحكومة، ان يروي للوزراء ان نابليون عندما كان يدوّن ملاحظات عن ضباطه في سجلات التقدير، كان يضيف ملاحظة فريدة؛ فبالاضافة الى تقويمه للقدرة على ركوب الخيل، والسيطرة على الجنود، وقراءة الخرائط، كان يسجّل ايضاً عبارة: «عنده حظ»، او: «ليس عنده حظ».

ومناحم بيغن لم يكن محظوظاً.

الفهرســت

مدخل ٧
الفصل الاول: اوثقت اقدامهم ١٣
الفصل الثاني: أحقاً كارثة؟ ٣٣
الفصل الثالث: من سيخرج الصواريخ ٦٥
الفصل الرابع: وقف اطلاق نار ام لا ٩٩
الفصل الخامس: العد العكسي ١١١
الفصل السادس: تطهير المنطقة ١٤٥
الفصل السابع: حرب بكل معنى الكلمة ١٧٩
الفصل الثامن: بحجم الآمال ٢٣٥
الفصل التاسع: الاختراق ٢٧٩
خاتمة: ٣١٥